الحياة النبوية

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه



عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

المجلد الأول



الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ _ ٢٠٢٣م


الحياة النبوية
حياةُ الرسولِ ﷺ كأنَّكَ تعيشُ معهُ



El-hayat el-nebeviye©
ISBN: 978-605-71319-8-0



+90 551 163 82 25
wasmbookstore.com
wasm.bookstore@gmail.com
WasmBookstore
Wasm_Bookstore


www.altriri.net
altriri@gmail.com
/altriri
@Abdulwahab.altriri
/c/AbdulwahabAltorairy
t.me/altriri
abdulwahabaltriri
+905467723779

الطبعة الأولى
1444هـ - 2023 م

وسم للمعرفة والثقافة ـ اسطنبول ـ تركيا
Fatih, Aksemseltin mahallesi, Haliciar Cd, No 18, Istanbul

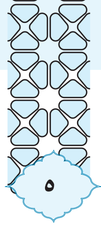


حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

المجلد الأول







إهداء

إلى صديقتي وشقيقتي وأمي مع أمي..؛ إلى التي شاركتني لَعِبَ الطفولة، وطُموحَ الشباب، وصحبتني في مراحل العمر، وتحملت معي هموم الحياة، وكانت لي أُنساً ومدداً، وعوناً وبركة؛ فهي الحاضرة معنا، والمرجع لنا.. أختي: أم نايف منيرة الناصر الطريري.

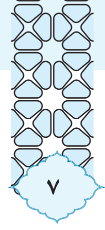
وإلى زوجها: أخي وصديقي وصهري؛ أبي نايف سعود بن عبد الرحمن العصيمي.

وإلى أبنائنا: نايف، وعمر..

وبناتنا: حصة، ونوف، والعنود، وهيفاء، وديمة سعود العصيمي..

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.





شكر ودعاء

لأخي أبي عبد الرحمن عبد الله بن ناصر البدراني، فما كان هذا الكتاب ليتم على ما هو عليه لولا رأيه ومتابعته، فقد كان محفزاً للعزيمة، ومعيناً بالمشورة، وكان سنداً ومدداً، ففي حرصه طاقة وعزم، وفي نصحه سداد ورشد، وكم كلمة ألقاها في ضميري فأنبتت وأثمرت وآتت أكلها، وكم شعرتُ معه أن الإنسان قليل بنفسه، كثير بأخيه، فهو المؤازر في العمل، والشريك في الإنجاز.

فأسأل الله أن يكتب له هذا العمل أجرَه، وذخرَه، وبركتَه، وأن يجزيه عني خير ما جزى أخاً عن أخيه، وأن يتم عليه نعمته، ويديم عافيته، ويتولى عني مكافأته..

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وأخي الشيخ د. فيصل بن علي البعداني، الذي راجع مسودة الكتاب وهو لا زال في طور التخلق والتكوين، فقرأه قراءةَ تَفْلِيَةٍ وإفادة، وبنى عليه فوق بنائه، وأفادني بملحوظات دقيقة، وإضافات ثمينة، وأخذ ذلك منه الكثير من وقته وجهده، فأعاد الكتاب خلقاً آخر أتم وأوفى، فله مني الشكر والثناء، وخالص الدعاء، فنعم والله أخو العلم هو تواضعاً وتلطفاً، وبرّاً وتكرماً، شكر الله له جَهده، وضاعف أجره، وجزاه عني خير الجزاء وأوفاه.

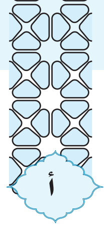
ولأخي د. أنس السرميني.

ولأخي الشيخ أحمد بن محمد الدوسري.

فقد قاما بمراجعة الكتاب وإفادتي بملاحظات قيمة انتفعت بها.

فلهم جميعاً خالص الشكر وصادق الدعاء.





تقديم مبرة الآل والأصحاب



الحمد لله الذّي منَّ علينا بالإسلام، وأكرمنا بنبيه محمد عليه أفضلُ الصلوات والسَّلام، وجعل آثاره الكريمة ضالَّتَنا المنشودة، والاقتداء بِهَديهِ الأهْدَى، ونورهِ الأوضح الأبدي؛ غايتنا المقصودة، لبلوغنا جنةَ ربِّنا الموعودة، وأنعم على قلوبنا بالارتياح لذِكراه والاهتزاز عند سماعِ خبرٍ عنه مَصدَرُهُ أو إليه مُنتهاه.

فإنّ الارتياح للذِّكر شهادةُ الحُبِّ، وأمارةُ المُحِب، وقد روى عنه صلوات الله عليه نقلةُ السُّنة أنَّ من أَحَبَّهُ كان معه في الجنَّة.

فنسأل الله تعالى أن يكتبنا في محبِّيه حقيقةً، ويسلك بنا من الوقوف عند مقتضيات أوامره ونواهيه طريقةً بالسعادة خليقةً.

ونُصلّي قبلُ وبعدُ على هذا النبيّ المبارك الكريم، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه المُنتخبين، خير صحبٍ وخير آل.

أمَّا بعد؛ فإنَّ علم السيرة النبوية أشرف العلوم التاريخيّة، لارتباطه بحياة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمُّ السلام، إذ انطوت على دائرةٍ من المعارف الشَّرعية والإنسانية التي لا يسعُ المسلمَ الجهلُ بها، أو الاستغناءُ عنها، سواءٌ في حياته الدِّينية، أم في حياتهِ اليوميّة، إضافةً إلى منظومة القيم الإسلاميّة التي جسّدها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سلوكه مع أهلِ وأصحابهِ ومن لقي من الأمم والأقوام، فكان أسوة حسنة حيّة للاقتداء والتعليم لأمته على مرِّ العصور، إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومنْ عليها؛ وهو خير الوارثين.

وقد أكَّد **الإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله** هذه المعاني فقال: «مَنْ أراد خيرَ الآخرةِ، وحِكمة الدُّنيا، وعدلَ السِّيرة، والاحتواءَ على محاسنِ الأخلاقِ كُلِّها، واستحقاقَ الفضائل بأسرِها؛ فليقتدِ بِمُحمّدٍ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وليستعملْ أخلاقه، وسِيَرَه ما أمكنه، أعاننا الله على الاتِّساءِ به بِمَنِّه، آمين آمين»[1].

ويقدِّم هذا الكتابُ سيرةً تفصيلية عن حياة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، سيد ولد آدم عليه السلام، بسردٍ ممتعٍ، وتفاصيل دقيقة.

ولراقمه: **فضيلة الشيخ عبد الوهاب الطريري أبا الخيل حفظه الله** قلمٌ رشيقٌ، وتعبيرٌ أنيقٌ، يلامسُ خلجات النَّفَس، وتسكن فيه الرُّوحُ من ضجيج المعاني.

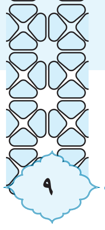
والمبرةُ إذ تقدِّم لقرَّائها هذا اللونَ الجميلَ، والسِّفر النفيس، والمعاني الرائعة، من حياة سيد الآل والأصحاب ومُربيهم صلى الله عليه وآله وسلم، لَتَرْجُو أن تكون قد أضافت إلى مجالها الذي تخصصت فيه وأخلصت له؛ مزيدًا من الألَق والإبداع الذي يؤثّر في النفوس والأخلاق، ويُحيي هذه القدوات التي نهلت من معين هذه المدرسة التربوية النبوية العظيمة في حياة جميع المسلمين: طاقةَ حب، وإخلاص، وصدق.

وصلى الله وسلّم على سيّدنا مُحمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مبرة الآل والأصحاب

---

(١) رسائل ابن حزم: ١/ ٣٤٥.



مُقدِّمة



السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد..

فإن من أعظم منن الله علينا بعثة نبيه ﷺ فينا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، ومن تمام هذه المنة على الأمة بقاء سيرته وسنته، وحفظ أخباره وأحواله، فإذا حياته تتنقَّل في أمّته جيلاً إثر جيل، يعرف كلُّ جيلٍ عنه ما عرفه الذين صحبوه وعاشوا معه.

ولئن كان لأصحاب النبي ﷺ شرف صحبته وفضل لقياه، فإن لأجيال أمته اللاحقة شرفَ وراثته، برواية علمه، وحفظ سيرته.

فهذا النبي الكريم ﷺ حاضرٌ بسيرته في أجيال أمته، مهما تباعدت أزمانها.

ولئن كان النبي ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى، فقد ظل ـ بسيرته المحفوظة الواضحة المشرقة ـ في وجدان أمته بعده حاضرا كأنما تتراءاه رأي عين، فهي تعرف عنه تفاصيل حياته، ودقائق أحواله، تعرف ملامح وجهه، وخطوات مشيه، وكلامه إذا تكلم، وتلاوته إذا قرأ، وصلاته إذا صلى، تعرف لباسه الذي يلبسه، وطعامه الذي يأكله، وبيته الذي يسكنه،

وتعرف عشرته مع أصحابه، وأنسه مع زوجاته، وحاله في كل شأنه، حتى كأنما هو حيٌّ يعيش بيننا.

ولأن النصارى لا يملكون هذا الوضوح والحضور عن نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، استكملوا بخيالهم تصوراً محسوساً برسم الصور والتماثيل المتخيلة للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في أديرتهم وكنائسهم، حتى يوجدوا له حضوراً في حياتهم.

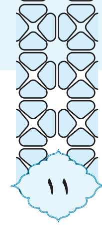
أما المسلمون فإن ما يعرفونه من سيرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كافٍ في تصوره من غير تصوير، وتمثُّله بلا تماثيل.

فالرسول عندهم صورة، والرسول عندنا سيرة[(١)].

وقد سبق أن جمعت كتيباً عن البرنامج اليومي لنبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وما الذي يعمله في يومه من الصباح إلى الصباح، بعنوان: «**اليوم النبوي**»، فرأيت تتميماً لذلك جمع كتاب يقدم «**الحياة النبوية**» بامتدادها وسعتها وتنوعها، وينظر إليها من زواياها المتعددة، ويروي من أحواله وهديه ما يشترك الناس فيه معه؛ فإن كتب السيرة اعتنت بالمغازي والجهاد، ولذا سميت في بداياتها بـ «**كتب المغازي**»، وتولت كتب «**الشمائل**» جانب الأخلاق، وبعض أحوال الحياة، فرأيت إعادة تقريب هذا الموضوع، بأن أذكر أحوالاً متنوعة يتكون من مجموعها تصور للهدي النبوي والحياة المحمدية في شؤونها وأحوالها المتنوعة؛ في العبادات، والعادات، والأخلاق، والمعاملات، والعلاقات، من مثل: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ زوجاً، وأباً، وصدِيقاً، والرسول والقرآن، والقيام، والصيام، والرسول في المسجد، وفي السوق، وفي الطريق، ومع أصحابه، ومع الأطفال، ومع الخدم، والرسول في مجلسه، وعلى فراشه، وعلى

---

(١) فائدة من مذاكرة مع أخي: د. عمر فاروق قورقماز.



طعامه، والرسول والذوق، والجمال، واللهو، والقراءة وهكذا..

فهو إعادة صياغة للشمائل النبوية، وعرض لأحوال الرسول ﷺ في حياته التي هي مشتركُ الحياة الإنسانية في تطبيقاتها النبوية، وتلمّستُ منها ما يتماسُّ مع حياة الناس بعامة، وما له حضورٌ في واقعهم واهتمامهم، وهو موضوع لا زال في طور التكامل، فثمةَ موضوعات مهمة هي تحت الإعداد، ولعلي أُلحقها في جزءٍ آخر إن شاء الله تعالى.

ومع أن الكتاب ما زال في طور الإعداد، إلا أني دفعت بما تيسر منه؛ عسى أن يكون ذلك محفزاً للإتمام، وميسراً للتصحيح والاقتراح، وإنه ليسرني أن أتلقى ممن يطلع عليه ما يراه استدراكاً أو تصحيحاً أو إضافة فكرة.

سائلاً الله أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتواصين بالحق والصبر، وأن يحشرنا في زمرة نبينا ﷺ، وأن يوردنا حوضه، ويرزقنا شفاعته، ويكرمنا بمرافقته في ﴿جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرٍ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

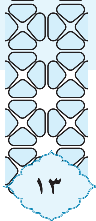
باشاك شهير، إسطنبول

١٢ ربيع الأول ١٤٤٣هـ


+ ٩٦٦٥٠٤٤٥٥١١٧

altriri@gmail.com





مَسَارُ الكِتَابِ



١- هذه بعض زوايا الحياة النبوية، ولا زال ثمة جوانب أخرى بحاجةٍ إلى دراسة وتجليةٍ، فالحياة النبوية واسعةٌ ثريةٌ، فهي كالجوهرة الكبيرة، ذات الزوايا الكثيرة، من حيث نظرت إليها رأيت أنواراً وإبهاراً، ولذا فإني أستعين الله على إتمام ما تيسر منها، وسينفر آخرون لتتبعها واستيفائها.

٢- وقد اجتمعت مادة هذا الكتاب خلال سنين عديدة، وفي أوقات متفرقة، ولذا سيلحظ القارئ التفاوت في الأسلوب والمقدار بين مواضيع الكتاب للتباعد الزمني بين كتابتها، ووجدت أن إعادة تنسيقها وتحريرها لتكون على سنن واحد مما يضيق عنه الوقت والقدرة، فرأيت إخراجه كما هو، وما لا يدرك كله لا يترك جله.

٣- وربما كررت بعض القصص النبوية لتعدد الاستشهاد بها في كل موضعٍ بحسبه لكثرة دلالاتها.

٤- ربما كررت في هذا الكتاب بعض ما ذكرته في كتبي الأخرى

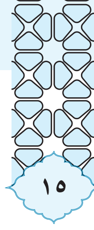
لمناسبة المقام، وذلك أني لا أفترض أن مَن قرأ كتاباً أكمله، ولا أن مَن قرأ كتاباً قرأ الكتب الأخرى غيره.

٥- عند عزو الحديث فإني أعزو أصل الحديث إلى أهم الكتب التي أخرجته، وقد يكون في الألفاظ التي أذكرها زيادات من مصادر التخريج الأخرى فلا أستقصي ذكرها في التخريج، وما عاد الوصول إلى مجموع روايات الحديث بالأمر البعيد المنال، بعد خروج الموسوعات الجامعة، كـ«المسند الجامع المعلل» بإشراف د. بشار عواد معروف، و«المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة» لصهيب عبد الجبار، وتتبعُ الألفاظ في مصادرها هو شأن الخاصة من طلبة العلم، وهم أهدى من القطا إلى مظان ألفاظ الحديث زادهم الله توفيقاً وتسديداً.

وقد تولى عزو الأحاديث الإخوة الكرام الشيخ محمد زبير جامي، والشيخ أحمد البلامي، وفقهم الله.

٦- اجتهدتُ في اختيار النصوص الصحيحة ما أمكن، وقد أُورد رواياتٍ وأخباراً في سندها بعض الضعف، هي كالتتمَّة لما في الأخبار الصحيحة، إذا لم يكن في متنها نكارة ظاهرة؛ وذلك أن جمع الأخبار إلى بعضها يكشف عما يُستنكر ولا يأتلف مع جملة ما صح منها، كما أنه يَجبر ـ أحياناً أخرى ـ ضعف بعض ما ورد بإسناد فيه مقال؛ لوجود شواهد لمعناه، أو لأن سياق الأخبار يقتضيه، ونحو ذلك.

٧ ـ عرضت مسودة الكتاب على الإخوة الأفاضل الذين ذكرتهم في طليعة الكتاب، والذين أفسحوا له من وقتهم واهتمامهم وقد استفدت



من كثيرٍ من ملحوظاتهم التي ساعدت في اكتمال مادة الكتاب وإثرائها، فشكر الله لهم جميعاً.

٨ - دفعت بالكتاب بعد أن بذلت فيه ما بوسعي من جهد، ولكني مستبطنٌ يقينا جازما أنه لا زال بحاجة إلى مزيدِ تنقيحٍ وتحريرٍ، وحذفٍ وإضافة، لأن التجربة التي عايشتها فيمن حولي أكدت لي مقولةَ: طلب الكمال مقبرة الأعمال، وعسى أن يصل إلى يد محب ناصح يوافيني بملحوظات، وإفادات، أستدركها في الطبعة القادمةِ لتكون إبرازته الأخرى أتم وأوفى، وإني بغاية الامتنان لكل من راسلني باستدراك أو ملحوظة، أو تتمة أو إفادة، استدركها في الطبعة القادمة لتكون إبرازته الأخرى أتم وأوفى، سائلاً الله أن يجعلهم شركاء في الأجر، ولا زال العلم رحماً بين أهله.

جعلنا الله جميعاً من المتواصين بالحق والصبر، المتعاونين على البر والتقوى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

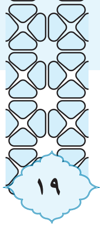




البَابُ الأوَّل

طَلَائِعُ الكِتَابِ





المَسِيرَةُ مَعَ السِّيرَةِ

تكونت علاقتي بالسيرة النبوية وأنا في المرحلة الابتدائية، فقد أعطاني أبي كتاباً في السيرة أتذكر صور صفحاته الآن، ولا أذكر عنوانه ولا مؤلفه، فما كان هذا يهم من هو في سني حينها!

استوقفني في هذا الكتاب السرد الوصفي للسيرة، وعلق بذهني وصف غزوة بدر، وجعلت أتخيل المشهد وأتفاعل معه، وشعرت بنقلة في قراءة السيرة تختلف عن طريقة المنهج المدرسي الذي كان يقدم السيرة لنا معلومات جامدة هي أسماءٌ وأرقام، مثل: ما اسم أم الرسول ﷺ؟ ما اسم مرضعة الرسول ﷺ؟ كم عدد جيش المسلمين في بدر؟ كم عدد شهداء المسلمين في أحد؟ متى وقعت معركة الخندق؟ وهكذا..، وكأنها استبانة وليست سيرة.

ثم قرأت كتاب «**فقه السيرة**» للشيخ محمد الغزالي، وجذبني أسلوبه الأدبي الرائع، والذوق الوجداني الذي كتبه به، وسمعت أن دموعه كانت تختلط بمداده حينما كان يكتبه.

وهو كتاب مغموط القدر، لم ينل من الشهرة ما نالته كتب أُلِّفت بعده ولم تبلغ شأوه ولا قاربت، ولكن كما قيل:

فكم في العرس أبهى من عروس ولكن للعروس الدهرُ ساعد[١]

ثم قرأتُ فيما بعد قراءة متوالية في كتاب «**زاد المعاد**» لابن القيم ﷺ، فكان نمطاً آخر وطرازاً فريداً في عرض السيرة النبوية، واستخلاص الهدي النبوي منها، وهي قراءة ما زلت أجد ذخيرتها وبركتها في نفسي إلى يومي هذا.

وتأثرت بتلك القراءة المتفاعلة لأحاديث السيرة النبوية حينما تُقرأ على شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله، فترى من انفعاله وتفاعله عجباً! وكأنه يرى ما يُروى، ويعيش حَدَث الحديث بمشاعره ووجدانه، رأيته وحديث الإفك يقرأ عليه وقد احمرّ وجهه، وارتعدت شفتاه، وغلبه الانفعال، فلم يستطع أن يعلق على الحديث بأكثر من عبارات متقطعة، وجمل حبسها التأثر الشديد!

ورأيته يوم عرفة يحكي استشهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الناس، ثم قوله: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ!**»[٢]، وهو يحكي الحركة بأصبعه ويشير بها ويقول: ونحن نشهد، ونحن نشهد، ثم تلجلجت العبارات واختلطت بنشيج البكاء، ومشاهد أخرى غيرها جعلت الحياة مع السيرة ذوقاً ووجداناً.

وممن تأثرت به في أداء السيرة النبوية: الشيخ محمد الراوي رحمه الله، وكان يروي وقائعها في خطبه بنبرته المؤثرة، وعبارته البليغة، وأدائه الرائع، وقد استوقفته يوماً وهو يهم بالخروج من قسم القرآن وسألته عن طريقة قراءة السيرة وأدائها؟ فوقف لي وانطلق في كلام مسهَب ختَمه بهذه الجملة الجامعة الرائعة: «**السيرة النبوية ليست قصةً ماضية، ولكنها سنةٌ باقية**».

---

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري (١/ ١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

ثم تكونت لدي حصيلة أوسع بعد أن صرت أقدم دروساً لجمع من الزملاء أُحضِّر لها من «**سيرة ابن هشام**»، مع تعليق السهيلي في «**الرَّوْضُ الأُنُف**».

لكنَّ أتم تصورٍ للسيرة حصّلتُه كان من قراءة كتب السنة: «**الصحيحين**»، و«**السنن**»، و«**المسند**»، والكتب الجوامع كـ «**الجمع بين الصحيحين**» و«**جامع الأصول**» و«**جامع الأصول التسعة**» وغيرها، فإن هذه الكتب تروي وقائع حياة النبي ﷺ، وتفاصيل سيرته وشمائله، وما يجري في يومه، ويتكون بمجموعها تصور مكتمل للحياة النبوية، وينقلك من سيرة المغازي إلى سيرة الحياة.

ولا يزال القارئ لكتب السنة يتروى منها أحاديثَ السيرة وأحداثها، ويمعن النظر فيها، ويربط بين وقائعها حتى تتكثف لديه الصورة، ويتضح له المشهد، وترتفع عنه حجب الزمان والمكان، فكأنما هو يعيش الواقعة والواقع، فيدخل المسجد النبوي كما وُصِف، ويرى النبي ﷺ خارجاً من بيته متجهاً إلى محرابه، يرمق خطوه، ويسمع قراءته، ويعرف ملامحه، ويرى إشراق محياه، ووضاءة وجهه، يعرف خطوته إذا مشى، ولحظه إذا نظر، ونبرة صوته إذا تكلم، ومجلسه إذا جلس.

وكأنما يجلس إليه مع أصحابه يعرف كل واحد منهم بملامحه وسُحنته، يسمع حوارهم وينصت إلى كلامهم، يعرف أنَّ هذا الشيخ الأسيف أبو بكر، وهذا الصارم الشامخ عمر، وذاك الأنيق الوسيم عثمان، وهذا الشاب الفَتيِّ القوي علي، وهذا الضئيل القليل وعاءُ العلم ابن مسعود، وذياك الفتى الودود خويدمه أنس؛ رضي الله عنهم أجمعين.

وتتكون له دربة وذوق، فيعرف تكملة الحديث قبل أن يكتمل، ونهاية

القصة قبل أن تنتهي، ويتوقع ما يمكن أن يقع، ويعايش القصة كأنه عاشها، ويرويها وكأنه كان فيها.

مرَّ ابن عمر رضي الله عنهما بالشعبي، وهو يحدث بالمغازي، فقال: كأنه كان شاهداً معنا، ولهو أحفظ لها مني، وإن كنت شهدتها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم [(١)].

وهذا الذَّوَاق والخبرة هما اللذان كانا يُوجدان مكتملَيْن عند أئمة الحديث: مالك، وأحمد، والبخاري، وعلي بن المديني، والترمذي، وأضرابهم..

فلم تكن معرفتهم برواية السنة وتصحيحها مجرد صنعة، ولكن معها فراسة كوّنتها الممارسة وطول العشرة.

وكل من سلك طريقهم نال نصيباً من نصيبهم، وكلٌ يغترف من بحرها حسب سعة إنائه، وفتوح الله عليه.

وكلما ازدادت معرفتك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ازددتَ إعجاباً به، وحبّاً له، وشوقاً إليه، وأيقنت بحكمة الله البالغة في اصطفائه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وتعرفت على مواضع القدوة في الحياة النبوية، فهي الثمرة العظمى من معرفة السيرة.

وقد ساعدتني النشأة الأولى في بلدة الزُّلفي، وإدراكي بقايا من الحياة النجدية الأولى لقرب العهد بها.. على تصور البيئة النبوية في المدينة، ومعرفة نمط الحياة؛ لتشابه الواقع والبيئة والحال مع ما كان مُعاشاً حينها في نجد، فالأدوات هي هي بأسمائها وحقائقها: القصعة، والصحفة، والغَرْب،

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن أبي خيثمة» (١٧٩٨)، و«معجم الطبراني الكبير» (١٣/ ١٨١)، و«تاريخ بغداد» (١٤/ ١٤٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٧٠).

والرَّحل، والمحجن، والقربة، والشن، والثريد، والقديد، والأقِط، والحَيس، والتي قد تغير بعض أسمائها ولكن لم تتغير حقائقها.

ومثله نمط الحياة كالبُكور فجراً، والقيلولة قبل الظهر، والغداء صباحاً، والعشاء عصراً أو مغرباً.

وكل هذه المشاهد كانت وسيلة إيضاح قرَّبت إليَّ تصور الأحداث والأحوال، فما احتجت أن أسأل ما هو الأقط ولا الغَرْب ولا الضَّب ولا السَّعدان، ونحو ذلك؛ لأنها كلها من مألوف البيئة.

وتيسر لي تصور الحياة النبوية كما كانت، فقد أدركت بقاياها، ورأيت شواهدها، مما جعل الصورة تكتمل في مخيلتي، وقلما تحدثت عن مشهد إلا بعد أن تمثلته أمامي، وجعلت أتكلم وأنا أصف ما أراه وليس ما قرأته، وعندما كتبت كُتَيباً عن «**صفة حجة النبي ﷺ**» قال لي بعض من قرؤوه: كأنما كنا نشاهد فيلماً أو نرى مشهداً.

وسبب ذلك كثافة الصور المنقولة عن حياة النبي ﷺ، حتى صرنا نعيش تفاصيلها، وكأنا أدركناها وعشناها!

وكتب السيرة المتداولة التي اختصرت «سيرة ابن هشام» أو التي نحت نحوها، كان التركيز فيها على الغزوات والمعجزات، ولا عتب في ذلك، فقد قصدَتْ هذا القصد منذ بداية تأليفها، ولذا كان اسمها في البدايات: «**المغازي**».

والقارئ لها يجد عرضاً للأحداث الكبرى في حياته ﷺ، ولكن جوانب الاقتداء في حياته لا تكون مستوفاة فيها؛ فإن أحداث الهجرة والمغازي ليست حاضرة في حياة عامة المسلمين، وجوانب الاقتداء بالهدي النبوي

أوسع من ذلك وأرحب، وكل مسلم متشوق لمعرفة حال النبي ﷺ في تفاصيل حياته، وسائر شأنه، وهذا ما تصدت له كتب الشمائل، وتفرقت أشتاته في كتب السنة.

وكل هذا حفزني إلى محاولة تقديم تصور أقرب للسيرة النبوية، يتجاوز سيرة الغزوات إلى أحداث الحياة، ويجمع شتات المشهد في لوحة قريبة من الاكتمال.

وهو ما سرتُ عليه في رواية أحداث السيرة وكتابتها، فأتتبع روايات الحادثة المتفرقة، وأحاول جمعها كقطع الفسيفساء؛ ليتكامل من مجموعها لوحة مكتملة الصورة، ويحصل للنفس رَواؤها وارتواؤها من مشاهد السيرة، وتتضحُ لها مواقع الاقتداء والأسوة.

وحاولت ذلك في هذا الكتاب، وفي كتاب: «**اليوم النبوي**»، و«**قصص نبوية**»، و«**كأنك معه**»، و«**حديث الغدير**»، و«**القبر المقدس**»، و«**الآثار النبوية**»، و«**الأماكن النبوية**»، و«**معالم السيرة**».



خصائص السيرة النبوية



كم هي السِّيرُ التي كتبها أصحابها أو كُتبت عنهم! لكن ثمة خصائص تميز سيرة النبي ﷺ عن كل السِّير التي كتبت والتي ستكتب، وهي خصائص لا يشاركه فيها غيره، ومن تلك الخصائص:

أولاً: الوضوح.

ثانياً: الشمول.

ثالثاً: التكامل.

رابعاً: اليُسر.

خامساً: العظمة.

وهذه نبذة توضيحية عن كل منها:

أولاً: الوضوح:

فسيرة النبي ﷺ واضحة مشرقة، ليس فيها حلقات مفقودة، ولا زوايا معتمة، ولا مناطق غموض، وإنما تقدم لنا سيرة النبي ﷺ الذي عاش قبل ألف وأربعمئة سنة وكأنه يعيش معنا اليوم، فقد عرفنا كل تفاصيل حياته، يقول أحد المستشرقين وهو يصف حياة النبي ﷺ: ذاك نبي يمشي تحت الشمس؛ لشدة وضوح حياته ونصاعتها.

والذي يقرأ سيرة النبي ﷺ يشعر وكأنه ﷺ كان يعيش في بيت من زجاج؛ فحياته شفافة ليس فيها حياة عامة وحياة خاصة؛ لأجل هذا أقول بكل ثقة: إنني أعرف عن نبيي ﷺ أكثر مما أعرف عن أبي الذي ولدني، فالنبي ﷺ نعرف مدخله ومخرجه، وحياته في بيته، ومجلسه على طعامه، وأنسه مع أهله، ويقظته ونومه، وصوت نَفَسِه إذا نام، كلّ ذلك واضح كأنما نسمعه بآذاننا، ونراه بأعيننا، في حين أنه ما من أحد إلا وعنده صندوق خصوصياته، وله أسراره التي لا يدري عنها أحد غيره، إلا النبي ﷺ فليس في حياته غموض ولا أسرار، حتى مع زوجاته، فكل إنسان له مع زوجته خصوصيات لا يريد أن تخبر بها أحداً، ولكن النبي ﷺ لم يكن يأخذ على زوجاته ألا يخبرن بشؤونه، ولم يكنّ يخفين شيئاً من أمره!

وما من عظيم إلا كانت له نواح يحرص على سترها وكتمان أمرها، ويخشى أن يطلع الناس على خبرها. نواح تتصل بشهوته، أو ترتبط بأسرته، أو تدل على ضعفه وشذوذه، ومحمد ﷺ هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعاً، فكانت كتاباً مفتوحاً، ليس فيه صفحة مطبقة، ولا سطر مطموس، يقرأ فيه من شاء ما شاء.

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل ما يكون منه، ويبلغوه، فرووا كل ما رأوا من أحواله في ساعات الصفاء، وفي ساعات الضعف البشري، وهي ساعات الغضب، والرغبة، والانفعال.

وروت نساؤه كل ما كان بينه وبينهن.

فأروني عظيماً آخر، جرأ أن يغامر فيقول للناس: هاكم سيرتي كلها،

وأفعالي جميعاً، فاطلعوا عليها، وارووها للصديق والعدو، وليجد من شاء منهم مطعناً عليها.

أروني عظيماً آخر دونت سيرته بهذا التفصيل، وعرفت وقائعها وخفاياها، بعد ألف وثلاثمئة سنة، مثل معرفتنا بسيرة نبينا ﷺ؟[١].

ولهذا كان التابعون يأتون بكل ثقة ويقولون لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا عما كان يصنعه النبي ﷺ في بيته[٢]، فلم تقل لهم في يوم من الأيام: هذا شأن خاصٌّ بيننا، بل كانت تجيبهم بكل وضوح، وهذا مما لا يمكن أن تجده في سيرةٍ غير سيرة النبي ﷺ[٣].

إن هذا الوضوح في حياة النبي ﷺ جعل أجيال المسلمين تعيش مع سيرته، وتعرف شمائله وكأنها رأي عين.

ثانياً: الشمول:

لم تكن حياة نبينا ﷺ راكدةً رتيبة، ولكنها حياة واسعة متجددة، حافلة بتنوع الأحوال وشكول أمور الحياة.

إنك ربما التقيت بشخص عمره أكثر من مئة سنة؛ لكن عندما تتحدث معه تجد أن حياته سنةٌ واحدة مكررة مئة مرة، أما حياة نبينا ﷺ فمع أنها قصيرة نسبيّاً، إلا أنها حياة عريضة ثريةٌ، حافلةٌ بتجدد الأحوال، وتنوع الظروف، وله ﷺ حال مع كل حال.

نجد النبي ﷺ وقد مر به في حياته القلة والكثرة، فهو الذي سأله

---

(١) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» لعلي الطنطاوي (ص ١٦٩-١٧٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

(٣) ينظر تفصيل هذا المعنى في: «محاضرات في السيرة النبوية» للشيخ سليمان الندوي.

عمرو بن عَبَسَة بمكة فقال: كم معك على هذا الأمر؟ فقال: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»[(١)]، ثم نجده ﷺ يدخل مكة وحوله عشرة آلاف سيف، ويحج حجة الوداع ومعه أكثر من مئة ألف.

مرّ بالنبي ﷺ الفقر وقلة ذات اليد، حتى إنه لتمر عليه ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في بيته نار[(٢)]، وربما ربط على بطنه الحجر من جهد الجوع[(٣)]، ثم مرّ عليه ﷺ الغنى والثراء، فجُلب إليه المال ونثر أمامه في المسجد، فقسمه على الناس حثواً في الثياب[(٤)].

مرّ على النبي ﷺ الصحة والمرض، فقد عاش حياته ﷺ صحيحاً معافى، ثم مرض ﷺ حتى قال: «**إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»[(٥)].

مرّ على النبي ﷺ الفرح، حتى كان وجهه يتهلل كأنه إناء فضة مُذهَّب[(٦)]، ويستنير كأنه فلقة قمر[(٧)]، ويمر بنبينا ﷺ الكرب حتى يتمعر وجهه من الكرب[(٨)].

ذاق ﷺ بهجة الأبوة، ففرح بأبنائه وبنياته، وبشر أصحابه صبيحة يوم من الأيام فقال: «**وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»[(٩)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٢٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٤).

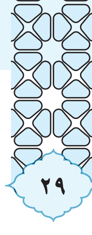
(٥) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

(٧) «صحيح البخاري» (٣٥٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٨) «صحيح البخاري» (٣٦٦١).

(٩) «صحيح مسلم» (٢٣١٥).



كما تجرَّع ﷺ ألم الفجيعة، وذاق لوعة الثُّكْل، فجلس ﷺ على شفير قبر ابنته زينب رضي الله عنها وعيناه تهمِلان؛ يسِحّ الدمع على وجهه الشريف[١]، ودخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس حياته فقال: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَحْزَنُ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[٢].

ذاق ﷺ نشوة النصر فما طاش، ولا استخف، وإنما خشع وتواضع لله، ودخل مكة فاتحاً حوله عشرة آلاف سيف، مطأطئ الرأس لربه، خاشعاً يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[٣].

وانهزم أصحابه في أُحُد وشُجّ جبينه، وكسرت رَباعيته[٤]، وسال الدم على وجهه[٥]، وصرع أصحابه رضي الله عنهم من حوله، فما انكسر ولا تضعضع، وإنما كانت عيناه تبرُقان من تحت المغفر[٦]، وكان هو الثابت الذي لا يفرّ، والصلب الذي لا ينكسر.

ومرت بالنبي ﷺ أحوال متنوعة في علاقاته، فتجد علاقاته مع المسلمين، ومع المشركين، ومع اليهود، ومع الأصحاب، ومع الأعداء، ومع الحاضرة، ومع الأعراب، ومع الصغار، ومع الكبار، وله في كل نوع من أنواع هذه العلاقات هَدْي وهُدَى.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

(٤) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٧٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٦) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).

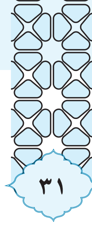
ولتفاعله مع الحياة نجد سعة أحواله فيها، فله حال في بيته مع أهله، وحال في مجلسه مع أصحابه، وحال في المسجد، وفي الطريق، وفي السوق... ونرى شمولاً وتنوعاً مع أدواره في الحياة، وكلُّ حالٍ له فيها حال، فثم حاله داعياً ومعلماً، وزوجاً وأباً وصديقاً، وحاله ذاكراً وتالياً ومصلياً، وحاله مسافراً ومقيماً، ومجاهداً ومعاهداً... إلى أحوال في الحياة كثيرة ومتنوعة..

ولتنوع هذه الأحوال في حياته ﷺ، فإنه قلما يمر حال في حياة المسلم إلا وجد هدىً في حياة النبي ﷺ وحالاً قريباً أو مشابهاً لحاله، فسيجد المفجوع في مصاب النبي ﷺ سلوة وعزاء، وسيجد الفقير في قلة ذات اليد التي مرت بالنبي ﷺ ما يؤاسيه ويواسيه، وسيجد الزوج، والأب، والصديق، والصحيح والمريض... في أحوال النبي ﷺ ما يلاقي أحوالهم وينير حياتهم.

حتى الخاطئون سيجدون في تعامل النبي ﷺ مع أخطاء الخاطئين هدياً وهدى لهم، فكل حال للنبي ﷺ فيها حال منيرة مشعة.

ثالثاً: التكامل:

قلَّما تقرأ سيرة عظيم من العظماء، إلا وتجد أن جانب العظمة في حياته قد ارتكز في ناحية واحدة، إما العظمة القيادية أو العسكرية أو العلمية أو التجارية ونحو ذلك، وغالباً ما تجد أن جانب العظمة عند هؤلاء العظماء قد جار على جوانب حياتهم الأخرى، فقد تجده قائداً عظيماً لكنه قاصر في حياته الاجتماعية، وتجد تاجراً ثريّاً لكنه فاشل في علاقاته، وعالماً كبيراً متخصصاً في فنه لكنه جاهل ببقية شؤون الحياة، وهكذا..



أما النبي ﷺ فلا تأتي إلى جانب من جوانب حياته، إلا ظننت أنه قد تفرَّغ لهذا الجانب فقط، فحين تأخذ حياة النبي ﷺ داعية، ستجد أنه ﷺ عاش حياته مستنفراً للدعوة، فقد كان يدعو وهو على الطعام، وفي الطريق، وعلى المنبر، وبين أصحابه، وفي حلِّه وفي سفره.. وتجد الدعوة مبثوثة في حياته كلها، حتى تكاد تقول: إن كل حياته دعوة!

وإذا تأملت حياته زوجاً، ستظن أنه ﷺ يقضي يومه كله متنقلاً بين تسعة بيوت وتسع زوجات!

وإذا تأملت في حياته أباً، ستجد حياة الأبوَّة مشبعة عنده، حتى كأن بناته وأحفاده همه كله..

وإن نظرت إلى حياته مع أصحابه، عجبت لقوة حضوره في حياتهم، واستيعابه لهم جميعاً على تنوعهم!

وهكذا.. كلما أتيت إلى جانب من جوانب حياته، وجدت فيه إشباعاً كاملاً؛ إذ لم يكن جانب العظمة قاصراً على ناحية من نواحي حياته، جائراً على بقية الجوانب الأخرى، وإنما كانت حياته متكاملة في كل نواحيها، بحيث إننا نستطيع أن نأخذ من كل هذا التكامل صورة واضحة للتوازن في الحياة، واستيفاء حقوقها جميعاً، فهو الذي قال: «**إنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقاً**»[(١)]، وكانَ هذا التوازن العجيب إحدى دلائل نبوته واستقامة حياته.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٧٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

رابعاً: اليُسر:

من معالم سيرة النبي ﷺ يسرها وواقعيتها، وسهولة التأسِّي بها.

وكما يسَّر الله القرآن للذكر فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فقد يسَّر سيرة النبي ﷺ وهديه للاقتداء فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن حُسنها يُسرُها، فإن الله لا يمكن أن يجعل الأسوة للأمة سيرةً فيها عنت ومشقة وعسر.

ولذا فإن الذي يقرأ سيرة المصطفى ﷺ يشعر بقربها وسهولة الاقتداء بها، بل ربما ذهب ظنه إلى أنه يستطيع أكثر منها، كما ظن ذلك بعض شباب الصحابة، فقد جاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بها كَأَنَّهُمْ تَقالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبداً، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

إنهم إنما تقالّوها لأنهم سألوا عن عبادات معينة، وهي القيام والصيام، بينما كانت حياة النبي ﷺ كلُّها عبادة مستديمة، كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سألها عَلْقَمَة قال: هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْتَصُّ مِنَ الأَيَّامِ شَيْئاً؟

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١).

قَالَتْ: لَا؛ كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً. وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ؟!»[١].

ولكنه العمل اللائق لطبيعة النفس البشرية ورغائبها وطاقتها!

وربما قرأتَ سير عظماء كُثر، وأعجبتَ بهم غاية الإعجاب، ولكن ليس كل من تُعجب به يسهل عليك اقتفاؤه والاقتداء به، بل ربما شعرت لأول وهلة باحترام لهذه الشخصية؛ ولكنك ترى أن نمط حياته يناسبه ولا يناسب غيره.

أما الحياة النبوية فهي ذلك النمط الذي يستوعب أنماط حياة الناس جميعاً، وكل من عرف سيرته أعجب بها وأحبها، ووجد فيها مجالاً رحباً للتأسِّي والاقتداء.

وعندما كتبت كتيباً عن «**اليوم النبوي**»، أهديته إلى أحد أصدقائي، فلما لقيته بعد ذلك قال لي: هل تعلم أني عندما تهيأت لقراءة الكتاب تحفزت وشددت الأحزمة، وأنا أنتظر المفاجآت في برنامج النبي اليومي، فلما انتهيت فوجئت أن لا مفاجأة! وأنه نمط سهل قريب، ولم أشعر أني ارتطمت بشيء غير متوقع؛ ليس في القدرة ولا المستطاع، أهكذا كان يعيش رسول الله ﷺ؟

فقلت له: وهل تظن أن يجعل الله لنا نموذج الأسوة والاقتداء غير هذا النموذج الميسَّر؟ أليس هو النبي الذي جاء باليسر وبشَّر به بقوله: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ**»[٢]؟!

وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا[٣] ﷺ[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٦٦)، و«صحيح مسلم» (٧٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٤) ينظر في هذه الخصائص مقال: «صلى الله عليه وسلم» للشيخ سلمان العودة.

خامساً: العظمة[١]:

وعظمته هي كمال العظمة الإنسانية، حيث اختاره الله من بين خلقه كلهم لحمل هذه الرسالة الكونية العالمية، ولتتمثل رسالته في شخصه حيَّة تتحرك في إهاب إنسان، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية، وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التي عملها العظيم.

وإما أن تكون بالآثار التي أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم.

ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تقاس بها عظمته، أما عظمة محمد ﷺ فتقاس بها جميعاً لأنه جمع أسباب العظمة من أطرافها، فكان عظيم المزايا، عظيم الأعمال، عظيم الآثار.

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط، نفعوها بقدر ما ضروا غيرها، كعظمة الأبطال المحاربين، والقواد الفاتحين.

وإما أن تكون عظمة عالمية، ولكن في جانب محدود، في كشف قانون من قوانين الطبيعة، أو معرفة دواء من أدوية الأمراض، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة، أو صوغ آية من آيات البيان؛ قصةٍ عبقريةٍ، أو ديوان شعر بليغ.

أما محمد ﷺ فكانت عظمته عالمية، في مداها، وكانت شاملة في موضوعاتها[٢].

---

(١) ينظر: «عظمة محمد خاتم النبيين» للشيخ مصطفى الزرقا.

(٢) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٠).

ومن جوانب عظمته:

١- عظمة مكانته: فله ﷺ الدرجة العالية الرفيعة، والمقام المحمود، واللواء المعقود، تحته آدم فمن دونه، وهو سيد ولد آدم وخليل الرحمن، «**إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله**»(١). وهل أعظم من أن يزكيه ربه الذي خلقه، فأقسم به، وأقسم له، أقسم بعمره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وأقسم له فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وليس أعظم من أن يصلي الله وملائكته عليه في الملأ الأعلى قبل أن يؤمر المؤمنون بالصلاة عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، وأن يتولى الله الذب عنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وأن يتوعد بالعذاب الأليم من تعرض له بأذى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢- عظمة مسؤوليته: فكان الأنبياء عليهم السلام قبله يبعثون إلى قومهم، وإلى زمانهم، وأما هو ﷺ فبعث إلى الإنس والجن عامة، وبعث برسالةٍ باقية إلى قيام الساعة، فهو خاتم النبيين لا نبي بعده، ولذا فهو أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة.

٣- عظمة شخصيته: حيث اجتمعت فيه الكمالات في خَلقهِ وخُلقه، وائتلفت فيه خصال الخير ومحاسن الأخلاق، مع استواء فطرته، وزكاء فؤاده، وقوة شخصيته، وكان عظيماً في بساطته، بسيطاً في عظمته، قريباً في سموه، يسيراً مُيسراً، قالت عائشة رضي الله عنها: مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٨٣).

أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً، فَإِنْ كَانَ إِثْماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا[١]. وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: مَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ[٢].

٤- عظمة خُلُقه: وهل أعظم من أن يزكي خُلَقه ربُّه الذي خَلَقه، فقال جل وعز: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ للاستعلاء المراد به التمكن، كقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، والخُلُق العظيم هو الخُلُق الأكرم البالغ أشد الكمال المحمود، وهو أبلغ من مطلق الخلق الحسن.

ويعجز كل قلم وكل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله لرسوله ﷺ يقول فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ومدلول العظمة عند الله مما لا يُدرِك مداه أحد من العالمين[٣].

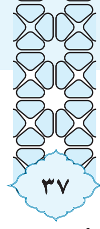
وهذه العظمة الأخلاقية هي الفطرة التي جبله الله عليها، وهيأه بها: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، فهو ﷺ عظيم بخُلُقه عظمةً فطريةً لا يتكلفها ولا يتصنعها.

٥- عظمة إنجازه: وذلك بنقله الأمة من أرجاس الوثنية إلى نقاء التوحيد، ونقلهم من الدهرية ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، إلى الإيمان بالبعث، والحساب والجزاء، والدار الآخرة الخالدة، ونقلهم من الفوضى الأخلاقية إلى الاستقامة السلوكية، ونقلهم من نَعَرات العنصرية

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير»، و«في ظلال القرآن».



وعصبية الجاهلية وفخرها بالأنساب، إلى: «**النَّاسُ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[(١)]. ونقلهم من ظلمات الجهالة إلى آفاق العلم وأنواره، فنقل الأمة الأمية إلى أمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، ونقلهم من عماية الخرافة إلى نور الحقيقة: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[(٢)].

أَتيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِمْ ... إِلا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ

وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَوراً مُسَخَّرَةٌ ... لِكُلِّ طاغِيَةٍ في الخَلقِ مُحتَكِمِ[(٣)]

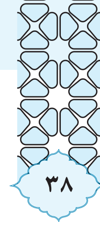
وتم كل ذلك في وقت قياسي، فخلال عشر سنين أسلمت الجزيرة العربية لربها، واتبعت رسولها، وما لَحِقَ ﷺ بالرفيق الأعلى حتى أدى الرسالة، ووفَّى البلاغ، واكتمل الدين، وتمت النعمة، وقامت الحجة، وترك الأمة على المحجة البيضاء.

٦- عظمته في خلود رسالته: فمنذ صدع بدعوته في مكة وإلى يومنا هذا وأتباع دينه يزيدون ولا ينقصون، ورسالته تتوسع وتتعمق، وموعود الله الصادق يتحقق: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وتغير مسار التاريخ وأحداثه، وثقافة البشرية وفكرها بعد رسول الله ﷺ، ولم يقع حدث على الأرض أعظم تأثيراً وأبعد مدى في التاريخ من دعوة رسول الله ﷺ، إن التاريخ كله بعد محمد ﷺ متصل به، مرهون بعمله، وإن حادثاً واحداً لم يكن

(١) «مسند أحمد» (٢٣٤٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٤٠)، و«صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.



ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد ﷺ[١].

وسيبقى دينه الدين الخالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا تزال طائفة من أمته قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله[٢].



(١) ينظر: «موسوعة العقاد» (٢/ ١٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٤١)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٧).

ثمرات قراءة السيرة

إننا نقرأ السيرة لنقطف تلك الثمرات الوفيرة اليانعة؛ لأجل هذا سأختصر أهم ثمار قراءتها في أربع ثمرات يانعات:

أولاً: الثمرة الإيمانية.

ثانياً: الثمرة الوجدانية.

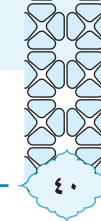
ثالثاً: الثمرة العلمية.

رابعاً: الثمرة التربوية.

وبيان ذلك كما يأتي:

أولاً: الثمرة الإيمانية:

إن الذي يقرأ سيرة النبي ﷺ، سيلاحظ أن الله ﷻ كان يُهيِّئ الأحداث لرسالة هذا الرسول العظيم ﷺ في عالم الغيب البعيد، فقد كان مجيء إبراهيم مع إسماعيل وأمه عليهما السلام إلى مكة، ليدَعَهُما في وادٍ غير ذي زرع، فتدب فيه الحياة، ويتكون مجتمع، وتعمر بلدة؛ تهيئة لبعثة محمد ﷺ فيها، ثم كان سفر هاشم إلى غزة، ومروره بالمدينة وزواجه بها، وولادة ابنه



عبد المطلب بها، ثم وفاة عبد الله فيها؛ ففي المدينة وُلد جده وتوفي أبوه، وكأنما كل ذلك تهيئة لهجرة النبي ﷺ بعدُ إليها.

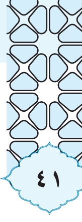
وكان عام الفيل في سنة مولده ﷺ، ليلفت أنظار العالم بهذا الحدث الخارق إلى البلدة التي سيبعث منها، وكل ذلك توطئة لحدث الرسالة.

إن هذه الأحداث من أحداث الغيب لا يمكن أن تقع اتفاقاً ومصادفة؛ ولكنه تقدير اللطيف الخبير.. أن تتتابع وتأتلف؛ تهيئةً لبعثة هذا النبي ﷺ، وهو ما يُحدث عند الناظر إيماناً بأن الله ﷻ كان يقدر أحداث التاريخ السحيق، حتى ائتلفت هذه الأحداث على تباعدها وتفرقها؛ ليلتقي تقدير الله في الزمان والمكان، ولتقع البعثة النبوية في أليق زمان بها وأليق مكان لها، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

إنها حكمة الله في تدبيره، ولطفه في تقديره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كما أن الناظر إلى حياته ﷺ يجد فيها دلائل نبوته؛ إذ لا يمكن أن تجتمع هذه الكمالات في شخصٍ ما لم يكن يُمَدّ بمددٍ إلهي، لذلك كان النظر في سيرة النبي ﷺ عاملاً قويّاً في زيادة الإيمان بالله، والتصديق بالرسالة، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ سأله أحد عشر سؤالاً ليس فيها سؤال عن معجزة، وإنما كانت أسئلته عن سيرة النبي ﷺ، فقال: هل كان من آبائه مَلِكٌ؟ هل قال هذا القول أحد قبله؟ هل يكذب؟ هل يغدر؟... إلخ، ثم قال: إن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو استطعت أن أخلص إليه لغسلت عن قدميه[١].

(١) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).



فهذا الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان، يؤكد أن هرقل إنما عرف نبوة النبي ﷺ من خلال سيرته، فسيرة النبي ﷺ تُثمر إيماناً بالله، وإيماناً بنبوة رسوله ﷺ؛ لأن تفاصيل حياته لا يمكن أن تأتلف إلا في شخصية نبي يوحى إليه من السماء.

ولما جاء ﷺ إلى المدينة انْجَفَلَ النَّاسُ إليه، قال عبد الله بن سلَام: فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ واستبنته، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[١].

فإذا كانت رؤية ملامح وجهه تدل على صدقه، فإن معرفة سيرته تدل على ذلك أيضاً؛ فإن سيرته لا يمكن إلا أن تكون سيرة نبي!

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات، والتوسع فيها، وإضافة معجزات لم تكن، وما حاجتهم إليها؟ وكل موقف من سيرة الرسول ﷺ، وكل جانب من شخصيته، هو معجزة من أكبر المعجزات.

وما المعجزة؟ أليست الأمر الذي يعجز الناس عن مثله؟!

إن صدقه وأمانته معجزة، ولن أسرد أمثلة كثيرة، فالمجال ضيق. ولكن أعرض مثالاً واحداً، حادثةً مررت بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي، ثم تنبهت إليها يوماً، فجأة.. فاذا هي أعجوبة، وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار. كلكم تعرفون أنه لما هاجر الرسول إلى المدينة، ترك علياً مكانه ليرد الودائع التي كانت عنده لقريش، فهل فكرتم يوماً ما قصة هذه الودائع؟

(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).

يردها لقريش لا للمسلمين، إذ لم يبق أحد من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول، لأنه كان آخر من هاجر، بقي كما بقي الربان في السفينة الجانحة، لا يتركها حتى ينزل الركاب جميعاً، ويصلوا إلى قوارب النجاة، وهذه مَنْقبة ذكرتها عرضاً.

لقد كانت سيرة حياته كلها معجزة، عجز عظماء العالم جميعاً عن أن يتركوا لهم سيرة مثلها، في كل ناحية منها عزة وعظمة، في ثباته في المعامع الحُمْر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به، وفي شجاعته التي تضعضع أمامها صناديدُ الرجال، وفي تواضعه للمسكين والفقير، ووقوفه للأرملة وللعجوز، في إقراره بالحق، في صدق التبليغ عن الله، حتى إنه بلغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفي عتابه، في احترامه العهود وحفاظه على كلمته، مهما كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصب، سواء عنده في ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة.

وفي ذوقه وحسه المرهف، وأنه هو الذي سن آداب الطعام وقرر قواعد النظافة، في وضعه مع أصحابه إذ يعلمهم ويعمل معهم، ويعيش مثلما يعيشون، حتى كان القادم عليه ليراه، ينظر في وجوه القوم فيقول: أيكم محمد؟[(١)]، ولم يكن يمتاز عليهم في جلوسه، ولا في ثيابه، كان مثلهم في كل شيء[(٢)].

ثانياً: الثمرة الوجدانية:

لا يزال المسلم يتعرَّف على النبي ﷺ من خلال سيرته حتى يحبه، وذلك أن من صفات النبي ﷺ أن من رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبّه،

(١) «صحيح البخاري» (٦٣).

(٢) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٨-١٨٠).

فكلما ازدادت معرفتك به ازداد حبُّك له، وازدياد حبك للنبي ﷺ يؤهلك لتكون معه في الجنة، فعَنْ أَنسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**». قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»؛ قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ[1]!

ولذا عاش الصحابة رضي الله عنهم نعيم هذا الحب النبوي، فكان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم وآبائهم، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يحكي قصة إسلامه: وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ[2].

وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ بعد أن أسلم: يَا مُحَمَّدُ! وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيَّ[3]!

ولما قُدِّم زيد بن الدَّثِنة رضي الله عنه للقتل، قَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٨٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَة تؤذيه، وأنّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي! قَالَ أبو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً، كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً[1].

وهذه المحبة ثمرة الإيمان والصحبة، وكمال المعرفة به ﷺ.

وهكذا كل من قرأ السيرة ازداد معرفة بالنبي ﷺ وازداد له حبّاً، وأثمرت تلك القراءة في قلبه ثمرة عظيمة، يرفعه الله بها في الجنة إلى منازل من أحب.

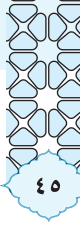
ثالثاً: الثمرة العلمية:

وذلك باستخراج الأحكام الفقهية التي تضمنتها السيرة النبوية ودلت عليها أحداثها، فإن ثمة أحكاماً كثيرة، يمكن لمن يمتلك الملكة الفقهية والقدرة على الاستنباط، أن يستخرجها من السيرة النبوية، كما هو الشأن مع السنة النبوية.

وهذا يؤكد بكل وضوح، أن السيرة لا تُقرأ للمتعة، وإنما تُقرأ للعلم؛ إذ أنها ليست قصة ماضية، ولكنها سنة باقية، وحين نقرأ السيرة وننظر إليها من هذه الزاوية، سنأخذ منها الفوائد والدروس والعبر والأحكام؛ كما فعل الإمام ابن القيم في كتابه «**زاد المعاد**»، الذي عرض فيه أحداث السيرة مع استخلاص الأحكام منها.

كما أن هناك من جرَّد الفوائد التربوية من السيرة، كما فعل الأستاذ مصطفى السباعي في كتابه «**السيرة النبوية دروس وعبر**»، والشيخ البوطي

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٧٢).



في كتابه «**فقه السيرة**»، ود. زيد بن عبد الكريم الزيد في كتابه «**فقه السيرة**»، وغير ذلك من الكتب التي عنيت باستخلاص الفوائد من السيرة النبوية.

وحين نقرأ السيرة ونستنبط منها الأحكام في حياتنا، سنجد في هدي النبي ﷺ زوجاً أحكام الزواج، وفي هديه في السفر أحكام السفر، وفي هديه في الجهاد أحكام القتال، وفي علاقاته مع المسالمين من غير المسلمين، هديه في التعامل مع الآخر، وهكذا في بقية أحواله وأمور حياته..

ومما يميز التفقه من السيرة، أَخذُ الأحكام من التطبيقات النبوية ووقائعها المتنوعة، فتكتمل النظرة إلى المسألة، ويسهل تحريرها.

فإذا نظرت إلى التعامل مع المخالف، أو التعامل مع المرأة، أو أحكام الجهاد، ونحو ذلك؛ فإن في جمع الحالات والتأليف بينها هداية إلى الحكم في كل حالة، والوقوف على الوصف المؤثر في حكم المسألة.

رابعاً: الثمرة التربوية:

وهي السلوك الذي نقتبسه من سيرة النبي ﷺ لتمثل الأخلاق الحسنة، وطريقة تطبيقها والعيش مع الناس بها، وذلك أنك ترى في السيرة كيف يعيش النبي ﷺ بحُسن الخُلق مع الناس، وكيف يضع الأخلاق في مواضعها، فيضع الحزم في موضعه، واللِّين في موضعه، وكيف يسع الناس بحسن خُلقه، وكيف يسيطر على انفعالاته، ويتحكم في ردات فعله، ويملك نفسه عند الغضب.

فمن ذلك قصة الأعرابي الذي لحق النبي ﷺ وجذب رداءه من خلفه، فمن شدة جذْبَتِه انشق الرداء، وأثَّر في صفحة عنق النبي ﷺ،

وارتد النبي ﷺ وكاد أن يقع إلى الخلف، وكانت هذه ثلاث مثيرات جديرة بإثارة الغضب، ثم قال للنبي ﷺ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ؛ لكن ردة فعل النبي ﷺ الفورية أنه التفت ولم يُعرض، وضحك ولم يتجهَّم، وأمر له بعطاء[١]!

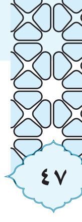
لقد كانت هذه ردة فعل تلقائية من النبي ﷺ، مع أن تصرف هذا الأعرابي كان غاية في الاستثارة؛ لكن ردة فعل النبي ﷺ كانت غاية في الانضباط، وعظمة الخُلُق، ومع أنها ردة فعل تلقائية فورية، إلا أنك لو تأملت الموقف على أناة وتفكر وطول تأمل، فلن تجد تصرفاً أروع وأجمل من هذا التصرف النبوي العفوي.. إنها مدرسة الأخلاق النبوية، التي نتعلم منها التربية على الحلم والانضباط، والتحكم في ردات الفعل عند الاستثارة.

وعندما تنظر إلى مهارته في افتتاح القلوب وتأليفها، وكسب محبة الناس عند التعامل معهم، وإبقاء أثر جميل في نفس كل من يلقاه، تجد أن كل من تعامل معه ﷺ لا يذكره إلا ويتذكره بحب، ويستعيد نشوة اللقاء به.

وهذا كله من هديه الذي نقتفيه، وسنته التي نتبعها ونتعبد الله بها.

وفرق بين أن نتحدث عن الحلم أو حسن الخلق أو الإحسان كمعان مجردة وأخلاق عامة، وبين أن نتمثلها من خلال التطبيقات النبوية الرائعة لهذه الأخلاق، وطريقة التعايش بها، فتتجلى العظمة الأخلاقية سلوكاً وممارسة، وتماساً مع حياة الناس وتعاملاتهم، وكيف بقيت ذكراه في نفوس أصحابه أجمل ذكرى، ومرآه أحسن مرأى، وكفه ألين كف، ورائحته

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).



أزكى رائحة؛ وذلك أنها محفوفة بحسن الخلق، حتى صاروا لا ينظرون إليه إلا بعين المحبة والرضا!

ويوضح ذلك ويجليه حديث أنس رضي الله عنه قال: مَا مَسِسْتُ حَرِيراً وَلَا دِيبَاجاً الْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وَلَا شَمِمْتُ رِيحاً قَطُّ أَوْ عَرْفاً قَطُّ، أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم[١]، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين، فوالله ما قال لي: أفٍّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلت كذا؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا؟[٢].

ولذا فإن في قراءة السيرة، والتروي من مشاهدها، تربيةً للياقة النفسية على حسن الخلق، وتأهيلاً للتعامل الراقي مع الناس، لأنه اتباع مقرون بالمحبة والتعظيم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، واحتساب الفضل والأجر في الاقتداء به.

وكم ارتفعت قتامة التجهم عن وجوه الصالحين بتذكرهم بسمات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحسن تلقيه، وذرفت شفاههم بأعذب القول وأجمل الكلام إذا تذكروا طيب حديثه، وعُمِرت قلوبهم بالمودات بينهم؛ لأنها تلقت عن سيد الخَلق صلى الله عليه وآله وسلم من حُسن الخُلق ما استنبت الحب في نفوسهم.

وبعد، ففي هذه الصفحات نطوف على أحوال من أحواله، ونلقي نظرات إلى زوايا من حياته، لنأخذ من أحواله لحالنا، ومن حياته لحياتنا، فإلى الحياة النبوية نقتبس نوراً ونستضيء هُدى.



(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).

الوجهُ النبوي

غمرت أنوار وجه رسول الله ﷺ وجوه أصحابه رضي الله عنهم، فوصفوه لنا وصفاً عاماً كما وصفوه وصفاً مفصّلاً، فدعوني وإياكم نعيش مع الوصف العام لمُحيّا وجه رسول الله ﷺ.

والوصف العام: هو ذاك الانطباع المجمل الذي يشعر به من يرى وجه رسول الله ﷺ، من غير أن يُفصّل في وصف ملامحه.

١- فأول ملحظ نجده في وصف الصحابة لرسول الله ﷺ هو الجمال والبهاء، يقول البراء: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، كان حَسَن الوجه مليحاً[١].

ولما سئل جابر بن سمرة رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً[٢].

والتشبيه بالشمس لإشراقه ووضاءته، كما قالت الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ رضي الله عنها وقيل لها: صفي لنا رسول الله ﷺ، قالت: لو رأيته لقلت إن الشمس طالعة[٣]!

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٤).

(٣) «مسند الدارمي» (٦١).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كأن الشمس تجري في وجهه[١].

والتشبيه بالقمر لجماله وملاحته، يقول جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نظرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ليلة قمراء وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إلى البدر وأنظر إلى وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أجمل في عيني من القمر[٢].

ووصف الصحابة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالجمال الباهر لا يكون إلا بامتزاج الجمال بالحب والإعجاب، فإذا نظر المحب إلى جمال من يحبه، أشرق في عينه وازدهاه، وتألق نظره إليه.

أما إذا وجدت الوحشة في النفس، فإنها تحجب رؤية الجمال، ولو كان نور الشمس وضياء القمر!

فصلوات الله على من جمع جمال الخَلق والخُلق، والظاهر والباطن، فتجلى جماله لعيون أصحابه الذين نظروا إليه بحب وتعظيم.

وقول جابر بن سَمُرة عن وجهه: كان مستديراً، أي: فيه تدوير مع استطالة، فلم يكن في غاية التدوير، بل كان أسيل[٣] الوجه فيه سهولة، وهي أحلى الملامح عند العرب[٤]، قال يزيد الفارسي: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميل دوائر الوجه[٥].

---

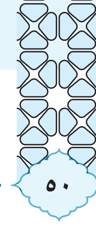
(١) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٨١١).

(٣) الأسالة في الخد: الاستطالة وأن لا يكون مرتفع الوجنة. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٤٩).

(٤) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٥٧٣).

(٥) «مسند أحمد» (٣٤١٠).



البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ ... وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَـرَمِ
شُمُّ الجِبالِ إِذا طاوَلتَها انخَفَضَتْ ... وَالأَنجُمُ الزُهرُ ما واسَمتَها تَسِمِ[(١)]

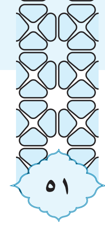
٢- وكان ﷺ أزهر اللون أبيض مُشْرَباً بحمرة، ليس بأبيض أمهق[(٢)] فاقع البياض، ولا أسمر[(٣)]، وتزداد نصاعة وجهه إذا حفها سواد شعره، قال أبو الطفيل: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره[(٤)].

ولما وصفه الصحابة رضي الله عنهم لمن يسأل عنه، قالوا: ذاك الأبيض المتكئ[(٥)]، وقال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمـام بوجهـه ... ثِمال[(٦)] اليتامى عصمة للأرامل[(٧)]

٣- كان في وجهه نضارة، تجعل من رآه يحسبه أصغر من عمره، حتى إذا رُئي مع من هم دونه في العمر رُئي بينهم شاباً، ولذلك عندما قدم المدينة وكان معه أبو بكر رضي الله عنه، وصف الناس لحظة اللقاء الأول فقالوا: فظننا أن أبا بكر هو النبي ﷺ، وذلك أن أبا بكر كان شيخاً قد شمط، وكان رسول

(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.
(٢) الأمهق: هو الكريه البياض كلون الجَصّ. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٧٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٧).
(٤) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٢١).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٦) الثمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه. ينظر: «تاج العروس» للزبيدي (٢٨/ ١٦٧).
(٧) «صحيح البخاري» (١٠٠٨).



الله ﷺ شاباً؛ مع أن أبا بكر كان أصغر من النبي ﷺ سنّاً[١].

٤- ومع هذه النضارة في وجه النبي ﷺ وهذا الجمال، كان عليه المهابة والوقار، فمن رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبه، ولذلك قال عمرو ابن العاص رضي الله عنه عندما حضرته الوفاة وكان قد صحب النبي ﷺ ثلاث سنين: والله لو سألتموني أن أصف لكم وجه رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصفه لكم؛ وذلك أني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له[٢].

فمن مهابة النبي ﷺ وجلاله، لم يكن الصحابة يُؤبِّدونه أبصارهم، وإنما ينظرون إليه لمحاً، وليس تحديقاً؛ لجلاله ومهابته ﷺ.

مَحَبَّـةٌ اللهِ أَلْقاهـا وَهَيْبَتُـهُ عَلـى اِبـنِ آمِنَـةٍ فـي كُـلِّ مُصطَـدَمِ[٣]

٥- ومن صفات الوجه النبوي: أن وجهه كان شفافاً، يشف عن أخلاقه، بحيث إن الذي ينظر إلى النبي ﷺ يعرف ما جبله الله عليه من كريم الأخلاق وشريف الخصال، يقول عبد الله بن سلَام رضي الله عنه: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما رأيت وجهه واستبنته، علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب[٤]، فكان الصدق يعرف في وجهه ﷺ!

ولما حج النبي ﷺ حجة الوداع ووقف في عرفة، كان الأعراب وأهل البلاد النائية الذين أتوا إلى عرفة يزدحمون يريدون أن يروا وجه رسول الله

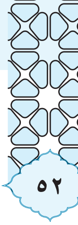
---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).



ﷺ، فإذا استنار لهم وجهه ﷺ قالوا: هذا الوجه المبارك[١]، فكانت البركة تُقْرأ في وجه رسول الله ﷺ ويشف عنها محيّاه.

ولم يكن وجهه جامد الملامح، ولكن كان شفافاً يشف عن انفعالاته النفسية، فإذا سُرّ وفرح تطلق وجهه واستنار، حتى كأنه فلقة قمر، يقول كعب بن مالك يصف لقاءه بالنبي ﷺ بعد أن تاب الله عليه: فلما سلمتُ عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»[٢]، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[٣].

ووصف جرير بن عبد الله البجلي سرور النبي ﷺ بمواساة وفد المضريين المجهودين الذين وفدوا عليه وقد جُمِعَ أمامه لهم كومان من طعام وثياب لهم؛ قال: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَة[٤]، أي: كأنه إناء فضة مطليّ بالذهب.

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: دَخلَ عَلَيَّ ﷺ مَسْرُوراً تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ فَقَالَ: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزاً نَظَرَ آنِفاً إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[٥]، فطفح السرور على وجهه كضياء البرق:

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل[٦]

(١) «سنن أبي داود» (١٧٤٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٤) «صحيح البخاري» (١٠١٧).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٥٩).
(٦) «الشعر والشعراء» للدينوري (٢/ ٦٦١).

وذلك فرحاً بأن مُجَزِّزاً أثبت نسب أسامة إلى أبيه، مع اختلاف لونيهما.

وكان إذا كره شيئاً عرفت الكراهية في وجهه ﷺ.

أما إذا غضب رسول الله ﷺ فإن وجهه يحمر، يقول الصحابة في وصف لحظة الانفعال هذه: كأنما يُفقأ في وجهه حَبّ الرمان[1]، وحبّ الرمان أحمر، فيحمر الوجه النبوي ﷺ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يصف لحظة غضبه: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ[2]، أي: كأنه الصبغ الأحمر.

فكان الوجه النبوي يشف عن الانفعالات، ويشف عن كريم الأخلاق، ويشف عن الجمال، وعن البهاء!

٦- وكان لوجه النبي ﷺ لمحة خاصة لا يشاركه فيها أحد، ولذلك يقول من رأى رسول الله ﷺ: ما رأيت قبله ولا بعده مثله، قالت امرأة من همدان رأته يطوف فقيل لها: شبهيه، قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله[3]:

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء[4]

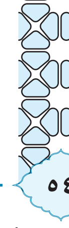
٧- ومن أجمل العبارات في وصف الوجه النبوي ﷺ وصف أنس رضي الله عنه للنظرة الأخيرة إلى وجهه ﷺ يوم وفاته، قال: كَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ

(١) «سنن ابن ماجه» (٨٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٣) «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٣/ ٢٨٢).

(٤) «المستطرف في كل فن مستطرف» (ص: ٢٣٦).



يَضْحَكُ[1]، فقوله: كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه؛ ولكن تعبير أنس بورقة المصحف يحمل معاني رائعة توحي بالجلال مع الجمال، وبالتعظيم مع الحب، فهو أجمل وصف سمعته للوجه النبوي، ولا أنسى وقعه على قلبي عندما سمعته أول مرة، فشعرت بمثل القشعريرة على قلبي من الهيبة، حتى إني أتذكر هذا الموقف اليوم، زمانَه ومكانَه، ونغمةَ القارئ وهو يترسل في قراءة الحديث، ولهفة الشوق العاصفة في نفسي لرؤية الوجه النبوي المقدس، بأبي وأمي ونفسي هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

خلاصات:

١- كان أجمل الناس وجهاً كأن وجهه فلقة قمر.

٢- كان له مع الجمال جلال ومهابة، فلا تمتلئ الأعين من النظر إليه.

٣- كان وجهه أزهر اللون، أبيض مشرباً بحمرة.

٤- كان وجهه يشف عن أخلاقه، فليس وجهه وجه كذاب ولا مريب.

٥- كان وجهه يشف عن انفعالاته، فإذا سُرَّ استنار وجهه وأشرق، وإذا كُرِب تغير وجهه وتمعَّر، وإذا غضب احمر وجهه.

٦- ما رؤي أحد قبله ولا بعده مثله.



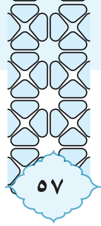
(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).



الباب الثاني

الرسول ﷺ وعلاقاته





الرَّسُولُ ﷺ وَأُمُّهُ

أم النبي ﷺ هي آمنة بنت وهْب الزُّهرية، السيدة الكريمة الجليلة الفاضلة؛ التي اختارها الله ﷻ من بين نساء البشرية كلها؛ لتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار النشأة الأولى للنبي ﷺ قبل أن يولد، ولتكون أول من يتلقاه في طريق الحياة، فحِجْرها أول حِجْر احتضنه، ولبنها أول طعام فتق فمه، وحنانها وحبها أول حبٍّ وحنان تذوقه، وجسدها أول جسد مسّ جسده ﷺ.

وقد تلقت البشرى بإشراق أنوار بعثته قبل مولده، فعن العرباض بن سارية قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي عِنْدَ الله فِي أُمِّ الكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»[١].

ولذا فإن حديثنا عن السيدة الكريمة أُمّ النبي ﷺ هو حديث المُحبّ لها المعظِّم لشأنها، فهي اختيار الله من نساء الأرض كلهن، لتكون أمَّ رسول الله

(١) «مسند أحمد» (١٧١٦٣).

ﷺ، ولا نتحدث عنها إلا ونحن نتخيل النبي ﷺ يسمع كلامنا ونحن نتحدث عن أمه؛ فكيف سيكون حديثنا عنها بين يديه؟!

أولاً: آمنة وعبد الله:

يُستَشَفّ من مجموع الأخبار حبُّ آمنة الشديد لزوجها عبد الله بن عبد المطلب، ويتضح هذا الحبّ من أنها لم تتزوج بعد عبد الله، وهذه ليست عادة نساء العرب، فالعادة أن الأيِّم تتزوج فوراً بعد موت زوجها، أما السيدة الجليلة آمنة فإنها لم تتزوج بعده، واكتفت أن تعيش على ذكراه.

فلما بلغ النبي ﷺ ستَّ سنين ذهبت به إلى المدينة: فقيل إن ذلك ليزور أخواله[١]، والمقصود بأخواله هنا أخوال جدِّه عبد المطلب، وليس المقصود أخواله هو؛ لأن أخواله هم بنو زُهرة، ولا أخوال أبيه فهم بنو مخزوم، وإنما المقصود أخوال جده.

وأظن الحامل لها على السفر إلى المدينة تلك المسافة الشاسعة بطفل في السادسة من عمره؛ ليس زيارة أخوال جده، بل زيارة قبر زوجها عبد الله لتمكن حبه من قلبها فلم تمت ذكراه من نفسها بعد موته.

ثانياً: رحلة المدينة ووفاة آمنة:

وكان من صنع الله أن تذهب آمنة ومعها أم أيمن ـ وهي أَمَةٌ لعبد الله ـ وابنها نبيُّنا ﷺ وهو طفل إلى المدينة، وكأنما كانت هذه الرحلة تهيئةً للهجرة النبوية بعد ذلك إلى المدينة.

وسَكَنت آمنة في المدينة عند بني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب،

(١) ينظر: «سيرة ابن اسحاق» (ص٦٥).

في دارٍ تسمى: «**دار النابغة**»، سكنها عبد الله حين قدم المدينة، وتوفي ودفن بها؛ ففيها قبره[١].

فسكنت آمنة عند قبر زوجها، ويا لله ويا لمشاعر آمنة وهي تعيش عند قبر زوجها الذي أحبته، وذاقت معه سعادة الحياة ذواقاً سريعاً، فبقيت آمنة شهراً في المدينة، وكانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا[٢]، فلما رجعت من المدينة هي وابنها ﷺ كانت قد أصابتها الحمى، فلما وصلت الأبواء[٣] اشتد بها المرض، وحضرها الموت هناك[٤]!

وعندما زُرت الأبواء حيث دُفِنتْ آمنة تخيلتُها في هذه الصحراء ومعها ابنها ﷺ وحاضنته أم أيمن، وهي تنازع سكرات الموت، وتلفظ آخر أنفاس الحياة، وأمامها بُنَيها تودع الحياة وتودعه، فأقول: يا لله أيّ لوعة كانت في نفسها تلك الساعة؟! وأيّ حسرة كانت تتجرعها وهي لا تدري ما الذي سيحدث لابنها بعدها، وهي التي ستموت وتتركه في هذه الصحراء؟! ماذا ستكون حاله؟! هل سيهلك مع هذه المرأة؟! هل سيصل إلى مكة؟!

ومن المؤكد أن كل هذه الأفكار كانت تعبر في ذهنها وهي تعاني آلام سكرات الموت؛ إذ ليس أمامها إلا هذا الصبي الذي هو في السادسة من عمره.. تموت الآن في الصحراء وتدعه، كنت أتخيَّل هذه الأفكار التي يمكن أن تمر بحال أمٍّ في مثل هذا المشهد، تجمع آلام الاحتضار

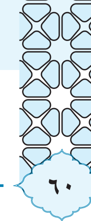
---

(١) ينظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٧٩).

(٢) ينظر: «طبيب عبر الزمن» (٥٢).

(٣) الأبواء: بلدة في الطريق بين المدينة ومكة، تابعة لمحافظة «رابغ»، تبعد عن مكة (٢٠١ كم)، وعن المدينة (١٦١ كم). ينظر: «محافظة رابغ»، للأستاذ الشيخ: أحمد النعماني.

(٤) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٠٤).



والفجيعة بالولد؛ ولكن ربك جل وعز كان يدبر الأمر لنبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.

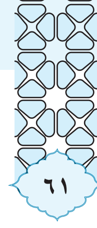
وكان ﷺ يعي هذه الحال، وتسجل عيناه المشهد بدقة، ولما دُفنت أمه حفظ قبرها، وعرف مكانها تماماً، ورجعت به أم أيمن إلى مكة.

ثالثاً: الرسول ﷺ يزور أمه:

ومرت السنوات.. وبُعث النبي ﷺ، ثم هاجر إلى المدينة، وبعد خمسين سنة من وفاة آمنة بنت وهب، إذا بالنبي ﷺ يمر بالأبواء ومعه ألف وأربعمئة من أصحابه متوجهاً إلى مكة في عُمْرة الحديبية، فلما وصل إلى الأبواء جاشت الذكريات، وتداعت المشاهد.. هنا مرَّ قبل نصف قرن من الزمان وهو طفل صغير مع أمه التي كان يتلقى حنانها، ويعيش دفء قربها، ولذة أمومتها، إلى أن وصل إلى هذا المكان.. هنا فارقت الدنيا وفارقته.. هنا ماتت، وهنا دُفنت، فجلس النبي ﷺ من الصباح إلى قريب من العصر، والجيش منتظر ما الذي جعل النبي ﷺ ينتظر ولا يسير إلى هذا الوقت؟!

فلما كان قريب العصر قام، فجعل يمشي ويتخطى القبور كأنما يقصد قبراً بعينه، فلما وصل إلى القبر الذي قصده جلس عنده[1]، وأصحابه ينظرون إليه من بُعد، فرأوه جالساً عند القبر وكأنه يتكلم مع إنسان أمامه، فلما طال جلوسه جاؤوا إليه، فوجدوه ﷺ عند قبر أمه يبكي، فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي..**»، وكأنما جلس من الصباح ينتظر الإذن من الله؛ «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُوروا**

(١) «المستدرك» للحاكم (٣٢٩٢).



الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[1]، ثم سوى قبرها الذي أوشك على الاندراس لبُعْد العهد.

وكان مشهداً وجدانيّاً مؤثراً، اهتاجت فيه العواطف، وحضرت الذكريات، فكان ﷺ متأثراً ومؤثراً في مشهده ذلك.

وكلما تذكرتُ هذا المشهد قلتُ: يا لله! هذه لوعة النبي ﷺ على أمه، مع أنه لم يدرك من حياتها إلا مثل الطَّيف؛ إذ العادة أن من ماتت أمه وهو في سن الطفولة المبكر، لن يتذكر شيئاً من الأحداث معها، ولن يقول: قالت وفعلت، وذهبت وأتت، بل يتذكرها مثل الخيال، ومع ذلك كان هذا حنينه إليها، والتياعه[2] لها، فكيف لو أدركها؟ كيف لو عاشت نبوته ودولته؟ كيف لو عايشته في بيوته؟ كيف سيكون بِرّ هذا النبي بها، ومعاملته لها؟ أيّ أسوة كانت ستتلقاها البشرية من حاله ﷺ مع أمه؟! ولكن لله الحكمة البالغة، يخلق ما يشاء ويختار!

رابعاً: أُمُّه بعد أُمِّه:

لئن فاتنا أن ندرك حياة النبي ﷺ مع أمه التي ولدته، فقد أدركنا حياته مع أمه التي ربَّته، وهي أم أيمن بركة الحبشية رضي الله عنها، التي استوعبت حياتُها حياةَ النبي ﷺ، فولد في حياتها وتوفي في حياتها، فهي حاضنته التي تلقته في طلائع حياته، وصارت أمَّه بعد أمِّه، فلما بلغ أشده واستوى، وآتاه الله النبوة والكتاب، بقي يعاملها معاملة الأم، في حين كانت الثقافة العربية تعامل الأَمَة كشيء من الأشياء، ومتاع من المتاع، أما المصطفى ﷺ

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

(٢) الالتياع: الاحتراق من الهمّ. ينظر: «تاج العروس» (٢٢/ ١٧٧).

فعاملها معاملة الابن البارّ، فروي عنه أنه كان يناديها: «**يا أُمَّهْ**»! وكان يقول: «**هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي**»[(١)].

وكان يقصدها في بيتها، فيزورها كما يزور الابن أمه، ويذهب إلى زيارتها ومعه أبو بكر وعمر مبالغة في إكرامها.

وكان يُفسِحُ لها مساحة واسعة تمارس فيها سلطة الأمومة، ولذا كانت تجرؤ عليه ما لا يجرؤ عليه غيرها، قال أنس: كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ النَّخَلَاتِ، حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَسْأَلَهُ الَّذِي كَانُوا أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ فِي عُنُقِي، تَقُولُ: كَلَّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُعْطِيكَهُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا، أَوْ كَمَا قَالَتْ: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَكِ كَذَا**»! وَتَقُولُ: كَلَّا وَاللهِ، حَتَّى أَعْطَاهَا ـ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ ـ: «**عَشَرَةَ أَمْثَالِهِ**»[(٢)].

وقال أنس: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَنَاوَلَتْهُ إِنَاءً فِيهِ شَرَابٌ. قَالَ: فَلَا أَدْرِي أَصَادَفَتْهُ صَائِماً أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عَلَيْهِ وَتَذَمَّرُ عَلَيْهِ[(٣)].

أي تلومه وتوبخه كما تفعل الأم مع ابنها إذا لم يأكل طعامه، وما كانت تجرؤ على النبي ﷺ هذه الجراءة إلا لأنه أفسح لها ذلك، وأشعرها بتقبله منها، وهي براعة في التعامل مع الأمومة؛ لتشعر الأم بمكانتها وموقعها الذي لا يشاركها فيه غيرها.

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٨/ ٥١).

(٢) «صحيح البخاري» (٤١٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٥٣).

ولمعرفة الصحابة بمكانة أم أيمن في نفس النبي ﷺ، رعوا لها هذه المنزلة بالإكرام، فلما توفي النبي ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما دخلا عليها هيَّجا ما سكن من فجيعتها، وتذكرت يوم كانا يأتيانها مع رسول الله ﷺ، وها هما يدخلان عليها وليسا معه، فالتاعت وتذكرت وتهيجت تبكي، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا[1].

إنّ ما أدركناه من خبره ﷺ مع أمه، وخبره مع حاضنته أم أيمن بعدها، فيه مشاهد الرعاية لمكانة الأم، ومساحة حبها الواسعة في النفس، وفيه تحفيزٌ على التلذذ ببرها، والتفنن في إسعادها، وإشعارها بمكانها ومكانتها.

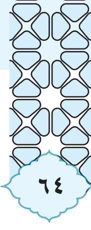
فهنيئاً لمن لا زالت أمه تعيش في حياته، لتذيقه نعيم الطفولة مهما كبرت سنُّه، وهنيئاً لكل ابن لا يزال يتلذذ بإسعاد أمه وبرها!

خامساً: تتميم:

أ ـ نهيه ﷺ عن الاستغفار لأمه لا يعني أنها من المعذّبين، فهي ومن في زمنها من أهل الفترة المشمولين بموعود الله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقد بيّن الله أنهم لم ينذروا، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[2].

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٥٤).

(٢) ينظر في ذلك كتاب: «مجالس مع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي»، لأحمد الشنقيطي (ص٤٠)، ففيه بسط الأدلة على ذلك، والإجابة عما يَرِدُ عليها من إشكالات.



ب ـ لم يثبت أنه ﷺ لقي أمه من الرضاعة حليمة بنت عبد الله السعدية بعد النبوة، وقد وردتْ أخبار أنه لقيها بعد غزوة حُنين[١]، ولكنها أخبار مُعْضَلة سنداً، ومستغربة متناً، فإن لقاءه بها لو حصل لكان حدثاً مذكوراً مشهوراً، والله أعلم.

خلاصات:

١ – السيدة آمنة هي اختيار الله من نساء البشرية كلها، لتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار تخلّق النبي ﷺ قبل أن يولد.

٢ – كانت السيدة آمنة شديدة الحب لزوجها عبد الله، ولذا لم تتزوج بعده.

٣ – سافرت آمنة بالنبي ﷺ إلى المدينة وعمره ست سنين، لتزور قبر زوجها.

٤ – توفيت في طريق عودتها من المدينة، فحفظ ﷺ المشهد وعرف القبر.

٥ – عاشت أم أيمن مع النبي ﷺ لتكون حاضنته وأمه بعد أمه.

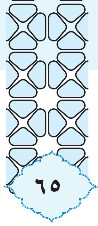
٦ – كان النبي ﷺ يعامل أم أيمن معاملة الأم؛ ولذا كانت تجرؤ عليه بما لا يجرؤ عليه غيرها.

٧ – لم يدرك وعي النبي ﷺ من أمه إلا ذكرى مثل الطيف، فكيف سيكون بره بها لو عاشت معه، وأدركت نبوته ودولته؟

٨ – عاد النبي ﷺ بعد خمسين سنة إلى قبر أمه يزورها، فبكى وأبكى من حوله.

---

(١) «سنن أبي داود» (٥١٤٤).



الرَّسُولُ ﷺ زَوْجاً(١)

الحياة الزوجية للنبي ﷺ حياة واسعة، والحديث فيها حديثٌ عذْبٌ مأنوس، وعندما نأخذ نظرة عامة لحال النبي ﷺ مع زوجاته، فستلفت نظرَنا معالمُ منها:

أولاً: أن زوجات النبي ﷺ في غاية التنوع، فهن متنوعات في قبائلهن، فمنهن القرشيات، من بطون شتى من قريش؛ فمنهن التيمية، والعدوية، والمخزومية، والأسدية، والأموية، وغير القرشيات، كجويرية بنت الحارث المصطلقية الخزاعية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية.

وهذا التنوع في القبائل يتبعه تنوع آخر في الأعمار: فنجد منهن المرأة الكبيرة الناضجة، مثل خديجة وسودة وأم سلمة، ومنهن الجارية حديثة السن كعائشة وجويرية وصفية، ومنهن ما بين ذلك.

وهناك تنوع في طبائعهن وأمزجتهن: ففيهن الحادة في طبعها، مثل أمِّنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، فقد كان في طبعها حِدّة، ومنهن المرحة المضحكة، مثل سودة

(١) ينظر: «سيرة النبي ﷺ في بيته»، لشيخنا صالح بن أحمد الشامي، ومنه استفدت في هذا المبحث.

بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومنهن الجارية حديثة السن تحب اللهو، كعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهناك تنوع في آبائهن: فمنهن مَن آباؤهن أقرب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إليه، كعائشة وحفصة أبواهما أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهن مَن آباؤهن أشد الأعداء عداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مثل أم حبيبة، كان أبوها أبو سفيان من أعداء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومحاربيه قبل أن يسلم، وصفية بنت حيي، أبوها حيي بن أخطب أشد الناس عداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من اليهود.

ولكن الشيء العجيب أن كل هذا التنوع احتواه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فحفظ لكل واحدة كيانها الشخصي بتميزها وطباعها ونسبها؛ لكنهن كلهن ائتلفن في بيوتات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واجتمعن على حبه، والتعلق به، والارتباط بالحياة معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثانياً: أنهن كن يعشن مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حياة زوجية مثالية متألقة، وهي في الوقت ذاته حياة واقعية طبيعية، قد تعبر فيها بعض المشكلات التي تعطي للحياة حيوية وتجدداً.

أما إذا قيل لك: إن هناك حياة زوجية بدون مشكلات إطلاقاً، فمعنى هذا أن واحداً من الزوجين ألغى شخصية الآخر!

أما الحياة المثالية الطبيعية، فهي التي توجد فيها خلافات ومشكلات عابرة، تجدد للحياة حيويتها، دون أن توقع الحياة الزوجية في أزمة، وهذه طبيعة حياة زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، تعبر فيها المشكلات، فتُحدث إثارة وثراء؛ ولكنها لا تحدث أزمة وانغلاقاً، فتَحدُثُ فيها الإثارات المتوقعة من الغيرة بينهن، وربما هجرت إحداهن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يومها، وربما غضب من إحداهن فهجرها، أو غضب منهن جميعاً فهجرهن؛ ولكن هذه مشكلات

تمر ولا تستقر؛ لتتجدد الحياة بعدها، فتعود أكثر توهجاً وتألقاً!

قال عمر رضي الله عنه: بَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا! قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ وَلِمَا هَا هُنَا؟ وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَباً لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، فَوَاللهِ إِنَّ أَزْواجَ النَبِي ﷺ لَيراجِعنَهُ، وإنَّ إِحْداهُنَّ لَتهجرهُ اليومَ إلى اللَّيْلِ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ! فَفَزِعَ عُمَر وأخذ رِدَاءَهُ، وانْطَلَقَ إلى نِسَاءِ النَبِي ﷺ، وجعل يطوف عليهن، فمرّ على ابنته حفصة، وعلى عائشة، وجعل يعظهن ويُغلظ عليهن: كيف تهجر إحداكن النبي ﷺ؟ أما تخفن أن يغضب الله لغضب رسوله؟ حتى مرَّ بأمّ سلمة، فأخذت عمر أخذاً شديداً حتى قال: تمنيتُ أني ما كنت تكلمتُ معها. وكان مما قالت له: يا عمر، ألم يكن في رسول الله ﷺ ما يعظ زوجاته حتى تأتي أنت فتعظهن! يا عمر، لو أن رسول الله ﷺ نهانا لانتهينا، فنحن أطوع لرسول الله ﷺ منك؛ ولكن رسول الله ﷺ أذن لنا في ذلك[١].

أي أننا نتحرك في فسحة النبي ﷺ، فإنه ﷺ أعطاهن فسحة في انفعالاتهن، حتى إنهن يغاضبنه ويهجرنه؛ لأنه أراد أن يعشن معه الحياة الزوجية المنطلقة المتعافية، التي تتحرك فيها المشاعر، وتظهر الانفعالات، ويحصل فيها التفاعل الحقيقي بين الزوجين، ولو كانت هذه المشاعر مغاضبة النبي ﷺ، ولو كانت هذه الانفعالات هجر النبي ﷺ.

ومن ذلك: تفهُّمه ﷺ لما يقع بينهن من الغيرة، فما كان ذلك يثيره أو

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

يوتره؛ ولكن كان يضعه في سياقه المعتاد، وضمن دوافعه الفطرية.

فقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ عائشة، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَت يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ، غَارَتْ أُمُّكُمْ، كُلُوا**». فأكَلُوا، ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حَتَّى فَرغُوا، وأُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ عائشة، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِها[1]، وقال: «**إِنَاءٌ بِإناءٍ، وَطَعامٌ بِطَعامٍ**»[2]، قالت عائشة: فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

فانظر هذا الاستيعاب لانفعال الزوجة وغيرتها، حيث اعتذر عنها أمامَ مَن عنده، وهو يقول: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»! فلم يلحظوا عليه انفعالاً، ولم تلحظ عائشة في وجهه تغيراً.

ومن ذلك: أن أبا بكر اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِياً، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَباً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: «**كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟**». قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّاماً، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا**»[3].

ثالثاً: أن النبي ﷺ كان يعيش معهن كزوج أولاً، ولم يكن يعيش مع

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٢٥).
(٢) «جامع الترمذي» (١٣٥٩).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٩٩).

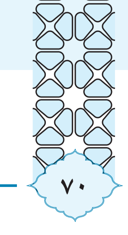
زوجاته كإمام أو قائد أو زعيم متسلط، بل كان يدخل إليهن كزوج، ولذلك عندما سئلت عائشة رضي الله عنها كيف كان حال النبي إذا خلا في بيته؟ قالت: كان ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلاً من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكاً بسَّاماً، وما كان إلا بَشَراً من البشر، كان يكون في مهنة أهله ـ تعني خدمة أهله ـ يخصِف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، ولا رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادماً(١).

إنها باقة معطَّرة من الصفات النبوية، أحسنت أُمَّنا عائشة رضي الله عنها رصفها في هذه الجمل الوجيزة، وبهذا البيان البليغ.

وبقي أن نفتح أبصار البصائر على معانٍ عظام:

ما كان إلا بشراً من البشر، كانت أُمَّنا عائشة رضي الله عنها تُقرِّر بشرية النبي ﷺ في التعامل الأُسَري، بحيث إنه ﷺ يدخل بيته ليس على أنه القائد أو الزعيم أو الإمام؛ ولكن على أنه الزوج، ليعيش حياة السكن الزوجي مع أهله، فتجتمع معاني العظمة المحمدية في عظمة التعامل الزوجي، وأنه ﷺ لم يكن يعيش في بيته سَمْتَه الذي يلقى به الناس؛ ولكن يعيش بساطة الحياة الأسرية وعفويتها، فلا ترى فيه زوجته إلا الزوج الوادَّ الرحيم، وهو ﷺ سيّد ولد آدم وإمام البشرية، والعظيم الذي لا تمتلئ الأعين من النظر إليه مهابة وإجلالاً، ولكنه مع ذلك يعيش في بيته ومع أهله زوجاً أولاً.

(١) ينظر: «مسند إسحاق بن راهويه» (١٥٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٣٠٩٣)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٦٠٣٩)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٦)، و«مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٣٩٧)، و«الكنى» للدولابي (٣٦٠)، و«تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/ ٦٥٩-٦٦٠)، و«غرائب شعبة» لأبي الحسين بن المظفر (٨١)، و«فتح الباري» لابن رجب (٦/ ١٠٨-١٠٩)، و«فتح الباري» (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).



رابعاً: الوعظ والتأديب، فإنه ﷺ كان يتعاهدهن بالوعظ، والحضّ على الخير بما لا يشق عليهن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل، فإذا أراد أن يوتر أيقظني فأصلي معه(١).

وفي هذا مشهد من مشاهد الرفق في الدعوة، فإن عائشة حديثة السنّ، وما كانت تطيق صلاة النبي ﷺ الطويلة المترسلة، والتي تفطرت قدماه من طولها؛ ولذا فإنه يوقظها إذا قارب نهاية قيامه عند صلاة الوتر، رفقاً بها، وتيسيراً عليها.

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجَرِ** ـ يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ حَتَّى يُصَلِّينَ ـ **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الآخِرَةِ**»(٢).

وهذه الموعظة الليلية يوجهها النبي ﷺ لزوجاته في حُجَرِهن، ليصلين نصيبهن من الليل، وفي قوله: «**مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ**»، تنبيه إلى أن صلاة الليل تهيئة لتلَقِّي فتوح الله من خزائنه، وسببٌ لدفع ما أنزل من الفتن، وحفظ الله عبادَه منها.

وكان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، أيقظ أهله واستنفرهم للقيام، قالت عائشة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ(٣).

ومن ذلك: تأديبهن إذا صدر منهن ما يُحْوِجُ إلى التأديبِ والتوجيه، قالت

---

(١) «صحيح البخاري» (٥١٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).

عائشة لرسول الله ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»! قَالَتْ: وَحَكَيْتُ[١] لَهُ إِنْسَاناً، فَقَالَ: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَاناً وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»[٢].

وفي ذلك تربية نبوية في ترك وصف أحد على وجه العيب له، أو حكاية حاله على وجه السخرية منه، وانظر إلى قوله: «**لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**». أي أن هذه الكلمة التي تظنينها يسيرة تفسد ماء البحر لو مزجت به؛ لعظم إثمها، وفي ذلك غاية التحذير من التساهل بهذا الأمر.

ودخل مرة على صفية وهي تبكي فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكِ؟**». فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟**». ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ**»[٣]!

وهنا جمع النبي ﷺ بين مواساة صفية بمدِّ نظرها إلى نسبها الأعلى، فهي من نسل نبي الله هارون، فهو أبوها، وعمّها نبي الله موسى، وزوجها رسول الله ﷺ، فمن يفخر عليها إذن؟! ثم وجه الموعظة العاتبة إلى حفصة منبهاً على خطأ التصرف: «**اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ**»!

وفي حجة الوداع انقطع جمل صفية وأعيا في الطريق، حتى فاتها الركب، فرجع إليها رسول الله ﷺ فإذا هي تبكي، فجعل يمسح دمعها بيده ويسكنها، ثم قال: «**يا زَيْنَبُ، أَفْقِرِي أُخْتَكِ صَفِيَّةَ جَمَلاً**». وَكَانَتْ مِنْ أَكْثَرِهِنَّ ظَهْراً، فَقَالَتْ: أَنَا أُفْقِرُ يَهُودِيَّتَكَ! فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ

(١) أي: فعلت مثل فعله تحقيراً له، يقال: حكاه وحاكاه. ينظر: «عون المعبود» (٤/ ٤٢٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٧٥)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٤).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٨٩٤).

ذَلِكَ مِنْهَا، فَهَجَرَهَا فَلَمْ يُكَلِّمْهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ وَأَيَّامَ مِنىً فِي سَفَرِهِ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَالمُحَرَّمَ وَصَفَرَ، فَلَمْ يَأْتِهَا، وَلَمْ يَقْسِمْ لَهَا، وَيَئِسَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ شَهْرُ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، دَخَلَ عَلَيْهَا، فَرَأَتْ ظِلَّهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَظِلُّ رَجُلٍ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَنْ هَذَا؟ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ(١).

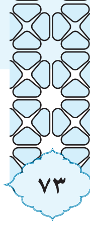
فهجرها ﷺ على هذا الكلمة نحواً من ثلاثة أشهر، حتى يئست ورفعت سريرها، وكل ذلك تأديباً لها عن هذه المقالة، وكأن النبي ﷺ أغلظ على زينب على حظوتها عنده أكثر من حفصة؛ لتكرر ذلك منهن على صفية، فشدد هنا ما لم يشدد أولاً؛ لأنهن جميعاً كالبيت الواحد.

خامساً: أن زوجات النبي ﷺ عشن معه وهو الزعيم على الجزيرة العربية كلها حياة البساطة وكفاف العيش، وعندما طالبنه أن يؤثرهن بسعة النفقة ورفاهية المعيشة، هجرهن شهراً، ثم خيَّرهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فاخترن كلهن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة(٢)، وعشن معه على حال الكفاف التي كان يعيش عليها، ثم كان عاقبة ذلك أن قَصرَ الله نبيه عليهن: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فهُنّ زوجاته في الدنيا، وهُنّ زوجاته في الآخرة، وهُنّ أمهاتنا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

سادساً: الحياة الزوجية في بيت النبوة مشبعة بالحب، يتعاطى فيها

(١) «مسند أحمد» (٢٦٨٦٦). وأَفْقِري: أي أعيريها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).



الحب مع أنفاس الحياة، والحب فيها شعيرة معلنة لا تحجب ولا تُخْفى، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**»[(١)]، هكذا جاء الجواب سريعاً صريحاً، فالحب النقي كمال يُشهر ولا يُستَر.

ويتحدث ﷺ عن زوجته خديجة رضي الله عنها فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[(٢)].

فانظر هذا التعبير البليغ، حيث اعتبر حبَّها رزقاً رزقه الله إياه، ونعمة أنعم بها عليه!

وكما كان النبي ﷺ يعلن هذا الحب ويُشهِره، فقد كان يتفنن في تعاطيه مع أزواجه بفنون راقية من التعبير عن الحب والتلذذ بتصويره.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يناولني القدح فأشرب منه، ثم يأخذه مني فيديره في يده، ثم يضع فمه حيث وضعتُ فمي فيشرب، وكنت أتعرق العَرْق[(٣)] فيأخذه مني، فيضع فمه حيث وضعت فمي[(٤)].

فأي رسائل من الحب يحملها هذا التصرف الجميل، حين تشعر المرأة بلذة تعاطي الحب بهذه اللفتات المعبرة؟!

وعندما بيّن ﷺ الصدقات، ذكر منها: «**وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِك**»[(٥)].

---

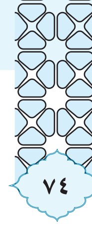
(١) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

(٣) هو العَظْم إِذَا أُخذ عَنْهُ مُعْظَم اللَّحم. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٢٠).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٧٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).



لقد كان يكفي أن يقول: نفقتك على أهلك؛ لكنه قسم الطعام لقمة لقمة، ثم جعل طريقة التعاطي له جزءاً من الشعيرة والصدقة، بأن يرفع الزوج لقمة من الطعام فيقدمها بيده إلى فم امرأته، وكأنما كان يقدم بهذا المشهد درساً في الذوق وتعاطي الحب.

سابعاً: الإشعار بالاهتمام والأهمية بين الزوجين، وكان لنبينا ﷺ في ذلك براعة ورقة وتلطُّف، فعندما سُئلت عائشة عن حال النبي ﷺ في بيته، قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ[١].

يَثِب إلى ذهني سؤال ثاقب يقول: وهل كانت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تشكو كثرة العمل ومشقته، حتى يعمل النبي ﷺ معها في بيتها، ويقوم بمعونتها وخدمتها؟

أَمَا كانت حجرتها متقاربة الجُدُر، صغيرة المساحة، بحيث لم يتجاوز طولها عشرة أذرع، وعرضها سبعة أذرع، أي: (٥ × ٣,٥) متر تقريباً.

وأَمَّا العمل فيها فقد كانت تتصرَّم الشهران بتمامها وما أُوقِد فيها نار لطعام يُصنَع[٢]، فهل ثَمَّة عملٌ يحتاج إلى جهد، فضلاً عن أن يحتاج إلى معونة، بحيث يكون النبي ﷺ في بيته مشغولاً بمهنة أهله؟!

إن الجواب عن هذا التساؤل: أن نبيَّك ﷺ ما كان يصنع ما يصنع لكثرة الشغل وجهد العمل؛ ولكن هناك معنىً أعمق، وهو المواساة والإشعار بالمشاركة التامة في الحياة الزوجية، وتحقيق إحدى معاني السكن إلى الزوجة: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، ولم يقل: لتسكنوا معها.

إن هذه الأعمال اليسيرة في المنزل تصل إلى قلب الزوجة، مشفوعة

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

بمذكَّرة تفسيرية تَضِجُّ بمعاني الحب والمودة والرحمة، وتُشعِر الزوجة بالدنو القريب إلى زوجها، والامتزاج الروحي والعاطفي معه.

إن كون الرجل في مهنة أهله بأيّ عمل، وعلى أيّ صفة، رسالةُ حياةٍ تقول: هو بيتنا جميعاً، كما هي حياتنا جميعاً. وإن معاني الالتحام الزوجي تنسجها هذه اللمسات المُعبِّرة، فيكبر في عين زوجته بقدر تواضعه، ويَعظُم في نفسها بقدر بساطته.

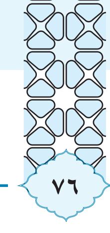
ومن مشاهد هذا التعاون في خدمة الأهل: ما حدثت به عائشة أيضاً، قالت: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلاً، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ، إِنْ كَانَ لَيَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْراً[١].

لقد كان يمكن أن تساعد عائشة امرأة أخرى، ولكن النبي ﷺ اختار أن يتولى هو ذلك؛ لأن هذه الحال ليست مجرد إنجاز عمل، بل هي لحظة قرب عاطفي، وإشعار بالأهمية والاهتمام، يتسرب أثرها إلى القلب والوجدان.

ومن ذلك: مراقبة انفعالاتها وتفهمها، قال ﷺ لعائشة: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ**»! قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ؛ وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ[٢].

(١) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٢٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٩).



إن دقة الملاحظة لطريقة التعبير ومعرفة الانفعال العابر، لا يكون إلا مع مزيد الاهتمام، وليت شعري ما هي مشاعر عائشة وشعورها وهي تسمع النبي ﷺ يحكي لها هذه المراقبة الدقيقة لتعبيراتها ومشاعرها، وأيّ مكانة أحست أنها رفعت لها في نفس حبيبها ﷺ.

ثامناً: كانت الحياة الزوجية النبوية مأنوسة باللهو الجميل، والعفوية المرحة، والتي تجدد البهجة والفرح، ومن ذلك:

١ـ ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها قالت: زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْماً، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالأُخْرَى فِي حِجْرِهَا، فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، أَوْ قَالَت: خَزِيرَةً[١]. فَقُلْتُ: كُلِي، فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِي، أَوْ لأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَأَخَذْتُ مِنَ القَصْعَةِ[٢] شَيْئاً فَلَطَّخْتُ بِهِ وَجْهَهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا لِتَسْتَقِيدُ مِنِّي، فَأَخَذَتْ مِنَ القَصْعَةِ شَيْئاً فَلَطَّخَتْ بِهِ وَجْهِي، وَرَسُولُ الله ﷺ يَضْحَكُ، فَإِذَا عُمَرُ يَقُولُ: يَا عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، يَا عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ! فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**قُومَا فَاغْسِلَا وُجُوهَكُمَا، فَلَا أَحْسِبُ عُمَرَ إِلَّا دَاخِلاً**»[٣].

إنه مشهد للأنس البهيج، والضحك الصاخب؛ يتم بعفوية وانطلاق في بيت النبي ﷺ وبين زوجاته، يشارك فيه النبي ﷺ ضاحكاً متفاعلاً.

٢- وقالت عائشة: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي:

---

(١) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يَقطَّع صِغَارًا ويُصَبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحْمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٨).

«**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ**»(١).

إن الأنس بهذه المسابقة المرحة ليس لحظة آنية، ولكنها فرحة ونشوة تتجدد في النفس كلما تجددت ذكراها، ولذا فإني أحسب أُمنا عائشة رضي الله عنها كانت تعيش نشوة الموقف وهي ترويه، كما كانت تعيش نشوته وبهجته حينما كانت تعيشه.

ويا لله ما أروع أن يخزن الزوج في ذكريات زوجته مواقف السعادة والإبهاج، فيطفر الفرح في قلبها كلما تذكرتها.

تاسعاً: الرفق في المعاشرة، والمياسرة، وعدم المعاسرة، ومن ذلك:

ما رواه جابر رضي الله عنه: أنه ﷺ بعد أن قضى حجه وتهيأ لطواف الوداع، قالت له عائشة تلك الليلة: يا رسولَ الله يرجع الناسُ بعمرة وحجة، وأرجع أنا بحجة! تشير إلى أنها لم تأتِ بعمرة مستقلة قبل حجها، كما صنع بقية أزواج النبي ﷺ، وإنما كانت قارنة بسبب حيضتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**يَسَعُكِ طَوافُكِ بالبيتِ لِحَجِّكِ وعُمْرَتِكِ**». فأبتْ وقالت: يا رسولَ الله، ينطلق الناسُ بحج وعمرة وأنطلق بحج، ويرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر واحد! قال: «**إِنَّ لَكِ مِثْلَ مَا لَهُمْ**». قالت: إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت. وكان رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويتْ شيئاً تابعها عليه، فدعا أخاها عبد الرحمن، فقال: «**اخْرُجِ بِأُخْتِكَ إِلَى**

(١) «مسند أحمد» (٢٦٢٧٧).

التَّنْعِيمِ، فَإِذَا هَبَطْتَ مِنَ الأَكَمَةِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، فَإِنَّهَا عُمْرَةٌ مُتَقَبَّلَةٌ، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُمَا، أَنْتَظِرُكُمَا هَاهُنَا»[١].

إن حال السفر وبخاصة في آخره تستهلك الطاقة النفسية، وعادة لا يحتمل المسافر المراجعة وهو على وشك المسير، ولكن النبي ﷺ كان بغاية اللياقة للمياسرة، وتفهم رغائب النفس.

وانظر إلى وصف جابر: وكان ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت شيئاً تابعها عليه. إنه وصف لهذه المياسرة والسهولة، وحسن المعاشرة، والرفق بالأهل، وملاقاة رغباتهم.

عاشراً: إعطاء الزوجة مكانتها، بالإفضاء إليها بما في النفس، وقبول مشورتها الصائبة، ومن ذلك:

١ـ حال النبي ﷺ عندما عاد من حراء فزعاً بعد اللقاء الأول مع المَلَك، فهدَّأَت خديجة من روعه وطمأنته، ثم أشارت عليه بالذهاب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فذهب معها وتحدث معه وسمع منه[٢].

٢ ـ أمْرُه الناسَ في الحديبية بالتحلل بالنحر والحلق، فتباطأ الناس لشدة تطلعهم لأداء العمرة، فغضب النبي ﷺ، ودخل على أم سلمة مغضباً، فقالت: اخرج ولا تكلِّمْ أحداً، ثم انحر واحلق، فإذا فعلتَ تبعك الناس، فخرج ﷺ ولم يكلم أحداً، وقصد إلى هديه فنحره، ودعا الحلاق فحلق له، فتواثب الصحابة ينحرون ويحلقون حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضاً من الغم؛ لأنهم شعروا أنهم أغضبوا رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وهذا الهدي النبوي كان مخالفاً لعادة قريش، كما قال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى للنساء رأياً[١]، فخالف النبي ﷺ ما جرت عليه عادة قومه، واختار استشارة المرأة، وأشركها في الرأي، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، وأنه لم يكن يستمد هديه من البيئة الاجتماعية، ولكن يتلقاها من الوحي الإلهي.

حادي عشر: وقد كان لأمهات المؤمنين وهن يحففن برسول الله ﷺ، ويطلعن من أحواله على ما لا يطلع عليه غيرهن.. دورهن في حفظ ذلك وروايته للأمة، ليتم احتواء حياته في جلوته وخلوته، وعامة أمره وخاصته، فيتحقق لأمته العلم بكل أحواله، والتأسّي به في كل أموره.

فكانت أمهات المؤمنين العين الراصدة للأمة على خاصة أمره وما يخفى على غيرهن من شأنه، ومن ذلك:

سؤال عدد من التابعين لأمنا عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته إذا كان عندك؟ فتلقَّت عائشة السؤال بحفاوة، وفتحت نافذة على بيت النبوة، لنرى منها النبي ﷺ في هذه الحالة الخاصة في بيته، ومع أهله، فقالت: كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ومع أهله ألين الناس، وأكرم الناس..[٢].

ومن ذلك: روايتهن خاصة شأن النبي ﷺ المتعلق بأحكام المعاشرة والغُسْل ونحو ذلك، ومنها صفة غسل الجنابة، وقد رويت عن جمع من أمهات المؤمنين، ومنه:

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٧٦، ٦٠٣٩)، و«مسند إسحاق بن راهويه» (١٥٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٣٠٩٣)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٦)، و«فتح الباري» (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).

١ ـ عن مَيْمُونَة رَضِيَ اللهُ عَنها قالت: وَضَعْتُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَاءً يَغْتَسِلُ بِهِ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَلَهُمَا مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثاً، ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ مَذَاكِيرَهُ، ثُمَّ دَلَكَ يَدَهُ بِالأَرْضِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ ثَلَاثاً، ثُمَّ أَفْرَغَ عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى مِنْ مَقَامِهِ فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ[١].

ومنه ما يتعلق بالمباشرة للصائم:

٢ ـ فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها قالت: كانَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ وهُو صائمٌ، ويباشرُ وهو صائمٌ، ولكنَّهُ أَمْلَكَكم لإرْبه[٢].

٣ ـ وعنها قالت: كَانَتْ إحْدَانَا إذَا كَانَتْ حَائِضاً، فأَرَادَ رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَاشِرَهَا، أَمَرَهَا أَنْ تَتَّزِرَ في فَوْرِ حَيْضَتِهَا، ثُمَّ يُبَاشِرُهَا..[٣].

وبذلك نقلت أمهات المؤمنين وجهاً من الجانب البشري لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو من مواضع الأسوة والاقتداء.

ومن ثمَّ صارت أمهات المؤمنين مرجعاً للصحابة والتابعين في معرفة أحكام كثيرة مما يجري في بيوتهن، وكان الرجوع إليهن يجلي هذه الأحكام، ويزيل ما يُختَلفُ فيه منها، ومن ذلك:

١ـ عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: اختلف رهط من المهاجرين والأنصار، فقال الأنصاريون: لا يجب الغسل إلا من الدفق أو من الماء. وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل. قال: قال أبو موسى: فأنا أشفيكم من

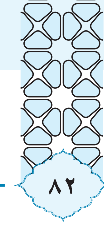
(١) «صحيح البخاري» (٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٣١٧).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٢٧)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٩٣).

ذلك. فقمتُ فاستأذنت على عائشة فأُذِن لي، فقلت لها: يا أماه! ـ أو يا أم المؤمنين! ـ إني أريد أن أسألك عن شيء، وإني أستحييك! فقالت: لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك. قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، وَمَسَّ الخِتَانُ الخِتَانَ، فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ**»[(١)].

٢ ـ عن سعد بن هشام بن عامر: أنه أتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة، فأتِها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنّا عليها، فأذنتْ لنا، فدخلنا عليها، فقالت: أحكيم؟ فعرفَتْه، فقال: نعم. فقالت: من معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه وقالت خيراً ـ وكان أصيب يوم أُحُد ـ فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت. ثم بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. فقالت: ألست تقرأ: يا أيها المزمل؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة. قال: قلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن وتر

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٤٩).



رسول الله ﷺ. فقالت: كنا نُعِدّ له سواكه وطهوره، فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات، لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني! فلما سن نبي الله ﷺ وأخذه اللحم، أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه الأول، فتلك تسع يا بني! وكان نبي الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان(١).

٣- عن عبيد بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمر يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن. فقالت: يا عجبا لابن عمر هذا! يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات(٢).

فكانت عائشة وأم سلمة وحفصة وميمونة خزائن علم فيما اطلعن عليه من أحوال النبي ﷺ، ووعينه، ورووينه للأمة من بعده.

ثاني عشر: الوفاء لهن، والعيش مع ذكراهن بجميل التذكر وحسن العهد.

فكان ﷺ يستصحب ذكراهن الحسنة، ويعيش الوفاء للعهد معهن،

---

(١) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٣٣١).

بحسن التواصل مع صلاتهن، وذكر الفضائل وجميل الذكرى، فعن عائشة قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال: «مَنْ أَنْتِ؟». قَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ المُزَنِيَّةُ، فقَالَ: «**بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ، كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟**». قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ العَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ؟ فَقَالَ: «**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ**»[(١)].

يا لله! كيف يسمي الزمن كله زمن خديجة؟ ثم يحتفي بمن كانت تأتيهم ذاك الزمن إكراماً لذاك العهد، وتلك العشرة، حتى لاحظت عائشة إقباله عليها باهتمام ولهفة غير معتادة، جعلتها تتساءل عن السر في ذلك، فكان الجواب النبوي: «**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ**». رباه كيف لو أتت خديجة إذن؟!

وعنها قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُول الله ﷺ فعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاحَ لِذَلِكَ، فقَالَ: «**اللهُمَّ هَالَةُ**». قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْراً مِنْهَا، قال: «**مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيراً مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفرَ النَّاس، وصدَّقَتْني إِذ كَذَّبَني النَاسُ، وَوَاسَتني بمَالهَا إذ حَرَمَني النَاسُ، وَرَزَقَني اللهُ وَلَدَهَا إذ حَرَمَني أَوْلَادَ النسَاء**»[(٢)].

وفي رواية قَالَتْ: فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ تَمَعُّراً مَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ الوَحْيِ، أَوْ عِنْدَ المَخِيلَةِ حَتَّى يَنْظُرَ: أَرَحْمَةٌ أَمْ عَذَابٌ؟[(٣)].

(١) «المستدرك» (٤٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٧).

(٣) «مسند أحمد» (٢٥١٧١)، وأصله في «صحيح مسلم» (٢٤٣٧).

إنك لتعجب إذا كانت هذه لهفته لأخت خديجة، فكيف ستكون حاله لو كانت القادمة خديجة ذاتها؟ لقد توفيت خديجة ولكنها بقيت حيَّة في قلبه، وبقي وفياً لذكراها، وحسن التعاهد لمعارفها وقرابتها، ولم يطفئ هذه الذكرى واللهفة وجود تسع نسوة بعدها، يحففن بحياته ويحتفين بها.

وانظر غضبه لها ودفاعه عنها، حتى وصفت عائشة ذلك الانفعال بأنه انفعال نادر لا تراه عليه إلا حين نزول الوحي، أو رؤيته السحاب الذي يخشى أن يكون عقوبة، فانفعل غضباً حتى بلغ هذه الحالة؛ وفاءً لخديجة ودفاعاً عنها.

وكان يذبح الشاة فيرسل بها أعضاء إلى صواحب خديجة، يتعاهدهن بالبر[(١)]، كأنما خديجة حاضرة وهي التي ترسل لهن.

إنه الوفاء، وحسن العهد، وإن حسن العهد من الإيمان.

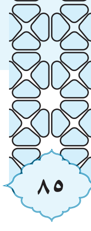
خلاصات:

١ ـ كانت زوجات النبي ﷺ الإحدى عشرة متنوعات في قبائلهن، وطباعهن، وأعمارهن، وحال آبائهن؛ ولكن ائتلفن على محبته وتعظيمه.

٢ ـ كانت حياتهن مع النبي ﷺ حياة واقعية، يحصل فيها الغضب، والعتاب، والهجر، والغيرة؛ لأن النبي ﷺ أفسح لهن مساحة واسعة يُعَبِّرن فيها عن انفعالاتهن.

٣ ـ كان النبي ﷺ يعيش معهن كزوج أولاً، وليس كقائد أو زعيم، ولذا عشن معه الحياة الزوجية السوية.

(١) «صحيح البخاري» (٣٨١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).



٤ ـ عشن كلهن مع النبي ﷺ حياة البساطة وكفاف العيش، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة على التنعم بترف الدنيا وزينتها.

٥ ـ كان ﷺ يؤدبهن ويوجههن عند الحاجة تأديباً رفيقاً وتوجيهاً حكيماً.

٦ ـ كان الحب الزوجي شعيرة معلنة في حياة النبي ﷺ الزوجية.

٧ ـ يكون التعبير عن هذا الحب بالكلمات العذبة واللفتات الجميلة.

٨ ـ من شعائر الحياة الزوجية الإشعار بالأهمية والمشاركة في الاهتمام.

٩ ـ خدمة النبي ﷺ لأهله في البيت مشاركة وجدانية، ورسالة حب واهتمام.

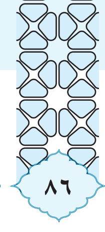
١٠ ـ في بيت النبي ﷺ مشاهد من الأنس المبهج واللهو الجميل.

١١ ـ كان ﷺ رفيقاً سهلاً، إذا هويت زوجته شيئاً تابعها عليه.

١٢ ـ إعطاء الزوجة مكانتها بالإفضاء إليها ومشاورتها.

١٣ ـ كان حسن العشرة متبوعاً بالوفاء وحسن العهد، ورعاية الذكرى، واستدامة المعروف.





حديثه مع أهله

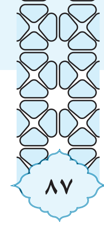
أولاً: حديث الرجل مع زوجته مما يعمق العلاقة ويعمر الحياة بالود، ويجعل لكلٍّ من الزوجين حضوراً قويّاً في حياة الآخر، وهذا ما نراه ماثلاً في حياة النبي ﷺ، في لفتات جميلة من حديثه مع أهله..

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يصف الليلة التي بات فيها مع النبي ﷺ عند زوجته ميمونة ـ وهي خالة ابن عباس ـ يقول: نام النبي ﷺ مع أهله في طول الوسادة، ونمتُ في عرضها، قال ابن عباس: فتحدث النبي ﷺ مع أهله ساعة، ثم نام...[(١)].

لاحظ أنه ﷺ يُجري قبل النوم حديث التواد والمؤانسة مع زوجته، ولا يأوي إلى البيت وهو يحمل معه همومه وأتعابه، وإنما يحمل إلى البيت بهجته ومؤانسة أهله، وآخر ما تذكره منه زوجته قبل أن تنام، هو حديث المُوادة قبل النوم!

وشيء أعجب من ذلك! تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا أذّن الفجر قام فصلى ركعتين خفيفتين، فإن كنتُ مستيقظة تحدث معي، وإن

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦).



كنت نائمة اضطجع حتى يأتي بلال فيؤْذِنه للصلاة[١].

إن معنى ذلك: أن عائشة تستفتح يومها قبل صلاة الفجر بالحديث مع النبي ﷺ، وأنه كان يراعي حالها؛ فإن كانت مستيقظة تحدث معها، وإن كانت نائمة لم يوقظها؛ لأنها إلى النوم أحوج.

فانظر إلى المرأة في حياة النبي ﷺ، تنام مع حديث النبي ﷺ، وتستيقظ مع حديثه!

ثانياً: كان النبي ﷺ ينظر إلى الحديث مع الزوجة كحاجة نفسية، تحتاج إليها المرأة حتى تأنس حياتها بزوجها، ولذلك كانت تأتيه أزواجه في رمضان إلى معتَكَفه، رغم أن المعتكِف منهي عن أيّ متعة جسدية مع زوجته، فتأتيه صفية إلى المسجد في هزيع الليل..؛ لأن هناك متعة وجدانية لا بدّ منها، وهي وجبة الحديث مع الزوج..

تقول صفية رضي الله عنها: أتيت إلى رسول الله ﷺ وهو معتكف، فتحدثت معه ساعة، فلما أردتُ أن أنصرف قام معي ليَقْلِبني إلى بيتي[٢]. وكان بيتها خارج المسجد، وما خرج النبي ﷺ معها ليحرسها، فإن المدينة كانت آمنة مطمئنة؛ لكن خرج معها ليؤنسها في الطريق.

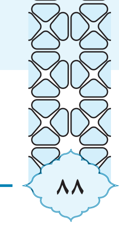
ثالثاً: ومن الحديث الذي يجري بينه ﷺ وبين زوجاته، حديث التعليم، وإجابته عن تساؤلاتهن وما يستشكلنه، فيوضح المراد ويزيل الإشكال.

وهذا يبين المساحة الواسعة التي أفسحها ﷺ للحوار العلمي، تفكراً، واستنتاجاً.

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (١٢٧٥).



ولذا أوردن عليه أسئلتهن واستشكالاتهن، فأحسنَ تلقيها واحتفى بها إجابةً وتبييناً، قال ابنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: كانت عَائِشَة زَوْج النَّبِيِّ ﷺ لَا تَسْمَعُ شَيْئاً لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ الله تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَتْ: فَقَالَ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ**»[(١)].

وكان له ﷺ حوارات مع زوجاته أمهات المؤمنين تبين يقظتهن في تلقي العلم، وتساؤلهن عما يُشكِل، وتجاوبه معهن بالإيضاح والبيان، ومن ذلك:

١ ـ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا[(٢)]، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَجُوزَيْنِ وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا، فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[(٣)].

٢ ـ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَعُوذُ عَائِذٌ بِالبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهاً؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ**»[(٤)].

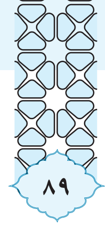
---

(١) «صحيح البخاري» (١٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٦).

(٢) وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا: أي لم تَطِب نفسي أن أصدقهما. ينظر: «شرح السيوطي على مسلم» (٢/ ٢٤٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨٨٢).



٣ ـ وعَنْ حَفْصَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، وَالحُدَيْبِيَةَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾**»[(١)].

٤ ـ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاء رسول الله ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»[(٢)].

رابعاً: وكما كان النبي ﷺ متحدثاً جيداً مع زوجاته، كان أيضاً مستمعاً جيداً معهن، ومن اللطائف المعجبة في هذا: حديث عائشة وهي تقص على النبي حديث أم زرع، وهو حديث طويل، فيه حكاية إحدى عشرة امرأة اجتمعن وتعاهدن على أن تصف كل واحدة زوجها، فوصفت كل واحدة زوجها، فمنهن الشاكرة، ومنهن الشاكية؛ حتى قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع، أناسَ من حُلِيِّ أُذُنِي، وملأ من شحم عَضُدَي، وبَجَحني[(٣)] فبَجَحت إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنَيمةٍ بِشِق[(٤)]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط، ودائس ومنق[(٥)]، فعنده أقول فلا أُقَبّح،

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩٦).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).

(٣) بَجَّحَنِي فَبَجِحْتُ: أَيْ فرَّحَني ففَرِحْت. ينظر: «النهاية» (١/ ٩٦).

(٤) غُنَيمة بِشِقٍّ: يُقَالُ هُمْ بِشِقٍّ مِنَ العَيْشِ إِذَا كَانُوا فِي جَهْد، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، وأصلُه مِنَ الشِّقّ: نصف الشَّيْءِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٩١).

(٥) الدَّائِسُ: هُوَ الَّذِي يَدُوسُ الطَّعامَ ويدُقّه بالفدّانِ ليُخْرِجَ الحبَّ مِنَ السُّنبل، ومُنَقٍّ هُوَ الَّذِي يُنَقِّي الطَّعام: أَيْ يُخْرجه مِنْ قِشْره وتِبْنه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤٠)، (٥/ ١١١).

وأرقد فأتصبح[١]، وأشرب فأتقمح[٢]، ثم قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض[٣]، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحتُ بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً[٤]، وأخذ خطياً[٥]، وأراح علي نَعماً ثَرياً، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[٦]، وقال: كلي أمَّ زرع وميري أهلك[٧]، قالت: فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع!

فلما فرغتْ عائشة قال لها النبي ﷺ: «**أَنَا لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ، غَيْرَ أَنِّي لَا أُطَلِّقُ**»[٨].

ولاحظ هذه الإضافة الجميلة؛ حيث أعطى عائشة هذا الأمان من مصير أم زرع مع زوجها، فقد كان أبو زرع إنساناً كريماً ورجلاً رائعاً، إلا أنه طلق! والنبي أفضل منه، ولن يُطلِّق!

وانظر إلى جواب عائشة رضي الله عنها قالت: بل أنتَ ـ بأبي وأمي ـ خير من أبي زرع!

(١) فأَتَصَبَّحُ: أرادَت أنَّها مكْفيَّة، فَهِيَ تَنَامُ الصُّبْحَة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٧).

(٢) فأَتَقَمَّح: أرادت أَنَّهَا تَشْرب حَتَّى تَرْوَى وتَرْفَع رَأْسَهَا، ينظر: «النهاية» (٤/ ١٠٦).

(٣) الأَوْطَابُ: جَمْعُ وَطْبٍ؛ وَهُوَ وِعَاءُ اللَّبَنِ، وتمخض: أي تحرّك والمخيض من اللّبن هُوَ الَّذِي حرك وعاؤه ليخرج زبده. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٨٦).

(٤) ركب شَرِيّاً: أَيْ رَكِبَ فَرساً يَسْتَشْرِي فِي سَيْره، يَعْنِي يَلِجُّ ويَجدّ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٦٩).

(٥) وَأَخَذَ خَطِّيّاً: أي الرُّمح المنسوبُ إلى الخَط، وهو سِيف البحر عند عُمان والبحرين؛ لأَنَّها تُحمل إليه وتُثَقَّف به. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٨).

(٦) مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوجاً: أَيْ مِمَّا يَرُوح عَلَيْهِ مِنْ أصْناف المَالِ أعْطاني نَصيبا وصِنْفا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٧٣).

(٧) مِيرِي أَهْلَكِ: أَيْ صِلِيهِمْ وَأَوْسِعِي عَلَيْهِمْ بِالمِيرَةِ بِكَسْرِ المِيمِ وَهِيَ الطَّعَامُ. ينظر: «فتح الباري» (٩/ ٢٧٥).

(٨) «صحيح البخاري» (٥١٨٩).

وأعجب لهذه اليقظة المشاعرية عند عائشة، حين قالت: بل أنت خير من أبي زرع، وصدقت بأبي هو وأمي ﷺ، فقد نالت به شرف الدنيا والآخرة.

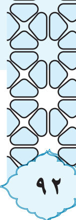
خامساً: وكان النبي ﷺ إذا تحدث مع زوجاته يختار الشيء الذي يهمهن ويعنيهن، والذي تتفاعل معه مشاعرهن، ولذلك نرى النبي ﷺ بعد أن رجع من غزوة خيبر، ودخل في بيت عائشة بعد غيابه قرابة شهر، وكانت عائشة قد وضعت لُعَبها في فُرجَة في الجدار، ووضعت عليها ستراً، وهيّأتها لتكون بيتاً للُعَبِها، فلما دخل النبي ﷺ وفتح الباب دخل معه تيار الهواء فحرك الستر، فانكشفت اللعب، فجعل النبي ﷺ ينظر إلى اللعب ويقول: «**عَائِشُ مَا هَذِهِ؟!**».

- إنه يعرف أنها لعبها؛ لكنه تساؤل لإجراء الحديث معها، وإظهار الاهتمام بما يهمها ـ قالت: هذه بناتي يا رسول الله! قال: «**مَا هَذَا الَّذِي بَيْنَهُنَّ؟**». ـ وكانت قد جعلت بينهن فرساً له أجنحة من جلد ـ قالت: يا رسول الله هذا فرس! فجاء السؤال الثالث من أجل تحريك الحديث؛ قال: «**سُبْحَانَ الله! فَرَسٌ لَهُ أَجْنِحَةٌ؟!**». فقالت: يا رسول الله، أما علمت أن نبي الله سليمان له فرس لها أجنحة[(١)]!

وهنا نتعجب..! فإن عائشة ما عرفت سليمان إلا من محمد ﷺ؛ لكنها تجارت في الحديث؛ لأن النبي ﷺ جذب اهتمامها إليه، وتحدث معها فيما يهمها.

إن الحديث النبوي مع الزوجات هو الحديث الذي يثمر الود، ويعمّق

(١) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢).



العلاقة، ويجعل للحياة بهجة ومذاقاً، كما أن من أشد ما يطفئ وهج العلاقة الزوجية خفوت التفاعل، وطول الصمت، وكثرة الوجوم.

خلاصات:

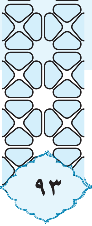
١- كان له ﷺ حديث مع أهله قبل النوم، وحديث عند الاستيقاظ، فآخر ما تغفو عليه زوجته حديثه، وأول ما تستفتح به يقظتها حديثه.

٢- كان حديثه مع أهله تلبية للحاجة النفسية، ولذا كن يجتمعن إليه، فيتحدث إليهن وهو معتكف في المسجد.

٣- كان يتحدث إليهن فيما يهمهن ويعنيهن، وتتفاعل معه مشاعرهن.

٤- وكما كان ﷺ متحدثاً معهن باهتمام، كان مستمعاً إليهن باحتفاء.





الرَّسُولُ ﷺ أبًا

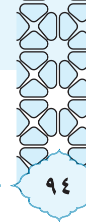
الأبوة هذه العاطفة الرائعة الجميلة التي يتذوقها الأب بنشوة وهو ينادي ولده: يا بني! أو يستمع لنداء ابنه: يا أبت!

وجاء أنبياء الله عليهم السلام يقدمون للبشرية النموذج الأكمل للأبوة، فنراها في هتاف نوح عليه السلام بابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، ونداء يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، ونداء لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾، وتتابع رسل الله آباء لذرياتهم: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾؛ حتى جاء خاتمهم نبينا ﷺ ليعيد لهذه العاطفة استواءها الفطري، وعمقها العاطفي والتربوي.

بُعث نبينا ﷺ وقد تشوهت الأبوة في البيئة العربية إلى حدِّ التوحش الذي جعل بعض العرب يقتل ولده؛ فيُقتلُ الأبناء خشية الفقر، وتُقتل البنات خشية العار.

تشوهت عاطفة الأبوة حتى كان إظهار الحب والرحمة بالأبناء مظهراً من مظاهر الضعف والخوَر يتحاشونه، فيُخفون عاطفة الحب الأبوي، ويكابرونها!

جاء الأشعث بن قيس إلى النبي ﷺ فسأله: «**هَلْ لَكَ وَلَدٌ؟**». قال:



بلغني وأنا في الطريق إليك أنه وُلِد لي وَلَدٌ، ولأن يكون لي عشاء أُطعمه أصحابي أحبُّ إليَّ منه. فقال ﷺ: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ، وَأَجْراً إِذَا قُبِضُوا**»[١].

لقد كان الأشعث حديث عهد بجاهلية، فرأى أن إظهار ابتهاجه بولده مما لا يليق بسيادته، فكان في جواب النبي ﷺ إعادة للتوازن الفطري وإعلاناً له: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ..**».

ورأى أعرابي النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: أتقبلون صبيانكم؟! إن لي عشرةً من الولد ما قَبَّلتُ واحداً منهم. فنظر إليه النبي ﷺ وقال: «**مَا أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَزَعَ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟ مَنْ لَا يَرْحَمُ، لَا يُرْحَمُ**»[٢].

وهكذا.. جاء الرسول الرؤوف الرحيم، ليعلن الحب ويظهر الرحمة، ويعلم الأمة أن المشاعر الأبوية شعائر تعبدية تستنزل بها رحمة الرحمن الرحيم، **وكان من معالم أبوته الكريمة** ﷺ:

أولاً: إعلان الفرح بالأبناء، والاستبشار والتبشير بهم، فها هو يقبل على أصحابه يبشرهم ويشركهم فرحته، فيقول: «**وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»[٣].

قارن هذا الموقف بموقف الأشعث بن قيس عندما بلغه خبر ولده، لتتضح النقلة المشاعرية التي نقلهم إليها النبيُّ ﷺ؛ ليعيد الأمة من حالة الجفاء المشاعري إلى الاستواء الفطري.

---

(١) «مسند أحمد» (٢١٨٤٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٩٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٧، ٢٣١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٣١٥).

ثانياً: كان يمارس الرحمة والحب لأبنائه شعيرة ظاهرة معلنة، كان يخطب يوماً على المنبر، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فقطع كلامه ونزل من المنبر فحملهما، ثم عاد إلى المنبر ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ **نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»[(١)].

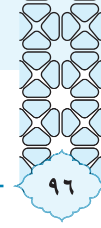
وتأمل كم يحمل قوله: «**فَلَمْ أَصْبِرْ**». من معاني الرحمة والإشفاق على عثرات الطفولة، والفرح بتدرج خَطْوها، ولذا قال أنس: لم أرَ أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[(٢)].

ثالثاً: كان ﷺ يقدم هذا الحب سحّاً غدَقاً، يغمر أبناءه حتى تتروى به نفوسهم، يصف أبو هريرة مشهداً من مشاهد الحب الأبوي الجميلة، فنقرؤه وكأنما نراه عِياناً، ونتفاعل معه وكأنا نعيشه حاضراً؛ قال أبو هريرة: خرج النبي ﷺ في نحر الظهيرة، فمشى حتى وقف بفِناء بيت فاطمة، فنادى: «**أَثَمَّ لُكَعُ، أَثَمّ لُكَعُ؟**». وهو نداء تصغير وتمليح، أي: أين الصغير، أين الصغير؟

وسمعت فاطمة نداء أبيها، وسمع الصبي نداء جدّه، فبادر بالخروج إليه، فأمسكته أمه واحتبسته حتى تهيئه لمقابلة أبيها الذي جاء لزيارته، فغسلته وألبسته قلادة من قَرَنْفُل يلبسها الصبيان، ثم أطلقته، فلما أبصره رسول الله ﷺ مدَّ له يديه، فتجاوب الصبي مع أبيه ومدَّ له يديه، واشتد في عَدْوه حتى ألقى بنفسه في حِجر النبي ﷺ، والتزم الصدر الرحيم، فالتزمه النبي

(١) «سنن أبي داود» (١١٠٩)، و«جامع الترمذي» (٣٧٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٦).



ﷺ، وجعل يشمه ويقبله، ويَفغَر فمه ويضع فمه عليه، وهو يقول: «**اللهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وأَحِبَّ مَن يُحبُّه**»[(١)].

ورأى أبو هريرة رضي الله عنه ما رأى، وسمع ما سمع، وتجاوبت عاطفته مع عاطفة النبي ﷺ، فكان إذا رأى الحسن بعد ذلك دمعت عيناه، وكأنه يعيش ذاك المشهد العاطفي المؤثر، وكان يقول: ما كان أحدٌ أحبَّ إليّ من الحسن بن عليٍّ بعد ما قال رسول الله ﷺ ما قال[(٢)].

ولنا أن نتساءل: إذا كان هذا تأثُّر أبي هريرة لما رأى ذلك المشهد، فكيف بتأثر أم الحسن فاطمة عليها السلام، والتي جرى كل ذلك على مرأى ومسمع منها، أيّ طفرةِ حبٍّ وإسعاد غمرت مشاعرها ساعتها تلك!

إن هذا الإعلان عن الحب بالقُبلة الأبوية، واللمسة الحانية، وكلمة الحب الجميلة تقرع سمع الطفل وتملأ قلبه، معلنة مكانته في قلب أبيه، وإنها لوجبة مشاعرية يتلقاها الأبناء من آبائهم، لتُحَقِّق لهم الارتواء العاطفي والاستواء النفسي.

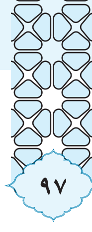
رابعاً: ولحيوية العلاقة بينه وبين أبنائه ﷺ، كان يتطامن بهمه إلى همومهم، ويتنزل إلى مستوى عقولهم، فيلاعبهم بما يهوون، ويلاطفهم بما يحبون، ويعيش سروره بسرورهم..

كان يلاعب ابنه الحسن وهو طفل، فيخرج له لسانه، فيهش الصبي إذا رأى حمرة لسان النبي ﷺ[(٣)]، ولا شك أنه ﷺ كان يتفاعل مع ضحكه بالضحك، ويعيش معه هذه الفرحة الطفولية.

(١) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٨٤٤).

(٣) «مسند أحمد» (١٦٨٤٨).



وخرج يوماً بابنه الحسن إلى الصلاة، فوضعه إلى جنبه وصلى بالناس، فسجد في أثناء صلاته سجدة أطالها، قال شداد بن الهاد: فرفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ والنبي ساجد، فلما قضى صلاته قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت سجدة أطلتها، حتى ظننا أنْ قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، فقال: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»(١).

إن ركوب الصبي ظهر أبيه رسول الله ﷺ في الصلاة، يدلنا على أن هذه حال قد ألفها وأحبها، وأن هذا الفعل كان ملاعبة اعتادها من رسول الله ﷺ، ولذا لما رأى النبي ﷺ ساجداً بادر إلى ركوب ظهره كما تعود أن يفعل! وانظر هذه السعة في قلب النبي ﷺ وخلقه، حيث ثبت ساجداً حتى يتم الصبي حاجته في الاستمتاع واللعب، وكره أن يعجله فيقطع عليه أُنسه ومتعته.

لقد جمع النبي ﷺ في هذه العبادة عبادات: سجوده لله، وإيناس الصبي وإسعاده، وتعليم الأمة حب الأطفال، والتعبد لله بإسعادهم وإدخال البهجة في حياتهم.

خامساً: كان الحب النبوي يكبر مع الأبناء، فكما كان ﷺ يغدق الحب على بناته صغاراً، كان يغدقه عليهن كباراً، فكان يزور فاطمة رضي الله عنها في بيتها وتزوره في بيته، ويتعاطى معها مشاعر الحب وشعائره، فكانت إذا زارته قام إليها ورحب بها قائلاً: «**مَرْحَباً بِابْنَتِي**»(٢)، ثم أخذ بيدها وقبَّلها، وأجلسها مكانه الذي كان جالساً فيه؛ مبالغة في الحفاوة والمحبة والإكرام،

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٤١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

وإذا زارها قامت إليه ورحبت به، وأخذت بيده وقبّلته، وأجلسته مكانها، في مشهد هو غاية في الحب والاحترام والإكرام.

كان هذا الحب الأبوي الدافق من رسول الله ﷺ لابنته فاطمة، يُتلقى بحب الابنة البارة التي تتذوق حبه، وتبادله إياه محبة واحتفاءً وبراً.

وأرسلت ابنته زينب رضي الله عنها فداءَ زوجِها أبي العاص بن الربيع، وكان قلادتها التي ألبستها إياها أمها خديجة ليلة زفافها إلى زوجها، فلما رآها النبي ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: «**إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا، فَافْعَلُوا**»[١].

هذه الرقة الشديدة لمرأى قلادة ابنته التي أرسلتها، تجعلنا نتساءل: كيف ستكون رقته وتأثره إذا رآها هي؟ وأي عاطفة حب سيغمرها به حين يتلقَّاها؟!

إن هذه المشاعر النبوية حبّاً ورحمة مع بناته وهن زوجات وأمهات، تبين لنا أن الأبناء يكبرون ويكبر حبهم معهم، وليسوا لعباً يتلهى بهم صغاراً ويهملون كباراً؛ ولذا استمر هذا الحب الأبوي النبوي مع بناته متدفقاً غامراً وهن بنيات يدرجن في بيته، وحين كبرن وصرن أمهات يسكنّ في بيوتهن.

سادساً: كان النبي الأب ﷺ يجمع مع الحب الجميل حسنَ التعليم، والتربية الكريمة القائمة على الإقناع واللطف في التعليم.

كان مرة يقسم تمراً من تمر الصدقة، ومعه ابنه الحسن، وهو صبي صغير، فلما فرغ رفع ابنه ليحمله، فإذا في فمه تمرةٌ من تمر الصدقة، فأخرجها من فمه بلعابها وألقاها مع التمر، وهو يقول له: «**كَخْ كَخْ! أَلقِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!**»[٢].

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٩١)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٩).

إذن: هذا المشهد يجمع الرفق في التعليم، مع الإقناع وتجلية السبب المانع.

وقوله: «**كَخْ كَخْ**»! هي كلمة تقال للأطفال في سن مبكرة تتضمن معنى النهي الرفيق؛ ولكنه ﷺ أتبعها ببيان السبب، فهو لم يأخذ التمرة من فمه شحاً بها عليه، ولكن لأنها لا تحل له، فهي من الصدقة التي تدفع للمساكين!

ثم لك أن تلاحظ قوله ﷺ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**». أي أنا وأنت لا نأكل منها؛ حتى يفهم هذا الطفل الصغير أن هذا حكم يشمله هو وأباه رسول الله ﷺ، وهذا تعليم للطفل، وزرع للقناعة في نفسه.

وعندما بلغه أن ابنته فاطمة جاءت إلى بيته تسأله أن يُخدمها خادماً من رقيقٍ جيء بهم إليه، ذهب إليها ليلاً في بيتها، قال علي رضي الله عنه: فدخل علينا رسول الله ﷺ وقد أخذنا مضاجعنا، فجلس بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «**أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[(١)].

ثم قال: «**والله لا أُخدِمُكما خادِماً، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الجُوعِ، ولكِنْ أَبِيعُهُم وأَشْتَرِي بِثَمَنِهِم طَعَاماً لِأَهْلِ الصُّفَّةِ**»[(٢)].

إن الرسول الأب يعلم ويبين بإقناع، أن هذا المال مال عام لحوائج المسلمين، وأن فقراء المسلمين من أهل الصفة بحاجة إليه، وهو بهذا يُعلم

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).

(٢) «مسند أحمد» (٨٣٨).

ويُقنع؛ لتنتقل المعلومة مع القناعة بها إلى أبنائه وبناته وهو يربيهم ويعلمهم.

وكان ﷺ يوماً جالساً مع أصحابه، فأرسلت إليه ابنته زينب إن ابني قد احتضر فأْتِنا، فأرسل إليها يبلغها السلام، ويقول: «**إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمّىً، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». فأرسلتْ إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، ورجال من أصحابه، فأتاها، فرُفِع إليه الصبي ونفْسُه تَقَعْقَع كأنها في شنّ[١]، فوضعه ﷺ في حجره وصدرُه يحشرج بآخر أنفاس الحياة، ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: ما هذا يا رسول الله؟! ـ وكأنما عجب من رقة النبي ﷺ وبكائه لحال الصبي ـ فقال ﷺ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[٢].

إنه مشهد من مشاهد التمازج العاطفي بين النبي ﷺ وبناته، حيث ترسل إليه ابنته أن يشهد مصابها، ويشاركها حزنها، وذلك لقرب مشاعره من مشاعرها، وحضوره القوي في حياتها.

وانظر إلى التوجيه الوجيز البليغ في رسالة النبي ﷺ: «**إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى**». أي: فهذا الصبي عطاء الله، وهبه الله حين شاء، ويأخذه حين يشاء.

«**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمّىً**». أي فهذا الصبي قد استوفى عمره الذي كتب له، وبلغ أجله الذي سُمِّي له، لم يُنْقص من عمره، ولم يُقْصر عن أجله.

---

(١) شن: هي القربة القديمة اليابسة، يكون لها صوت إذا حُرِّكت، شَبَّه حشرجة صدر الصبي المحتضر بصوت الشن عند تحريكه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

«**فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»: وهذا توجيه نبوي إلى الموقف المطلوب في هذه الحال، وهو الصبر على المصيبة، والرضا عن الله، واحتساب الأجر وحسن الثواب منه.

فيا لله ما أوجز وأبلغ وأجمع هذه الكلمات القليلة، ممن أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً!

ثم لما أعادت عليه الدعوة بادر بالإجابة، وتجاوب مع المصيبة، وقاسمها الحزن، ورأى أصحابُه منه مشهداً مؤثراً من مشاهد التربية النبوية والرحمة الأبوية.

سابعاً: ومن تمام المحبة والرعاية النبوية لبناته؛ تعاهدهن بالموعظة البليغة، والدعوة الحسنة للعمل الصالح، ومن ذلك: دعوته العلنية على رؤوس الأشهاد لابنته فاطمة: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئاً**»(١).

وكم في هذا النداء من لوعة الحب، ولهفة الإشفاق، وشدة المناشدة!

ومن ذلك: تَفقُّدهن في قيام الليل، وحَضُّهن عليه، فعن علي رضي الله عنه، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: «**أَلا تُصَلِّيَانِ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثنا بَعَثَنا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾»(٢).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

وهنا نلاحظ الرفق في الموعظة.. فقد جاءت على طريقة العرض والإغراء، لا الأمر المباشر: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**». ثم نلحظ ترك الإلحاح في ذلك، مراعاة لحال الشباب، وهي حال عليٍّ وفاطمة، وهذا من حكمة الدعوة وحسن الموعظة.

ثامناً: لقد تفتح وعي أبنائه وبناته بين يدي أكرم أب، وأعظم معلم، فتعلموا منه ووعوا عنه، وإن الأمة اليوم لتدعو في قنوتها بدعاء القنوت الذي علمه النبي ﷺ لابنه الحسن وهو صبي: «**اللهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ؛ فإنَّك تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّه لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعالَيْتَ**»[(١)].

وتروي الأمة حديثاً هو من جوامع الكلم وقواعد السلوك، وهو مما علمه النبي ﷺ لابنه الحسن وهو صبي، قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: حفظتُ من رسول الله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ**»[(٢)].

وانظر إلى قول الحسن: حفظت من رسول الله ﷺ؛ لتستشف من هذه الكلمة حرص النبي ﷺ على تعليمه هذه الكلمة الجامعة وحفظه لها.

وكان ﷺ يُعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما يقول: «**أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**». ثم يقول لهما: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**»[(٣)].

---

(١) «سنن أبي داود» (١٤٢٥).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٧١).

إن هذه الكلمات العظيمة يلقيها النبي ﷺ في مسامع ابنيه، وكما أنها تعويذ وذِكْر، فهي تربية وتعليم، تربط الطفل بتعظيم الله، والالتجاء إليه، والثقة بحوله وقوته، وكأنما يعلمهم صغاراً ما يتعوذون به كباراً.

ثم انظر إلى حديثه إليهما، وهو يخبرهما أن أباهما إبراهيم عليه السلام كان يعوذ بها أباهما إسماعيل وعمهما إسحاق عليهما السلام.

إنه تواصل وجداني يربط مشاعرهما بالنبوات ورسالات الأنبياء السابقة، بالقدر الذي تستوعبه مدراكهما وتعظمه نفوسهما.

وقد تعلم الحسن والحسين هذا وغيره من رسول الله ﷺ وعمرهما سبع سنوات وست سنوات على أكثر تقدير، وهو سنهما حين توفي رسول الله ﷺ، إذن: فما الذي تعلمته فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم في سعة أعمارهن مع أبيهن ﷺ؟

تاسعاً: ومن مظاهر الأبوة النبوية: الحفاوة بالبنات وإكرامهن وإغداق الحب عليهن، وتحطيم النظرة الجاهلية التي كانت تميل مع الأبناء كل الميل، وتتشاءم من البنات وتزدريهن، بحيث يتراوح مصيرهن بين الوأد الحسي أو المعنوي: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾.

فإذا بهذا النبي الكريم يتعالن بحب البنات والحفاوة بهن، حتى خطب على منبره فقال: «**إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي؛ يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَيُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا**»[(١)]!

إنه إعلان العاطفة الأبوية، وإظهارها وإشهارها.

بل إنه فاجأ أصحابه في مشهد عاجب، حيث خرج ﷺ إلى صلاة

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٩).

العصر وعلى عاتقه ابنته أمامة بنت بنته زينب، فصلى بالناس وهي على عاتقه، إذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها[١].

إن الأنوثة في هذا المشهد أنوثة مضاعفة، فهي بنت بنته، وها هو يخرج بها إلى الناس وهي على عاتقه؛ ليقدم درساً عملياً في الحفاوة بالبنات، وليقضي على بقايا الجاهلية في النفوس التي كانت ترى في الأنثى سوءة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾.

فما أبعد المفارقة بين من يتوارى من القوم لأنه بُشِّر بالأنثى، ومن يخرج إلى الناس وعلى عاتقه البنت الأنثى.

عاشراً: ومن حفاوته ببناته حفاوته بأبنائهن: فها هو يشير إلى ابنه الحسن ويقول: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ**»[٢].

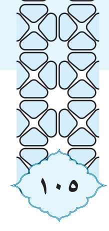
فانظر إلى تأكيد أبوته لابن ابنته، في حين كانت البيئة العربية في وقته تجفو أبناء البنات، وتقول:

بنونـا بنـو أبنائنـا وبناتُنـا ... بنوهـن أبناء الرجـال الأباعد[٣]

وأهديت له ﷺ قلادة من جَزْع[٤] فقال: «**لَأَدْفَعَنَّهَا إِلَى أَحَبِّ أَهْلِي إِلَيَّ**». فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا ﷺ أمامة بنت بنته زينب، فعلقها في عنقها[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥١٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).
(٣) «الحيوان» للجاحظ (١/ ٢٣٠).
(٤) جَزْع: خرز فيه بياض وسواد. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٦٩).
(٥) «مسند أحمد» (٢٤٧٠٤).



وهذا الاحتفاء بأبناء البنات وبناتهن، إحسانٌ مضاعف إلى البنات، وإسعادٌ لقلوبهن، ويا لله ما شعور ابنته زينب رضي الله عنها وهي ترى ابنتها ترتحل عاتق أبيها، وهو خارج بها إلى المسجد؟ وما مشاعرها وهي ترى ابنتها بين يدي أبيها، وهو يقول عنها: «**أَحَبِّ أَهْلِي إِلَيَّ**»! ويلبسها بيديه القلادة في عنقها؟ وما شعور ابنته فاطمة رضي الله عنها وهي ترى ابنها الحسن بين يدي أبيها، وهو يحتضنه ويقبله ويقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وأَحِبَّ مَن يُحبُّه**»[1]؟!

إنها براعة النبي الكريم في تفجير ينابيع السعادة في القلوب!

حادي عشر: وكما عاش نبينا ﷺ نعيم الأبوة وغدق حبها، فقد تجرع ألم الثكل، وذاق أحزان الفراق، وتفارط أبناؤه وبناته بين يديه، وتناثرت أحزانهم بين سنوات عمره، فهو الذي فُجع في أول سنوات بعثته بابنه البكر القاسم بن محمد، وفُجع في آخر سنة من حياته بابنه الصغير الأخير إبراهيم ابن محمد، وفيما بين ذلك تفرقت فجائعه ببناته وبنيه على سنوات عمره..

فها هو يشهد تغسيل ابنته زينب حين توفيت، ويقول لمن يغسلنها: «**إِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي**»، فلما فرغْنَ ناولهنّ إزاره، وقال: «**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**»[2].

وعندما دفنت ابنته رقية رضي الله عنها، كان جالساً على شفير القبر وعيناه تذرفان[3].

وعندما بلغ ابنه إبراهيم سنَّ المحبة والوداد ـ سنة ونصفاً ـ دخل عليه ﷺ فإذا هو يجود بآخر أنفاس الحياة، فقال: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَملك لَكَ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٥٣)، و«صحيح مسلم» (٩٣٩). وأشعرنها إياه: أي اجعلنه مما يلي جسدها، ويكون ما بعده فوقه؛ تبركاً بما لامس جسده الشريف.

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٨٥).

منَ الله شَيئاً، لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْناً أَشَدَّ مِنْ هَذَا؛ وَلَكِنْ تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إلَّا ما يُرْضِي رَبنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1].

وحتى التي بقيت بعده من بناته ـ فاطمة عليها السلام ـ نُعيتْ إليه قبل وفاته، أنها أول أهله لحوقاً به[2].

وكان ﷺ في كل أحزانه الصابر المحتسب، الراضي عن الله في قضائه وقدره: «**تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إلَّا ما يُرْضِي رَبنَا**».

وكما قدم لأمته جمال الأبوة حبّاً ورحمة ووداداً في تعامله مع أبنائه وبناته، قدم لها مشاهد الصبر والرضا وحسن التأسِّي حين فَقْدِهم والفجيعة بهم.

وقد كان في تفارط ولده في حياته وعدم بقاء ذريته من بعده حكمةٌ ربانية في حماية أمته من الغلو في بيت النبوة، وذرية النبي ﷺ، فإذا كان الغلو قد وقع في ابن بنته وابن عمه فكيف لو بقي في الأمة ابنه وابن ابنه.

فصلى الله وسلم وبارك عليه أباً كريماً محباً.

وصلى الله وسلم وبارك عليه أباً صابراً محتسباً.

خلاصات:

١- جاء النبي ﷺ إلى البيئة العربية وقد تشوهت عاطفة الأبوة إلى درجة التوحش، فأعاد لها استواءها الفطري.

٢- من معالم أبوته ﷺ إعلان الفرح بالأبناء.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

٣- كان يمارس أبوته مشاعر وشعائر ظاهرة معلنة أمام الناس؛ ليصحح تصوراتهم، ويعيدهم إلى فطرتهم.

٤- كان العطاء العاطفي يغمر أبناءه بالقُبلة الأبوية، والكلمة الحانية، والملاطفة الجميلة، مما يحقق الارتواء المشاعري لهم.

٥- كان ﷺ يتطامن إلى طفولة الأبناء، فيقترب بهمه إلى همومهم، ويلاعبهم بما يؤنسهم ويفرحهم.

٦- كانت عاطفته تكبر معهم إذا كبروا، ويتواصل إغداق الحب والتعبير عنه في كل مراحل حياتهم.

٧- كان ﷺ يجمع مع حنان الأبوة جمال التربية والتأديب.

٨- كان يتعاهد أولاده بالتعليم، فوعوا عنه العلم وجوامع الكلم.

٩- ومن مظاهر أبوته إشهار حبّ بناته، والاستعلان بعاطفة الأبوة تجاههن، ونقل العرب من جهالة الجاهلية التي تزدري البنات وتجفوهن إلى استقامة الفطرة.

١٠- كان حفياً بأولاد بناته، محطماً الثقافة الجاهلية التي تميل إلى أبناء الأبناء، وتجفو أبناء البنات.

١١- كما ذاق ﷺ نعيم الأبوة وبهجة الذرية، فقد تجرع غصص الحزن وفجائع الثكل ببنيه وبناته، فكان في مصابه الصابر المحتسب، الراضي عن الله فيما أخذ وأعطى.



الرسول وإخوانه عليهم السلام

نشأ صلى الله عليه وآله وسلم في مجتمع أُميٍّ وثنيٍّ، مقطوع الصلة بأنبياء بني إسرائيل، وعلاقته بالنبوة هي العلاقة عبر التاريخ السحيق بنبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي تلاشت معالمها، وتحولت لديهم من إسلام حنيف إلى وثنية جاهلية، وإذا بهذا النبي الأمي يتحدث فيما أنزل عليه من القرآن، وفيما أوحي إليه من الحكمة، عن القافلة المباركة من أنبياء الله ورسله، فيذكر دعوتهم وأخبارهم مع أممهم، وأوصافهم وهيئاتهم وما جرى لهم.

فمن أين عرف هذا وهو الأميّ في هذا المجتمع الجاهلي، إلا أن يكون وحياً أوحاه إليه ربه الذي أرسلهم ثم أرسله في إثرهم خاتماً لهم، ولذا فإن ذكره المفصل لأخبار الأنبياء، هو إحدى دلائل نبوته، فلا مصدر لهذا العلم إلا الوحي.

كما أن ذكره للأنبياء قبله، محفوف بالمحبة والتكريم والتعظيم لدعوتهم ورسالتهم، وذكرهم بأحسن أوصافهم وأجمل هيئاتهم، وشتان بين خبر القرآن وحديث السنة عن الأنبياء الكرام، وتلك الصورة المشوهة المذكورة عنهم في كتب أهل الكتاب المحرفة التي تصفهم بالقبائح، وتبهتهم بالفواحش.

أما نبينا ﷺ فإن علاقته بإخوانه من أنبياء الله ورسله الذين سبقوه على تباعد أزمانهم وتفرق أوطانهم، علاقة أخوة وتأس واقتداء، كما قال ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**[١]**، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[٢]، ولذا كان يذكرهم بالأُخوة فيقول: «**يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى**»[٣]، وكانوا يتلقونه بلفظ الأخوة في رحلة المعراج فيرحبون به: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح! فهم إخوة في الإسلام، وإخوة في النبوة.

وتتجلى أخوة النبي ﷺ للأنبياء والمرسلين قبله في معالم؛ منها:

أولاً: ذكر فضائلهم ومناقبهم:

١- ذكر ﷺ في أحاديثه عنهم فضائلهم وكريم أخلاقهم، وعبادتهم وتعظيمهم لربهم، فقد ذكر فضل يوسف عليه السلام بتسلسل النبوة في آبائه تباعاً، حين سئل فقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**». فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**»[٤].

٢- وذكر حياء موسى عليه السلام وتستره، فقال: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ**[٥] **وَإِمَّا**

(١) العَلاَّت: الإخوة من الأب الواحد، وأمهاتهم شتى. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٦/ ١٨٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٤٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٠٥)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٨).
(٥) الأُدْرَة: نَفْخَةٌ فِي الخُصْيَةِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١).

آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلاَ يَوْماً وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَباً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلاَثاً أَوْ أَرْبَعاً أَوْ خَمْساً، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾»[1].

٣- وذكر صفة قراءة داود عليه السلام وعفته في كسبه، فقال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلاَ يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[2].

ثانياً: ذكر قصصهم وأخبارهم:

فذكر عنهم أخباراً مفصّلة تشعر بقربه منهم، واطلاعه على أحوالهم، حتى كأنهم يعيشون معه في بلدة واحدة، مع تباعد أزمانهم، وتفرق أوطانهم، وتعدد قبائلهم وأقوامهم، فمن ذلك:

١- ذكر قصة ذهاب إبراهيم بهاجر إلى مصر، فقال: «بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٤١٧).

سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا؟[١]**، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الكَافِرِ - أَوِ الفَاجِرِ - فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ»**. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ[٢].

وذكر قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة، وتَرْكهم هناك بأمر الله، ثم تعاهُدهم بالزيارة، وقصة بناء الكعبة، في بسط مفصل مطول، حتى لكأن المشهد رأي العين.

٢- وذكر قصص موسى عليه السلام وأخباره، فذكر خبر حج موسى، فقال صلى الله عليه وآله وسلم حين مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**». فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَاضِعاً أُصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»[٣].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عز وجل أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي العِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ**»[٤].

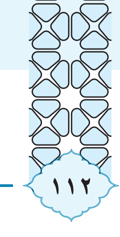
---

(١) أي: ما حالك؟ وما شأنك؟. ينظر: «عمدة القاري» للعيني (١٥/ ٢٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٤٧).



وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ!**». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»(١).

وذكر قصة موسى والخضر فقال: «**بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحداً أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ الله لَهُ الحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ:** ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، **فَوَجَدَا خَضِراً، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ**»(٢).

٣- وذكر فهم سليمان في حكمه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ الله! هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى**»(٣).

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٧٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٢٠).

٤- وذكر قصة نبي الله أيوب عندما تساقط عليه جراد من ذهب، قَالَ: **«بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»**(١).

٥ - وذكر أخبار زكريا ويحيى وعيسى، فقَالَ: **«كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّاراً»**(٢)، إشارةً إلى أنه كان يأكل من عمل يده.

وقال عن عيسى عليه السلام: **«رَأَى عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَجلاً يَسْرق فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي»**(٣).

وهذا من تعظيم عيسى للحلف بالله تعالى، والمبالغة في تصديق الحالف بالله.

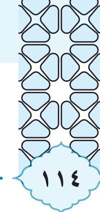
وذكر يحيى عليه السلام ووصاته لبني إسرائيل بخمس وصايا أوحاها الله إليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللهَ عز وجل أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليهما السلام بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ المَسْجِدُ، فَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عز وجل أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ:**

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٦٨).



أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْداً مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً. وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ المِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ. وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﷻ كَثِيراً، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعاً فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْناً حَصِيناً فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ ﷻ»[(١)].

وهذه الأخبار المفصلة منه ﷺ عن إخوانه الأنبياء مع ما أُنزل إليه من قصصهم من القرآن، تبين حضور النبوات والأنبياء في حياته، واستحضار مواقف الأنبياء وأحوالهم، فيذكرها ﷺ اعتباراً وتأسياً، كما تُبيِّنُ عظيم منزلتهم، فإن كل ذكره له إنما هو في سياق الاحتفاء والتكريم.

ثالثاً: لقاؤهم ليلة الإسراء والمعراج:

فذكر ﷺ لقاءه بهم في طريق الإسراء، وفي المسجد الأقصى، وفي السماوات العلى، فإذا النبي الكريم الذي تلقى وحي الله إليه بقصصهم وأنبائهم يلتقي بهم أشباحاً وأرواحاً في عالم غيب نؤمن به ولا نعلم حقيقته:

---

(١) «مسند أحمد» (١٧١٧٠).

١- فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ**»[(١)].

٢- وعَنْ ابن عباس، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى قَامَ يُصَلِّي، ثُمَّ التَفَتَ، فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ[(٢)].

٣- وعن أنس بن مالك عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عن لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ قال: «**فَانْطَلَقَ بي جِبْرِيلُ حتَّى أَتى السَّمَاءَ الدُّنْيا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هذا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بالِابْنِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إذَا يَحْيَى وعِيسَى ـ وهُما ابْنَا الخَالَةِ ـ قَالَ: هذا يَحْيَى وعِيسَى فَسَلِّمْ عليهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا: مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إذَا يُوسُفُ، قَالَ: هذا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إلى إدْرِيسَ، قَالَ: هذا إدْرِيسُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هذا هَارُونُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هذا مُوسَى فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قيلَ له: ما يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي**

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٢٤).

لأنَّ غُلَاماً بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِن أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّمَاءِ السَّابعَةِ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هذا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَباً بالِابْنِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[1].

وهذا اللقاء يبين وثوق الصلة بينهم، واتفاق رسالتهم، وشهادة بعضهم لبعض، ومن ثم كان الإيمان بهم جميعاً من أركان الإيمان: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

رابعاً: ذكر أوصافهم وهيئاتهم كأنما ينظر إليهم:

وصف ﷺ هيئاتهم وصفاتهم الخَلقية كأنما أدركهم وعاش معهم، ووصفُ المظهر الحسن وتفصيلُه من دلائل الحبّ والقرب، ولذا فإن وصفهم كان بكمال صفاتهم، وكان أنبياء الله ورسله بهيئات حسنة، ولذا فليس منهم ناقص الخلق أو معيب الخِلقة، قال ابن حجر: إنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْكَمَالِ، وَأَنَّ مَنْ نَسَبَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى نَقْصٍ فِي خِلْقَتِهِ فَقَدْ آذَاهُ، وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرُ[2].

وكان وصفه ﷺ لكمالهم الجسدي الذي هو وعاء كمالاتهم الخُلقية والعلمية، فوصف إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كأنا ننظر إليهم.

١- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ مُوسَى، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ**[3]، **كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ**

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٨٧). و«صحيح مسلم» (١٦٢).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٣٨).

(٣) ضَرْب: خفيف اللحم، رجِل: مسترسل الشعر. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

شَنُوءَةَ[(١)]، وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ[(٢)] أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ[(٣)]، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِهِ»[(٤)].

٢- عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهاً عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهاً صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهاً دَحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ»[(٥)].

٣- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبْطٌ[(٦)]، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ»[(٧)].

خامساً: التأسِّي بهم:

كان ﷺ يتأسَّى بأنبياء الله ورسله في بلاغهم وصبرهم وهديهم، عملاً بقول الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، ومن ذلك:

١- ما رواه عَبْدُ الله بن مسعود، قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْماً، فَقَالَ رَجُلٌ:

---

(١) حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٢٩).

(٢) رَبْعة: أي أَنَّهُ لَيْسَ بِطَوِيلٍ جِدًّا وَلاَ قَصِيرٍ جِدًّا. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٤).

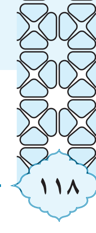
(٣) الديماس: الحمام. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٣٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٨).

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٧).

(٦) الآدم: الأسمر، والشعر السبط: السهل. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٤/ ٥٠).

(٧) «صحيح البخاري» (٣٤٣٨). والزُّطِّ: جنس من السودان. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٠٢).



إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ الله، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى! لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(١).

وذلك أن موسى عالج بني إسرائيل أشد المعالجة، فصبر على تعنتهم وأذاهم، فكان ﷺ يتعزى بحاله، ويتأسَّى بصبره.

٢- قَالَ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»(٢).

وقد كان هذا هو ورد قيام النبي ﷺ المعتاد، كما وصفته عائشة، فذكرت أنه كان يقوم نصف الليل، ثم ينام قبل الفجر، وما أدركه الفجر عندها إلا وهو نائم، فهو مقارب لقيام داود عليه الصلاة والسلام.

سادساً: توقيرهم وحفظ مقامهم ومكانتهم:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطاً، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**»(٣).

وإنما قاله ﷺ تواضعاً، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رفعة وجلالاً(٤).

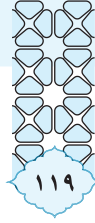
---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٥١).

(٤) «فتح الباري» (٦/ ٤١٣).



٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئاً كَرِهَهُ، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْداً، فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ**»؟ فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي**»(١).

٣- وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»(٢).

وإنما قال ﷺ ذلك تواضعاً منه، لما تُشعر به المفاضلة المعينة من انتقاص المفضول(٣)، وإلا فقد قال الله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وأخبر ﷺ أنه سيّد ولد بني آدم، ولكنه ذكَر التفضيل مجملاً دون تعيين المفضول، فلم يذكره مع أحد من الأنبياء معيناً؛ تكرمة لهم، وحفظاً لمقامهم(٤).

سابعاً: مؤاخاتهم وتوليهم:

جعل النبي ﷺ النبوة أخوةً جامعة بين الأنبياء، وإن تعددت أممهم، وتباعدت أزمنتهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤١٢).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٦).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣/ ٥-٩).

١- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١).

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنِّي لَأَرْجُو إِنْ طَالَ بِي عُمُرٌ أَنْ أَلْقَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنْ عَجِلَ بِي مَوْتٌ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ**»(٢).

خلاصات:

علاقة النبي ﷺ بإخوانه الأنبياء على تباعد أزمانهم وتفرق أوطانهم، هي علاقة الأخوة الوثيقة، ويتجلى ذلك في:

١- ذكر فضائلهم، وتعداد مناقبهم، عليهم السلام.

٢- ذكر قصصهم، وأخبارهم.

٣- لقاؤهم وصلاته بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس، ثم لقاؤهم في منازلهم في السماوات.

٤- ذكر أوصافهم وهيئاتهم كأنما ينظر إليهم.

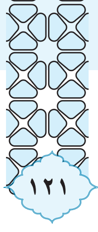
٥- توقيرهم، وحفظ مقامهم، ومكانتهم.

٦- ذكر مؤاخاتهم، وتوليهم.



(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

(٢) «مسند أحمد» (٧٩٧٠).

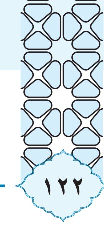


الرَّسُولُ ﷺ صَدِيقًا

كانت حياة النبي ﷺ محفوفة بأصدقاء كرام قبل النبوة وبعدها، وبعد الهجرة كانت تحيطه صداقات أصحابه من رجالات المهاجرين والأنصار، ومع سعة صداقته تلك إلا أنا سنأخذ منها الأنموذج الساطع والرتبة الأولى، لنرى الصداقة كأروع ما كانت وما تكون: أصدقَها وأجملَها، وأوفاها وأكملَها، وهي تلك الصداقة التي كانت بين النبي ﷺ وصديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكان الصِّدِّيقُ صَديقاً، وصاحباً وصهراً، وكان لهذه الصداقة معالمها في حياتهما، ومن معالمها:

١ - تقارب العمر بينهما، فالصديق من لِداتِ النبي ﷺ ومقاربيه في العمر، يقصر عمره عن عمر النبي ﷺ سنتين وشيئاً، والتقارب في العمر يوسع مجالات الاشتراك في الاهتمام والمعرفة وظروف الحياة.

وكما كان بينهما تقارب في العمر كان بينهما تقارب في الخلال والأخلاق، ومما يبين ذلك: وصف أبي بكر بأوصاف النبي التي كان يوصف بها قبل النبوة، فعندما قال ﷺ لخديجة بعد نزول الوحي عليه في غار



حراء: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**». قالت له: كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ [١].

ومثله تماماً ما قاله ابن الدَّغِنَةِ حين لقي أبا بكر وهو يريد الهجرة إلى الحبشة، فقد لقيه ابن الدغنة في برك الغماد فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ؛ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ [٢].

فانظر إلى تطابق الوصف الأخلاقي للنبي ﷺ مع ما وُصِف به أبو بكر رضي الله عنه، وقد كانت هذه أخلاقهما الفطرية قبل الإسلام.

٢- كما أنها علاقة قديمة سابقة للنبوة وتنزل الوحي، ثم توثقت وتعمقت بعد النبوة وسَبْقِ أبي بكر للإيمان، فكان أولَ من أسلم من الرجال، وكان سَبْقُهُ للإيمان عن معرفة سابقة بحال النبي ﷺ وسيرته، وأطوار حياته، فبادر بالتصديق للرسول بالرسالة، ولذا فإن من دلائل نبوة النبي ﷺ أنّ أول مَن آمن به هو أعرف الناس به، وأن أكثرَهم يقيناً به هو أقربُهم إليه.

٣- ولوثوق هذه العلاقة وقربها كان أبو بكر يعرف مرادات النبي ﷺ وما يمكن أن يقول قبل أن يقوله، وما يشير إليه قوله وإن لم يفصح به.

ومن ذلك: ما جرى يوم الحديبية بعد أن وافق النبي ﷺ على ما شرطته

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٢٩٧).

قريش في الصلح، وكانت شروطاً جائرة في نظر كثير من الصحابة، حتى جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: «**بَلَى**». قال: أليسوا على الباطل؟ قال: «**بَلَى**». قال: فلمَ نعطي الدنية في ديننا، قال: «**يَا عُمَرُ! إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَلَا أَفعَل إِلَا مَا يَأْمُرُنِي**». قال: أليس قلتَ لنا: إننا ندخل المسجد الحرام محلقين ومقصرين؟ قال: «**يَا عُمَرُ! هَلْ قُلْتُ إِنَّكَ تَدْخُلُهُ عَامَكَ هَذَا؟!**». قال: لا. قال: «**فَإِنَّك دَاخِلُهُ**»[١].

فلم يصبر عمر، وذهب إلى أبي بكر، فسأله كما سأل رسول الله ﷺ، فكان جواب أبي بكر هو عينَ جوابِ النبي ﷺ، مع أنه لم يكن حاضراً سؤال عمر، ولا سمع جواب النبي ﷺ له!

ولما جلس النبي ﷺ على المنبر في مرض وفاته وقال: «**إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ رَبُّهُ، بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فكان أبو بكر هو الذي فقه إشارة النبي ﷺ، وعلم مراده منها، وأن رسول الله هو العبد المخير، وأنه اختار لقاء الله، ويوشك أن يفارقهم، فأجهش بالبكاء، وجعل يقول: نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله!

ولم يفهم بقية الصحابة ما فهمه أبو بكر رضي الله عنه، وعجبوا من بكاء أبي بكر وقالوا: ما لهذا الشيخ يبكي أنْ خيَّر الله عبداً بين زهرة الدنيا وما عنده[٢]؟! ثم علموا أن أبا بكر كان أعلمهم بمراد النبي ﷺ، وأن رسول الله كان هو المخيَّر.

ويا لله ولأبي بكر الذي بكى عندما ألمح النبي ﷺ إلى قرب لحاقه بالرفيق الأعلى، فكان يبكي والنبي ﷺ أمامه ينظر إليه، فكيف كانت

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

فجيعته ولوعته عندما وقع الأمر وحصلت المصيبة بوفاة النبي ﷺ؟!

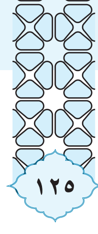
كلا؛ فقد كان يوم وفاة النبي ﷺ هو الرابطَ الجأش، المسدَّدَ القول[1]، وكان في موقفه عصمة لأمة محمد ﷺ وأمنةٌ وثباتٌ، ولكن حزنه وفجيعته من الحزن المستدخل المكتوم، حتى إني لأحسب أن الذي قتل أبا بكر ولاقى به أجلَه، هو حزنُه على رسول الله ﷺ ولوعتُه على فراقه.

٤- وكانت الرابطة المشاعرية بين أبي بكر والنبي ﷺ كأقوى وأسمى ما تكون المشاعر، ويكفي في اجتلاء رهافة هذه المشاعر وشفافيتها، حرص النبي ﷺ على صحبته في الهجرة، فقد كان الصحابة يَسْربون إلى المدينة مهاجرين، فإذا استأذن أبو بكر للهجرة استبقاه النبي ﷺ ينتظر الإذن له بالهجرة حتى يكون صاحبه.

وتتجلى رهافة مشاعر الصديق وعاطفته، عندما أتاه النبيُّ ﷺ في بيته يخبره بإذن الله له بالهجرة، قالت عائشة ـ وكانت حاضرة المشهد ـ: فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «**الصُّحْبَة**». قالت: فوالله ما شعرتُ قطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ من الفرح بصحبة رسول الله ﷺ[2].

إنها لحظة لا يمكن تصنع الانفعال فيها؛ ولكنها مشاعر الفرح طفرت عارمة غامرة أقوى من أن يتحكم فيها أو يسيطر عليها، ففاضت دموعاً ذارفة ما رأتها عائشة في مشهد قبل هذا، فأيّ حُبٍّ كان هذا الحب، وأيُّ صداقة كانت هذه الصداقة والقرب؟!

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٦٧).
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٣).



فانظر حرص كلٍّ منهما على هذه الصحبة: النبي ﷺ يستبقيه ليكون صاحبه، والصديق يبكي أن وافق الرسول أن يكون هو صاحبه، وحسبك أن الله خلّد هذه الصحبة وأبقاها من بعدُ قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

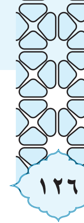
٥- لقد عَبَرَت حياة الصِّدِّيق مع النبي ﷺ في كل أطوارها، وبكل ما مرّ بها، فقد تغيرت أحوال النبي ﷺ وتنوَّعت يسراً وعسراً، وقلة وكثرة، وفقراً وغنىً، وبقي أبو بكر مع النبي ﷺ في أحواله هذه كلها الأقرب إليه على أيّ حال كان.

ذاق معه نشوة النصر، وتجرع معه ألم المصيبة.. عاش معه جهد الفقر، وعايش معه وفرة الغنى، وكان الثابتَ معه والأقربَ إليه يوم انهزم الناس عنه في أُحُد وفي حُنين.. إن هذه الأحوال مهما تبدلت وتغيرت حول رسول الله، فإن حال أبي بكر معه هي التي لم تتغير قرباً وحبّاً وثباتاً وصدقاً.

وفي هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، كان أبو بكر في الغار معه، وفي الطريق المخوف إلى المدينة كان أبو بكر معه، وبعدها بعشر سنين في طريق النبي ﷺ من المدينة إلى مكة في حجة الوداع، كان النبي ﷺ آمن ما يكون وأظهر ما يكون، ومعه أكثر من مئة ألف؛ ولكن كان صاحبَه في الطريق من بينهم كلهم أبو بكر، وكانت زاملته وزاملة[١] أبي بكر واحدة[٢].

٦- ولذا صار للصديق خصوصية بالنبي ﷺ، وملازمة له، فهو صاحبه الأقرب، فتجد سمره عند رسول الله، وسمر رسول الله عنده، وذلك لقضاء

(١) الزاملة: الْبَعِير الَّذِي يحمل عَلَيْهِ الطَّعَام وَالْمَتَاع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٩٣).



حوائج الناس والاهتمام بأمورهم، قال عمر بن الخطاب: كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين وأنا معهما[(١)].

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: نَزَلَ عَلَيْنَا أَضْيَافٌ لَنَا، وَكَانَ أَبِي يَتَحَدَّثُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَانْطَلَقَ وَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، افْرُغْ مِنْ أَضْيَافِكَ...[(٢)]، وذكر الحديث بطوله.

ومثله ما ورد عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ سَمَرَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَخَرَجَا وَخَرَجَ، فَمَرُّوا بِابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَمَا نَزَلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»**[(٣)]، فذكر الحديث.

٧ - ثم نلاحظ الوفاء النبوي لهذه الصداقة، ورعاية حال أبي بكر فيها، حينما نرى المكانة التي يضع النبي ﷺ فيها أبا بكر عالية لا يساميه ولا يدانيه فيها أَحَدٌ من أصحابه، يتجلى ذلك في غضبه ﷺ على صاحبه الفاروق عمر حين حصلت بينه وبين أبي بكر مغاضبة، ثم جاء أبو بكر إليه معتذراً فلم يعذره، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ يقول: يا رسولَ الله، إنه كان بيني وبين عمر شيء، ثم سألته أن يغفرَ لي فلم يغفرْ لي. فقال رسولُ الله ﷺ: **«يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»**. ثم جاء عمر إلى النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتلوَّن من الغضب وهو يقول: **«هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْت: يَا أَيُّهَا**

---

(١) «جامع الترمذي» (١٦٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٧٥).

(٣) «مسند أبي حنيفة» (١٩).

النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُون لِي صَاحِبِي؟»؛ حتى أشفق أبو بكر عليه وقال: يا رسولَ الله، أنا كنتُ أظلم، أنا كنتُ أظلم(١).

إن سابقة أبي بكر وقربه من رسول الله ﷺ مذكورة مشكورة، وهل أعظم من أن يذكره ويشكره وهو يودع الدنيا في مرض وفاته، حين خرج على أصحابه قبل أن يموت بثلاثة أيام، فجلس على المنبر، وكانت آخر مرة رأوه فيها على منبره، فقال: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، لكنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَمَا من أَحَدٍ لَهُ يَدٌ عِنْدَنَا إِلَّا كَافَأْنَاهُ بِهَا، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ يَداً الله يُكَافِئُهُ بِهَا**»(٢).

٨ - ومع هذه الصداقة والمحبة والقرب من النبي ﷺ، فإن نبينا ﷺ لم يؤثره بعطاء أو إقطاع، ولم يستفد من القرب من رسول الله ﷺ عرضاً دنيويّاً أو مالاً أو متاعاً، وإنما كانت أشواقه وآماله وطموحه هناك عند الله في الدار الآخرة.

يتجلى هذا الطموح في سؤال أبي بكر للنبي ﷺ وهو يذكر أبواب الجنة الثمانية وأن كل عامل يدعى من باب عمله: «**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ**». فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على مَن دُعِي

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٠٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

من باب منها من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من أبواب الجنة كلها؟ فقال النبي ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**»(١).

إن من كانت أشواقه هناك لن ينتظر عرَضاً دنيويّاً، ولن يتشوف إلى متاع زائل في عُمُرٍ عابر، وهكذا كان أبو بكر..

لقد أحبّ أبو بكر الرسول ﷺ صديقاً، وآمن به رسولاً، فكان مخلصاً في صداقته، موقناً في إيمانه، ولا تزال تتتبع أخبار هذه الصداقة الرائعة بين الرسول ﷺ وأبي بكر، حتى توقن أن أبا بكر هو أكثر الصحابة إسعاداً للنبي ﷺ، وأعظمهم سعادة بالنبي صلَّى الله وسلَّم عليه، ورضي عن صَدِيقه وصِدِّيقه.

خلاصات:

١- كانت حياة النبي ﷺ محفوفة بأصدقاء كرام قبل النبوة وبعدها، وبعد الهجرة كانت تحيطه صداقات أصحابه من رجالات المهاجرين والأنصار.

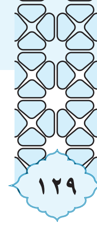
٢- كان أبو بكر الصديق هو الصديق الأقرب إلى رسول الله ﷺ.

٣- كان بين الرسول ﷺ وأبي بكر تقارب في العمر، وتقارب في الشمائل والأخلاق.

٤- كان أبو بكر لشدة قربه من رسول الله ﷺ هو الأعلم بمرادات الرسول ودلالة قوله.

٥- كانت المشاعر الوجدانية بين أبي بكر والنبي ﷺ مرهفة شفافة،

(١) «صحيح البخاري» (١٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٧).



حتى بكى من الفرح لصحبة النبي ﷺ في طريق الهجرة.

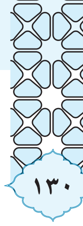
٦- تبدلت أحوال النبي ﷺ وتغيرت ظروفه وأوضاعه؛ ولكن حال أبي بكر معه لم تتحول ولم تتغير ثباتاً ويقيناً وقرباً.

٧- كان لأبي بكر خصوصية بالنبي ﷺ، يسمر عنده في أمر المسلمين، فهو الصاحب والصديق والوزير والمشير.

٨- كان حفظ النبي ﷺ لسابقة أبي بكر ورعاية مكانته من مشاهد الوفاء وحسن العهد.

٩- لم يكن قرب أبي بكر من النبي ﷺ وحظوته عنده سبب إيثاره بغرض دنيوي، أو متاع زائل، وإنما ادخر جزاءه عند الله يكافئه به.





الرَّسُولُ ﷺ والمَرأة

للمرأة حضورها القوي والمؤثر في الحياة النبوية؛ زوجةً، وبنتاً، وصحابية متلقية للرسالة وعاملة بها، وحاملة لها، وقد كان التعامل النبوي مع المرأة نُقلَةً كبيرة في التعامل المجتمعي مع المرأة، فقد كان الوحي المنزل، والهدي النبوي في التعامل، يستن طريقاً آخر يجعل للمرأة مكانتها، ويفعِّل دورها، ويحفظ حقوقها، ويرفع منزلتها، فإذا القرآن يتنزل بمساواة المرأة بالرجل في العمل والجزاء: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

ويأتي الهدي النبوي مؤكداً هذا المعنى: «**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»[1].

وقد كان النبي ﷺ في هديه وتعامله مع النساء يفعِّل هذا الدور، ويؤكد هذه المكانة، ويحرر المرأة من كثير من عوائق الإرث المجتمعي الجاهلي، ويتجلى ذلك في معالم منها:

(١) «سنن أبي داود» (٢٣٦).

أولاً: مخالفة عادة قومه قريش في التعامل مع النساء:

فكانت قريش بخاصة والعرب بعامة لا يرون للمرأة رأياً ولا مشورة، وإنما هي تابعة للرجل فيما يرى، وكانوا يزدرون دورها ومكانتها فيقولون: نصْرُها بكاء وبِرُّها سرقة! فجاء التعامل النبوي الكريم على غير هذا العرف المجتمعي؛ ليرفع مكانتها، وليجعل لها رأيها، ويعتبر مشورتها.

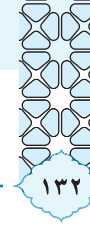
قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْراً، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ وَلِمَا هَا هُنَا؟ وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَباً لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ! فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ، إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ[١].

وهذا من دلائل نبوته ﷺ فإنه لم يَسِرْ على النظام الاجتماعي لقومه؛ لأنه يستمد هديه من الوحي الإلهي، وليس من الإرث الاجتماعي؛ ولذا خالفهم في طريقة التعامل مع المرأة، فعاملها بما يليق بفطرتها وإنسانيتها.

ومن ذلك: قبوله ﷺ رأي خديجة أول نزول الوحي عليه في غار حراء، حيث ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وأسمعته كلام النبي ﷺ، فأخذا منه ما أسكن فؤاد النبي ﷺ وهدَّأ روعه.

وكذلك قبوله مشورة أم سلمة يوم الحديبية، فعن المسور بن مخرمة، أن رسول ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية: «**قُومُوا، فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**».

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).



قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَداً مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَداً مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضاً؛ حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضاً غَمّاً[1].

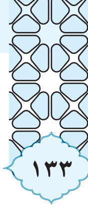
وهنا نلاحظ أنه ﷺ عرض على أم سلمة حاله مع الناس، وبثها معاناته؛ شكاية واستشارة، ولذا بادرت أم سلمة بإبداء رأيها، ثم نرى حسن تلقي النبي ﷺ لهذه المشورة وعمله بها، وبالغ أثرها على الناس.

ثانياً: إشعار المرأة بمسؤوليتها، ومشاركتها في العمل لدينها:

ويبين هذا الدور للمرأة أن أول من أسلم وصدَّق الرسول ﷺ من خلق الله كلهم؛ إنسهم وجنهم، رجالهم ونسائهم: هي أمنا خديجة رضي الله عنها، فهي أول من تلقى الرسالة من رسول الله ﷺ، وأول من احتفى باستقبالها وآمن بها، وناصر الرسول والرسالة، وكذا كان السابقات من المؤمنات؛ آمَنَّ بالدين عن قناعة راسخة، وليس استتباعاً أو تقليداً، ولذا تحملْنَ المسؤولية، وتصدّيْنَ للبذل والتضحية، فكنّ المهاجرات المجاهدات الصابرات المحتسبات، ومما يوضح ذلك:

١ ـ حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ زوجة جعفر، عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ:

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).



مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، قَالَ عُمَرُ: الحَبَشِيَّةُ هَذِهِ.. البَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ، قَالَ: سَبَقْنَاكُمْ بِالهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْكُمْ، فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلَّا وَالله، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ - أَوْ فِي أَرْضِ - البُعَدَاءِ البُغْضَاءِ بِالحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي الله وَفِي رَسُولِهِ ﷺ، وَايْمُ الله لَا أَطْعَمُ طَعَاماً وَلاَ أَشْرَبُ شَرَاباً، حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ الله ﷺ، وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَسْأَلُهُ، وَالله لَا أَكْذِبُ وَلاَ أَزِيغُ، وَلاَ أَزِيدُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ الله إِنَّ عُمَرَ قَالَ: كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: «**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**». قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ - أَهْلَ السَّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ**»[1].

يُبْهِرك موقف أسماء هذا، فهو دال على أنها كانت تؤدي دورها بوعي كامل لمسؤوليتها؛ لقد كان يمكن أن تُجيب عمر قائلة: لقد ذهبت مع زوجي يوم ذهب، وعدت معه يوم عاد. وحَسْبُها ذلك لو كانت تؤدي دورها مجرد تابعة؛ ولكنها واجهت عمر مواجهة الواثقة المُتَشَبِّعة بما عملت، ولشدة يقينها أقسمت أن ترفع ما جرى إلى رسول الله ﷺ، وقد فعلت.. وكل ذلك دليل على غاية الوثوق بأهمية الدور الذي قامت به مع زوجها جعفر رضي الله عنهما.

إن هذا يكشف أن المرأة كانت شريكاً حقيقيّاً فاعلاً في مشروع الدعوة النبوية، مُتَشَبِّعة بقناعتها، واعية بدورها، ولذا كان عطاؤها عطاء كثيراً طيباً مباركاً فيه، وما كان ذلك لِيَتِمَّ لو كانت تعيش بعض حالات التهميش والإقصاء والاستتباع.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٣٠).

إن النبي ﷺ وقد سمع مقالة عمر لأسماء لم يسارع بالجواب، وإنما سألها قائلاً: «**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**». فلما قالت: قلتُ له كذا وكذا، أجابها مُقرِّراً لما قالت ومُؤكِّداً له، وهذا نوع من التربية النبوية لبناء الثقة في الذات، وإظهار اعتبار رأي المرأة.

٢ ـ ومن ذلك: خبر هجرة أم سلمة رضي الله عنها قالت: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الخُرُوجَ إِلَى المَدِينَةِ، منعني أهلي بنو المغيرة، وأخذ بنو أسد رهط أبي سلمة ابني سلمة، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى المَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أُمْسِي سَنَةً أَوْ قَرِيباً مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي، أَحَدُ بَنِي المُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي المُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ المِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الحَقِي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي. قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ، إِلَّا اللهَ وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوي بي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ:

زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ -وكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ[١].

إن هذا الصبر والمصابرة كان قناعةً بالدين، وصبراً على الشدائد فيه، وشعوراً عميقاً بالانتماء له، ولذا تأثرتْ بمنعها من الهجرة هذا التأثر، ثم غامرت بهذا السفر البعيد وحدها؛ لتشارك زوجها هجرته، وتنال شرف ما ناله، وما كانت لتُقْدِمَ على ذلك وتتحمله لولا يقينها بإيمانها، وتحملها مسؤولية دينها.

ثالثاً: فتح المجال للتعبير عن آرائهن:

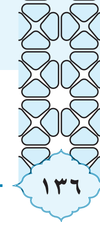
فَتَحَ ﷺ آفاقَ الحوار لهنّ، وإبداء الرأي فيما يلقيه إليهن، وكان يتصدى للجواب عن أسئلتهن وآرائهن أمام الملأ بحفاوة وترحاب، بحيث جرأت النساء والفتيات أن يقفن أمامه، ويسألهن، ويبين آراءهن بنصاعة ووضوح فيما يقوله لهن، ومن ذلك:

١ ـ حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ العِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ، بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئاً عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**»، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[٢] سَفْعَاءُ[٣] الخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**»، قَالَ: فَجَعَلْنَ

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٠).

(٢) سطَة النساء: أي ليست من علية النساء، ويدل عليه قوله: «سفعاء الخدين». ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٤).

(٣) السُّفْعَةُ: نَوْعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالكَثِيرِ. وَقِيلَ: هُوَ سَوَادٌ مَعَ لَوْنٍ آخَرَ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧٤).



يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ [(١)].

فهذه المرأة التي وصفها جابر أنها من سِطة النساء ليست معروفة مشهورة؛ ولكن كانت تجد الجرأة لتسأل النبي ﷺ هذا السؤال بين الناس بلا حرج ولا تهيُّب، فيتلقى النبي ﷺ سؤالها بحفاوة، ويفصل لها جواب ما سألت عنه، ويبين السبب؛ محذراً من هذه الخصال التي تسبب دخول النار، وكان من أثر ذلك تفاعل النساء ومبادرتهن بالتصدق من حليهن الذي كن يلبسنه.

٢ ـ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صلى رَسُولُ الله ﷺ ثم قَالَ: «**مَجَالِسَكُمْ، مَجَالِسَكُمْ هَا هُنَا**». ثُمَّ حَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ**». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُمُ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ الله؟**». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا، فَعَلْتُ كَذَا؟**». قَالَ: فَسَكَتُوا، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ؟**». فَسَكَتْنَ، فَجَثَتْ فَتَاةٌ كَعَابٌ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا، وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُنَّ لَيَتَحَدَّثْنَهُ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا مَثَلُ ذَلِكَ؟**». فَقَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ لَقِيَتْ شَيْطَاناً فِي السِّكَّةِ، فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْه**»[(٢)].

لقد جرأت هذه الفتاة على ما لم يجرؤ عليه الرجال ولا النساء، وقد استقبل النبي ﷺ مشاركتها، وأسس عليها بقية حديثه، ولم تكن تخشى أن تتعرض لتعنيف أو توبيخ، ولم تتجرأ الفتاة هذه الجرأة أمام رسول الله ﷺ

(١) «صحيح مسلم» (٨٨٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

وجمع المسلمين، إلا أنها رأت سوابق وواقعات حصل فيها نحو ذلك من مخاطبة النساء للنبي ﷺ، ورأتْ حُسن تلقيه ذلك منهن، ولذا تجرأت وهي الفتاة صغيرة السن، لتقول ما لم يجرؤ الرجال والنساء على قوله.

رابعاً: استقبال مبادرات النساء والحفاوة بها والتفاعل معها:

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا أَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَراً يَحْمِلُ عِظَامَكَ، فَإِنَّ لِي غُلَاماً نَجَّاراً؟ قَالَ: «**بَلَى، إِنْ شِئْتِ**». قَالَ: فَاتَّخَذَ لَهُ مِنْبَراً مِرْقَاتَيْنِ[(١)].

إن هذه المرأة التي بادرت بهذا الاقتراح، لم يمنعها وجود أبي بكرٍ وعمر وجِلَّةُ الصحابة حول رسول الله ﷺ، أن تقدم اقتراحها ومبادرتها، وكان لها السبق، فكان المنبر الذي عملته للنبي ﷺ هو الأثر الذي بقيت آثاره نحواً من سبعِمئة سنة، كما أن كل المنابر في مساجد المسلمين بعد ذلك هي ثمرة هذا المبادرة المباركة، فلهذه الصحابية السبق إلى هذه السنة.

خامساً: تخصيص مجالس له مع النساء:

فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْماً مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ**». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «**وَاثْنَتَيْنِ**»[(٢)].

إن هذه المرأة عندما قالت: غلبنا عليك الرجال، لم تكن تعني استئثار

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٩٥)، و«سنن أبي داود» (١٠٨١). يحمل عظامك: كناية عن القعود عليه. مرقاتين: درجتين. ينظر: «عون المعبود» (١/ ٤٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).

الرجال به عليهن، فقد كان النساء يحضرن في المسجد ويسمعن خطبه ومواعظه ﷺ؛ ولكن وجود الرجال يعوقهن أن يسألن عما يعنيهن، وأن يراجعنه فيما يردْنَ، ولذا طلبْنَ مجلساً خاصاً بهنّ.

ثم إنه ﷺ عندما حضر تحدث معهن فيما يباشر حاجاتهن، وذلك بحديثه عن ثواب الأم تفقد أبناءها، فقد كان الأمهات يُفجعْنَ بأبنائهن في المدينة لكثرة الأوبئة فيها، فكان في حديثه ذلك سلوى وتعزية لهن.

سادساً: قضاء حاجاتهن والسعي في أمورهن:

فعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ! انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**». فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[١].

فإذا كانت المرأة التي في عقلها شيءٌ تطلب من رسول ﷺ هذا الطلب فيلبيه لها، فإن هذا يدل على عرف معلوم عند عامة النساء، حتى جرأت عليه هذه المرأة.

ولما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ فَانْطَلَقَ به إِلَى بَيته، قال عدي: فوالله إنَّهُ لَعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ، فَاسْتَوقَفْتُهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلاً تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، حتى رحمته من طول القيام[٢]، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَالله مَا هَذَا بِمَلِكٍ[٣].

ومن ذلك: رعايته المسكينات منهن، وعيادتهن والسؤال عنهن، والصلاة

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٢٦).
(٢) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).
(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠).

عليهن، فعن أبي أُمامَةَ بنِ سَهلِ بنِ حُنَيفٍ الأنصارِيِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَعودُ مَرضَى مَساكينِ المُسلِمينَ وضُعَفائهِم، ويَتبَعُ جَنائزَهُم، ولا يُصَلِّي عَلَيهِم أحَدٌ غيرُه، وأنَّ امرأةً مِسكينَةً مِن أهلِ العَوالِي طالَ سَقمُها، فكانَ رسولُ الله ﷺ يسأَلُ عَنها مَن حَضرَها مِن جيرانِها، وأَمَرَهُم ألَّا يَدفِنوها إنْ حَدَثَ بها حَدَثٌ، فيُصَلِّي عَلَيها، فتوُفِّيت تِلكَ المَرأَةُ لَيلاً، فاحتَمَلوها فأَتَوا بها مَوضِعَ الجَنائزِ، عِندَ مَسجِدِ رسولِ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيها رسولُ الله ﷺ كما أمرَهُم، فوَجَدوه قَد نامَ بَعدَ صَلاةِ العِشاءِ، فكَرِهوا أن يُهَجِّدوا رسولَ الله ﷺ مِن نَومِه، فصَلَّوا عَلَيها، ثُمَّ انطَلَقوا بها، فَلَمّا أصبَحَ رسولُ الله ﷺ سَألَ عَنها مَن حَضَرَه مِن جيرانِها، فأَخبَروه خَبَرَها، وأَنَّهُم كَرِهوا أن يُهَجِّدوا رسولَ الله ﷺ لَها، فقالَ لَهُم رسولُ الله ﷺ: «**ولِمَ فعَلتُم؟! انطَلِقُوا**». فانطَلَقوا مَعَ رسولِ الله ﷺ حَتَّى قاموا على قَبرِها، فصَفّوا وراءَ رسولِ الله ﷺ كما يُصَفُّ لِلصَّلاةِ على الجَنائزِ، فصَلَّى عَلَيها رسولُ الله ﷺ[(١)].

ومثل ذلك: صلاته على الأمة السوداء التي كانت تَقُمُّ[(٢)] المسجد لما ماتت ودفنت من غير أن يعلم بها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي!**». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِها**». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[(٣)].

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٧١٠٠).
(٢) أَيْ تَجْمَعُ الْقُمَامَةَ وَهِيَ الْكُنَاسَةُ. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٥٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٩٥٦).

فانظر بالغ اهتمامه بهاته النسوة الضعيفات وسؤاله عنهن وتفقدهن، ثم عتابه لأصحابه إذ لم يخبروه، ثم ذهابه إلى قبورهن وصلاته عليهن، وعندما صغَّروا أمر الأمة السوداء لم يكن صغيراً عنده ﷺ فهي أمةٌ غريبة في المدينة لا قرابة لها ولا عشيرة؛ ولكنه ﷺ هو مأوى الغرباء، وأبو الضعفاء، لا يستصغر أحداً، فالكل أُمَّتُه ورعيته، وأتباعه المؤمنون به.

سابعاً: تخصيصهن بأنواع من الخطاب الذي يباشر احتياجاتهن ولهن به خصوصية:

وهي أحاديث كثيرة تتعلق بما يخص النساء، وللشيخ صديق حسن خان كتاب «**حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله من حق النسوة**». جمع فيه فأوعى، ومن ذلك:

١ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**[1]»[2].

٢ ـ وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ لَنَا يَوْماً، فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَاباً مِنَ النَّارِ**». قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: «**وَاثْنَانِ**»[3].

٣ ـ وعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الحُيَّضَ يَوْمَ العِيدَيْنِ، وَذَوَاتِ الخُدُورِ، فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ، وَيَعْتَزِلُ الحُيَّضُ عَنْ

---

(١) الفِرْسِن: عَظْمٌ قليل اللَّحم، وَهُوَ خُفُّ البَعير، كالحَافر لِلدَّابَّةِ، وَقَدْ يُسْتَعار لِلشَّاةِ فيُقال فِرْسِن شَاةٍ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).

مُصَلَّاهُنَّ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ الله، إِحْدَانَا لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[1].

وهذه الأحاديث وغيرها كثير مما يتعلق بطهارة النساء وعبادتهن ونفقتهن وزينتهن، ونحو ذلك من أمورهن.

ثامناً: تحفيزهُنَّ للعلم:

كان رسول الله ﷺ يحفز للعلم تحفيزاً عامّاً، فهمت منه النساء ـ ومنهن أمهات المؤمنين ـ أنهن معنيات بذلك، ولذا بادرن إلى طلب العلم وأدائه، ولم يفهمن خصوصية الرجال بذلك.

١ ـ قَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَافِعٍ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ وَهِيَ تَمْتَشِطُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**». فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا: لُفِّي رَأْسِي، فَقَالَتْ: فَدَيْتُكِ إِنَّمَا يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**»! قُلْتُ: وَيْحَكِ، أَوَلَسْنَا مِنَ النَّاسِ؟! فَلَفَّتْ رَأْسَهَا، وَقَامَتْ فِي حُجْرَتِهَا، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! بَيْنَمَا أَنَا عَلَى الحَوْضِ، جِيءَ بِكُمْ زُمَراً، فَتَفَرَّقَتْ بِكُمُ الطُّرُقُ، فَنَادَيْتُكُمْ: أَلَا هَلُمُّوا إِلَى الطَّرِيقِ، فَنَادَانِي مُنَادٍ مِنْ بَعْدِي، فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَقُلْتُ: أَلَا سُحْقاً، أَلَا سُحْقاً**»[2].

إن هذا الوعي عند أم سلمة، بحيث أدركت أنها مشمولة بالخطاب العام، ثم بادرت للاستماع، إنما تكَوَّن من التربية النبوية المحفِّزة على التعلم للرجال والنساء.

٢ ـ وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْت أَبِي بَكْرٍ قالت: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَذَكَرَ الفِتْنَةَ

(١) «صحيح البخاري» (٣٥١)، و«صحيح مسلم» (٨٨٣).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٥٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩).

الَّتِي يُفْتَنُ بِهَا المَرْءُ فِي قَبْرِهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ المُسْلِمُونَ ضَجَّةً حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَفْهَمَ كَلَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا سَكَنَتْ ضَجَّتُهُمْ قُلْتُ لِرَجُلٍ قَرِيبٍ مِنِّي: أَيْ بَارَكَ اللهُ لَكَ، مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ قَوْلِهِ؟ قَالَ: «**قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»[(١)].

إن أسماء كانت في حال تحفز لسماع ما يقوله النبي ﷺ، وعندما فاتها بعض ما قاله ﷺ لضجيج الناس، سألت أقرب رجل إليها! وذلك أنها كانت في حجرة عائشة والرجل في المسجد، فليس بينها وبينه إلا الستر، ولذا سألته عن قرب.

إن هذا التحفز العلمي هو ثمرة التربية النبوية للمرأة وتأهيلها.

٣ ـ وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ امْرَأَةُ أَبِي طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، هَلْ عَلَى المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا رَأَتِ المَاءَ**»[(٢)].

وهذا مشهد للجراءة في طلب العلم، دفعت أم سليم لتسأل عما يُستَحيا منه غالباً، وقد تلقى رسول الله ﷺ سؤالها بجدية واهتمام، فلم ينقل أنه ضحك أو عجب، بل دافع عنها حين قالت لها أم سلمة: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، فَضَحْتِ النِّسَاءَ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ[(٣)]، فقَال النبي ﷺ: «**بَلْ أَنْتِ، فَتَرِبَتْ يَمِينُكِ. نَعَمْ؛ فَلْتَغْتَسِلْ ـ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ـ إِذَا رَأَتْ ذَاكَ**»[(٤)].

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣١٣).

(٣) تربت يمينك أي: افتقرت وصارت على التراب، وهي من الألفاظ التي تطلق عند الزجر ولا يراد بها ظاهرها. «فتح الباري» (١/ ٢٧٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٣١٣).

تاسعاً: مشاركتهن في الجهاد:

وذلك في الظرف المناسب وبالطريقة المناسبة لهن، ولذا كانت مشاركتهن غالباً في الحروب القريبة من المدينة، مثل أحد والخندق.

١ ـ فعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ(١)، وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ(٢) عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لَا يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ حَصِيراً فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَاداً، ثُمَّ أَلْزَقَتْهُ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ(٣).

٢ ـ وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ القِرَبَ(٤)، وَقَالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ(٥).

٣ ـ وعنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى(٦).

---

(١) الرَّبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) هشمت البيضة على رأسه: الهشم: الكسر، والبيضة: الخوذة. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٦٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩١١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٤) خدم سوقهما: الخلاخل، وتنقزان: تنقلان. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٩٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٨١١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٨١٠).

٤ ـ وعن الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ: كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَنَسْقِي القَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ، وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ[(١)].

وهنا نلاحظ أن مشاركة النساء فيما يُحسنَّه، ففاطمة كانت تعالج جراحات النبي ﷺ، وعائشة وأم سليم تسقيان القوم بما تجلبانه من الماء في القِرَب، ونساء الأنصار يداوين الجرحى، وهي أعمالٌ تناسب المرأة وتليق لها، ولم تقحم في أعمالٍ قتالية ليست من لياقتها وشأنها.

عاشراً: حماية حقوق المرأة:

فأكد ﷺ حرمة حقها، وشدد في التعدي عليه أو انتقاصه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ**[(٢)] **حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمِ، وَالمَرْأَةِ**»[(٣)].

فمن حمايته ﷺ لحقوق المرأة:

١ ـ حماية حق المرأة في الإرث، فقد كانت المرأة تُحرَم من الميراث، ويستأثر به الرجال دونهن، فلما استشهد سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه بأُحُد، جاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ الله، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيداً، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، وَلَا تُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ. قَالَ: «**يَقْضِي الله فِي ذَلِكَ**». فَنَزَلَتْ: آيَةُ المِيرَاثِ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَمِّهِمَا، فَقَالَ: «**أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ**»[(٤)].

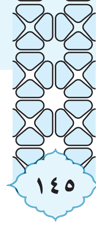
---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٨٣).

(٢) أُحَرِّجُ: أيْ أضَيّقُه وأُحرِّمُه عَلَى مَن ظلمهما. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٦١).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٣٦٧٨).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٠٩٢).



ولأهمية هذا الأمر وأولويته: حضر النبي ﷺ القسمة بنفسه، وتولى ذلك في دار سعد بن الربيع، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: خَرَجْتُ أُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ فِي مَسْجِدِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ، فَسَالتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: هُوَ بِالأَسْوَافِ عِنْدَ بَنَاتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ أَخِي بَلْحَارِثِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، يَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ أَبِيهِنَّ، وَكُنَّ أَوَّلَ نِسْوَةٍ وَرِثْنَ مِنْ أَبِيهِنَّ فِي الإِسْلَامِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ الأَسْوَافَ، وَهُوَ مَالُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي صُورٍ مِنْ نَخْلٍ، قَدْ رُشَّ لَهُ فَهُوَ فِيهِ. فَأُتِيَ بِغَدَاءٍ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ قَدْ صُنِعَ لَهُ، فَأَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَكَلَ القَوْمُ مَعَهُ. ثُمَّ بَالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ الله ﷺ لِلظُّهْرِ، وَتَوَضَّأَ القَوْمُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ الظُّهْرَ، ثُمَّ قَعَدَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ مَا بَقِيَ مِنْ قِسْمَتِهِ لَهُنَّ حَتَّى حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، وَفَرَغَ مِنْ أَمْرِهِ مِنْهُنَّ، فَرَدُّوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَضْلَ غَدَائِهِ مِنَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ فَأَكَلَ، وَأَكَلَ القَوْمُ مَعَهُ، ثُمَّ نَهَضَ، فَصَلَّى بِنَا[١].

فانظر كيف فرَّغ النبي ﷺ نفسه من بعد صلاة الظهر إلى ما بعد العصر، ليقسم مال سعد بن الربيع، ويحفظ حق ابنتيه وزوجته، وفي حضوره وتوليه القسمة بنفسه تأكيد لهذا الحق ورعايةٌ له، وبخاصة أنهن أول نسوة ورثن من أبيهن في الإسلام.

٢ ـ النهي عن عضل المرأة عن الرجل الذي ترغب في زواجه، فأعاد ﷺ قرار أمر الزواج إلى المرأة، وجعل الاعتبار لرأيها واختيارها، ونهى أن يعضلها وليها، فيحول بينها وبين من ترغب فيه لغير ما بأس.

فعَنْ الحَسَن البصري: أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ كَانَتْ أُخْتُهُ تَحْتَ رَجُلٍ، فَطَلَّقَهَا

(١) «مسند أحمد» (١٥٠٢٠).

ثُمَّ خَلَّى عَنْهَا، حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ خَطَبَهَا، فَحَمِيَ مَعْقِلٌ مِنْ ذَلِكَ أَنفاً، فَقَالَ: خَلَّى عَنْهَا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَخْطُبُهَا، فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الحَمِيَّةَ وَاسْتَقَادَ لِأَمْرِ اللهِ[1].

وفي ذلك حماية للمرأة من أن تكون ضحية الخصومات بين أوليائها وزوجها، وأن على الولي أن يتحرى مصلحتها، وليس رغبة نفسه.

وجاء تأكيده ﷺ على حقها في اختيار زوجها وشريك حياتها، فقال: «**لَا تُنْكَحُ البِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَلَا الثَّيِّبُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ**»[2].

حادي عشر: تعظيم قدر المرأة ودورها أُمّاً وزوجة وبنتاً وأختاً، والوصاة بها:

١- فجعل حقها أُمّاً أعلى حق وأوجبه وآكده، فلها من الحقوق الرتبة الأولى والثانية والثالثة، ثم يكون الأب بعدها، وهذه غاية التعظيم لحقها ومكانتها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**»[3].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٣١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤١٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨).

لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**»(١).

إن الحديث هنا عن حق المرأة أُمّاً ومربية، وما أوجب الله لها من حق، وما كتب لها من أجر.

٢- وله ﷺ حديثه عن المرأة بنتاً في طور الرعاية والإعالة بتعظيم هذه الرعاية لضعفها وحاجتها للتلطف بها:

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**»، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ(٢).

٣- وكذا أكد رعاية حق المرأة زوجةً وشريكةَ حياةٍ، وأوصى بالرفق بها والإحسان إليها:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»(٣).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»(٤).

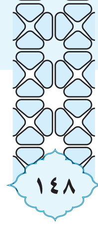
---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٣١)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧).



وعن مسؤولية المرأة زوجةً وراعية في بيت زوجها: ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[(١)].

وبين صلى الله عليه وآله وسلم شراكتها في الأجر إذا أنفقت من طعام بيتها، فقال: «**إِذَا أَنْفَقَتِ المَرْأَةُ مِن طَعَامِ بَيْتِهَا غيرَ مُفْسِدَةٍ، كانَ لَهَا أَجْرُهَا بما أَنْفَقَتْ، ولِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بما كَسَبَ، ولِلْخَازِنِ مِثْلُ ذلكَ، لا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شيئاً**»[(٢)].

وفي تحملها مسؤولية الرعاية، وإشراكها في أجر الإحسان من بيت زوجها، تأكيد لدورها، ورفع لمكانتها، وإشراك لها في الحياة الاجتماعية بفاعليةٍ واقتدار، بحيث صار دورها تكامليًّا مع دور الرجل.

ويظهر أثر تفعيل دور المرأة وإعلاء مكانتها في زخم الحضور النسائي في أحداث السيرة وروايات السنة، وتفاعلهن مع الأحداث ومشاركتهن فيها، ثم في رواية النساء للحديث، ومرجع الأمة إليهن، كأمهات المؤمنين، وأم عطية، وأم سليم، وأم حرام بنت ملحان، وغيرهن، وما كان ذلك ليتم لولا هذا الأفق الواسع الذي أتاحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمرأة، ليكون لها ذلك الدور وتلك المشاركة.

خلاصات:

كان التعامل النبوي مع المرأة نُقلة كبيرة في التعامل المجتمعي مع النساء، حيث كان التعامل السائد قبلاً يهضم كثيراً من حقوقها، وينتقص

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٠٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٣٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٤).

مكانتها، فجاء التعامل النبوي ليعيد للمرأة مكانتها، ويفعِّل دورها، ومن معالم ذلك:

١- مخالفة النبي ﷺ عادة قومه قريش في التعامل مع النساء، حيث لم يكونوا يرون للمرأة أمراً.

٢- إعطاؤه للمرأة دورها، وإشعارها بالمشاركة في العمل للدين، وتحمل مسؤوليتها في ذلك.

٣- إعطاء النساء الفرصة في التعبير عن آرائهنَّ، وتطبيع ذلك.

٤- استقبال مبادرات النساء، وتقبلها.

٥- تخصيص مجالس للنساء غير تلك التي يشاركن الرجال فيها.

٦- قربه من النساء للاستماع إليهن، وقضاء حوائجهن.

٧- تخصيصهن بأنواع من الخطاب الذي يباشر احتياجاتهن الخاصة.

٨- تحفيزهن للعلم، وحضهن عليه.

٩- مشاركتهن في الجهاد بما يناسب طبيعتهن.

١٠- حماية حقوقهن، وتأكيد حقهن.



الرَّسُولُ ﷺ والخدم

للخدم حضور في حياة النبي ﷺ بخدمته والعناية بشأنه، وله ﷺ حضوره في حياتهم عنايةً ورعايةً وبركةً، وحسن تعامل، وكرم خلق.

وعندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع الخدم، ننظر إليها عبر معالم منها:

أولاً: نلاحظ تنوع الخدم الذين كانوا حول النبي ﷺ، ففيهم الصغير مثل أنس، والكبير مثل ربيعة بن كعب الأسلمي، وعبد الله بن مسعود[١].

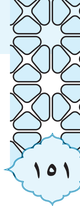
وفيهم الرجال كمن ذكرنا، والنساء مثل أم أيمن وبريرة.

وفيهم المسلم كهؤلاء كلهم، وفيهم غير المسلم، كالغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي ﷺ في بيته، واليهودية التي كانت تخدم عائشة.

ومع هذا التنوع نلاحظ أن هناك قاسماً مشتركاً يجمعهم جميعاً، وهو حبهم النبيَّ ﷺ، وتفانيهم في خدمته؛ فكانوا على تنوعهم أعماراً وجنساً وديناً مجتمعين على محبة هذا النبي والتشرف بخدمته.

---

(١) ينظر في تعداد من خدموا النبي ﷺ كتاب: «الفخر المتوالي فيمن خدم النبي ﷺ من الخدم والموالي»، للحافظ السخاوي، وقد ذكر السخاوي فيه نحواً من (٢١٥) ممن شرفوا بخدمة النبي ﷺ، وهؤلاء لم يكونوا يخدمون النبي ﷺ في وقت واحد؛ ولكن فيهم من خدم النبي ﷺ مدة طويلة، كأنس وابن مسعود، ومنهم من خدمه خدمةً عارضة أو مؤقتة.



وأكثر الذين خدموه ﷺ لم يكونوا خدماً بالمعنى الشائع، بل مِن أصحابه الذين يتشوقون لخدمته حباً وتعظيماً، ولذا نسب لخدمته الكبار والسادة من الصحابة رضي الله عنهم.

ثانياً: يأتينا تساؤل، وهو: إذا كان هؤلاء كلهم يخدمون النبي ﷺ، فما هي مهامهم في خدمته؛ خاصة إذا عرفنا أن بيوتاته ﷺ حجرات وبيوت صغيرة، متقاربة الجدر، متطامنة السقف، قليلة المتاع، إذ لم يكن ﷺ يسكن قصراً يحتاج هؤلاء الخدم كلهم؟!

ولعل الجواب: أن مهمة الخدم مع النبي ﷺ كانت أشبه بمهمة المراسل في زمننا هذا؛ لأن بيوت النبي ﷺ لصغرها لم تكن تحتمل الادخار الكثير، فكلُّ شيءٍ يُحتاج إليه يَتطلّب إحضارَه على نحوٍ مستمر ومتوالٍ يومياً، فيقوم بذلك الخدم، أي: فالخادم يحضر الحطب يوماً بيوم، ويحضر الماء يوماً بيوم، والطعام يوماً بيوم.

كما كان للخدم مهمة أخرى، وهي التواصل مع من يحتاج النبي ﷺ دعوتهم، فكان ﷺ يقول لأنس مثلاً: اذهب فادع أبا بكر، اذهب فادع عمر، اذهب فادع فلان، اذهب فأحضر كذا[١]، فهو كالمراسل في بيت النبي ﷺ.

ثالثاً: نرى تعامل النبي ﷺ معهم تعاملاً احتوى قلوبهم، واجتذب حبهم، وغمر عواطفهم، حتى كان أنس رضي الله عنه إذا ذكر النبي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، خدمته عشر سنين في السفر والحضر وأنا غلام ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه، والله ما قال لي:

---

(١) «صحيح مسلم» (١٤٢٨).

أُفٍّ قط، وما قال لشيء صنعتُه: لمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟[(١)]، وما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهله قال: «**دَعُوهُ، فَلَوْ قُدِّرَ أَوْ قُضِيَ أَنْ يَكُونَ كَانَ**»[(٢)]، فحتى إذا أخطأ لا يكون دور النبي ﷺ عتابه؛ بل الاعتذار له.

ولذا كان هؤلاء الأصحاب يخدمون النبي ﷺ بحبٍّ شديدٍ وتفانٍ عجيب.

فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هو صاحبَ نعل رسول الله ﷺ، فإذا خلع النبي ﷺ نعله، أخذها ابن مسعود فأدخلها في يديه؛ من شدة التعظيم للنبي ﷺ والحبّ له[(٣)].

وكان سفينة مولى رسول الله ﷺ يلقب بهذا الاسم؛ لأنه كان برفقة أصحابه، فحمل أكثر متاعهم، فقال له النبي ﷺ: «**احْمِلْ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ سَفِينَةٌ**». فكان إذا سئل عن اسمه قال: ما أنا بمخبركم، سماني رسول الله ﷺ سفينة، ولا أريد غير هذا الاسم[(٤)]!

فانظر تمسكه بهذا الاسم، مع أن النبي ﷺ قاله له على سبيل المداعبة والإيناس، فاختار الاسم الذي وصفه به النبي ﷺ على سبيل الملاطفة، ورآه أحبَّ الأسماء إليه؛ لشدة حبه من سماه به ﷺ.

وهذا ربيعة بن كعب الأسلمي يقول: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري كله، فإذا دخل النبي ﷺ بيته بعد صلاة العشاء تبعته فجلست عند عتبة بابه؛ لعله أن ينوبه شيء في الليل فأكون قريباً منه، حتى تغلبني عيني فأنام[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٤١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (٨٢٤).

(٤) «الاستيعاب» (٢/ ٦٨٥).

(٥) «مسند أحمد» (١٦٥٧٩).

فما الذي يحمل ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن يتبع خدمة النهار بخدمة الليل، وأن يغالب النوم في عينيه ترقباً لحاجة النبي ﷺ؛ إلا شدة الحب للنبي ﷺ والتلذذ بخدمته؟

رابعاً: من معالم تعامل النبي ﷺ مع الخدم: رعايته لهم، فكان ﷺ يراعي خدمه ويرعاهم رعاية الوالد لولده، ومن ذلك: ما حدثت به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أَمَرَنِي رَسُولُ الله أَنْ أَغْسِلَ وَجْهَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَوْماً وَهُوَ صَبِيٌّ، وَمَا وَلَدْتُ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُغْسَلُ الصِّبْيَانُ، فَآخُذُهُ فَأَغْسِلُهُ غَسْلاً لَيْسَ بِذَاكَ، فَأَخَذَهُ فَجَعَلَ يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «**لَقَدْ أُحْسِنَ بِنَا إِذْ لَمْ تَكُ جَارِيَةً، وَلَوْ كُنْتَ جَارِيَةً لَحَلَّيْتُكَ وَأَعْطَيْتُكَ**»[(١)]، فتولى هو ﷺ غسلَ وجه أسامة الغسلَ المُنقي الذي تطيب له نفسه، كما يفعل الوالد بولده.

ومن رعايته لهم زيارتهم في بيوتهم، وكم زار النبي ﷺ أنساً وأمَّه، وصلى في بيتهم.

ومن رعايته: الدعاء لهم، يقول أنس: دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «**اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَه وَوَلَدَه، وَأَطِلْ عُمُرَهُ**». فإنني اليوم لأكثر الأنصار مالاً، وإني لأكثرهم ولداً، حتى إنه يبلغ عدد ولدي أكثر من مئة[(٢)]. وأطال الله عمر أنس، فتجاوز التسعين من عمره.

وهذا ربيعة بن كعب الأسلمي قال له النبي ﷺ لمّا رأى شدة حبه له وخدمته: «**يَا رَبِيعَةُ! سَلْنِي مَا شِئْتَ**». قال: أمهلني يا رسول الله حتى أفكر في أمري. يقول ربيعة: فتفكرت فوجدت أن أحسن شيء أطلبه أن يدعو

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٤٤٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨١).

لي بالجنة، فأتيته فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا رَبِيعَةُ؟**». فقلت: هو ذاك يا رسول الله، قال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(١).

ومن ذلك: عيادته لخادمه الغلام اليهودي، عندما علم بمرضه فذهب إليه ﷺ، وعاده في بيته، وجلس عند رأسه، ثم عرض عليه الإسلام فأسلم، فخرج النبي ﷺ يطفر الفرح في وجهه، وهو يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»(٢).

خامساً: كانت رعايته لهم تتبعهم أحياء وأمواتاً، فعندما فَقَدَ الأمة السوداء التي كانت تكنس المسجد سأل عنها، فقالوا: ماتت. فقال: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي، دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**». فذهب إلى قبرها فصلى عليها ودعا لها، وقال: «**إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(٣).

إن هذه المرأة التي يذهب النبي ﷺ إلى قبرها أَمَةٌ مهاجرةٌ لا قرابة لها ولا قبيلة في المدينة؛ ولكن النبي ﷺ يحتفي بها، ويسأل عنها، ويذهب إلى قبرها فيصلي عليه.

إن هذه المرأة الأمة السوداء الخادمة، هي في ميزان النبي ﷺ إنسان له كرامته، ومسلم له كل حقوق المسلمين، وإن كانت في ميزان غيره مجرد خادمة أو شيء من الأشياء.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (٩٥٦).

سادساً: برغم شدة الحب للنبي ﷺ والمهابة منه، إلا أنه لم يكن لدى الخدم رهبة أو خوف في معاملتهم معه ﷺ، بل كانوا يتصرفون بتلقائيتهم وكامل إرادتهم، يقول أنس: أرسلني النبي ﷺ يوماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أَمُرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فقمت ألعب معهم، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «**يَا أُنَيْسُ! أَذَهَبتَ حَيثُ أَمَرْتُكَ؟**». فقلت: أذهب يا رسول الله[(١)].

وهذه بريرة عندما عتقت أبت صحبةَ زوجها مغيثٍ، فجاء إلى النبي ﷺ يستشفع به، فكلمها فيه، فقالت: يا رسول الله؛ أتأمرني؟ قال: «**لَا؛ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**». قالت: لا حاجة لي فيه[(٢)]. هكذا اتخذت قرارها دون أن ترى من النبي ﷺ عتاباً؛ فضلاً أن تخاف عقاباً.

لقد كان الخدم مع النبي ﷺ يعيشون إنسانيتهم كاملة، ويستوفون حقوقهم كاملة.

سابعاً: وكان في احتفاف الذين يخدمونه وملازمتهم له اطلاعٌ على بعض شأنه الذي لا يُدرَك إلا ممن كان يخدمه ويلازمه، ولذا وعوا ورووا من سنته ما لم يروه غيرهم، ويظهر هذا في سعة رواية أنس وابن مسعود عنه، واطلاعهم على ما لم يطلع عليه غيرهم، ومن ذلك: رواية أنس لحال النبي لما ذهب إلى الخياط الذي دعاه، فلم يذهب معه إلا أنس، فشهد الحال ووعاها ورواها[(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٢٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).

وحديث ابن مسعود في قيامه معه في صلاة الليل، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَطَالَ القِيَامَ، حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ، قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وأدعه(١).

ومن ذلك: حديث ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ بَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُعْطِيهِ وَضُوءَهُ، فَأَسْمَعُهُ الهَوِيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «**سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ**». وَأَسْمَعُهُ الهَوِيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»(٢). فكان سماعه لتسبيح النبي ﷺ من الليل؛ لقربه منه، وملازمته له.

ثامناً: بقي أن تعرف أن هذا النبي الذي كان كل من حوله حريصاً على خدمته، كان هو ﷺ يخدم نفسه، ويخصِف(٣) نعله، ويحلِبُ شاته، ويخيط ثوبه، ويقوم بشأنه مما يمكن أن يقوم به الخدم عنه؛ لكنه التواضع النبوي العظيم، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والرسول العظيم.

خلاصات:

١- تنوع الخدم حول النبي ﷺ رجالاً ونساءً، وصغاراً وكباراً، ومسلمين ويهود.

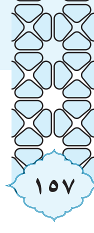
٢- كان الذين تشرفوا بخدمة النبي ﷺ عدداً كثيراً؛ ولكنهم لم يكونوا مجتمعين في وقت واحدٍ، بل منهم من كانت خدمته عارضة أو مؤقتة، ومنهم من كانت ملازمته طويلة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٤١٦).

(٣) الخصف هو: ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧).



٣- كان عمل الخادم أشبه بالمراسل، فيحضر ما يحتاج إلى إحضاره، ويدعو من يحتاج إلى حضوره.

٤- كان تعامل النبي ﷺ معهم غاية في حسن الخلق؛ حتى أحبوه وتعلقوا به.

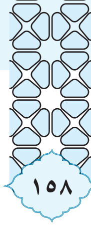
٥- كان قربهم من النبي ﷺ واحتفافهم به، من أسباب الإحاطة بأحواله، ولذا رووا من أحواله ما لا يطلع عليه إلا من كان له خصوصية ومخالطة.

٦- وكان يرعاهم ويزورهم ويدعو لهم، وتبعتهم رعايته أحياء وأمواتاً.

٧- لم تكن محبتهم للنبي ﷺ مصحوبة برهبة أو خوف، وكانوا يتصرفون بكامل إرادتهم وقناعتهم.

٨- مع وجود الخدم حوله ﷺ إلا أنه كان يخدم نفسه، فيخصف نعله، ويحلب شاته، ويخيط ثوبه.





الرَّسُولُ ﷺ والأطفال

١ ـ كان رسول الله ﷺ يتلقى الأطفال في أول طريق الحياة فيأتيه أهل المدينة بأطفالهم رُضَّعاً، لما يعلمون من حفاوته بهم، ولما يبتغون من بركة دعواته وأنفاسه، فيتلقاهم بحُبٍّ، ويضعهم في حِجره؛ يصف أنس هذا المشهد وقد جاء بأخيه عبد الله وليداً للتو، قد أرسلته أمه ومعه تمرات؛ قال: قَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ[١]، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «**لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ المِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِهِ، قال: «**أَمَعَهُ شَيْءٌ؟**». قلتُ: نعم، تمرات، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلَاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ**». قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ الله[٢].

وعندما نتأمل هذا المشهد، نلاحظ أن أنساً أتى النبي ﷺ وهو منشغل،

(١) مِيسم: آلة الوسم، أي: لَحَدِيدَةُ الَّتِي يُكْوَى بِهَا. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٦٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).

فلم يقل له: ائتني به في وقت آخر، أو: انتظر حتى أفرغ من عملي، ولكن ترك العمل وأقبل على أنس، وأخذ الصبي فوضعه في حجره.

ثم سأل: هل أرسلت أمُّه معه بشيء؟ وكأنما كان يتوقع ذلك، ثم لما حنَّكه جعل يراقب حركة الطفل، فلما لعق التمر قال: «**انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ**»!

إن هذه الملاطفة تبين سرور النبي ﷺ وتفاعله مع الموقف بأُنْسٍ، وأنه كان مستمتعاً بهذه الحال، ولم يكن متعجلاً، مع أنه قد ترك شغله، بل كأنما قد فرغ من شأنه كله لاستقبال هذا الرضيع في ساعته الأولى من الحياة.

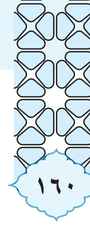
وإذا كان أنس قد نقل لنا المشهد بتفاصيله، فإنه سينقله لأمه أكثر تفصيلاً وتفاعلاً، ولك أن تتخيل أمَّ سليم وأَنسٌ يروي لها حال النبي ﷺ وحفاوته وما قال، وملاطفته للأنصار بحب التمر حتى للطفل الرضيع منهم؛ كيف سيكون شعورها وسرورها بذلك؟ وكيف سيكون شعور وسرور أبيه أبي طلحة؟

ما أروع هذه التفاصيل الصغيرة التي تحيط بالمشهد، وتشكل لوحة متكاملة الصورة، باهرة الجمال!

وجاءه أبو أسيد بابنه المنذر، فَوَضَعَهُ النبي ﷺ عَلَى فَخِذِهِ، وَأَبُو أُسَيْدٍ جَالِسٌ، فَشُغل رَسُولُ الله ﷺ بِشَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَمَرَ أَبُو أُسَيْدٍ بِابْنِهِ فَاحْتُمِلَ مِنْ فَخِذِ النَّبِيِّ ﷺ، فلما فرغ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**أَيْنَ الصَّبِيُّ؟**». فَقَالَ أَبُو أُسَيْدٍ: قَلَبْنَاهُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**مَا اسْمُهُ؟**». قَالَ: فُلَانٌ، قَالَ: «**وَلَكِنْ أَسْمِهِ المُنْذِرَ**»، فَسَمَّاهُ يَوْمَئِذٍ المُنْذِرَ[١].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٨).



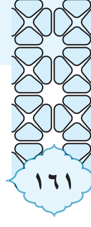
فانظر سؤاله عن الصبي حين فرغ من شغله؟ وكيف وقع هذا السؤال على والد الصبي، والذي يشعره باهتمام النبي ﷺ به، وأنه لازال له به حاجة.

وربما وُضِعَ الصبيُّ في حجر النبي ﷺ فيبول على ثيابه، فلا ينزعج ولا يتضجر، وإنما يدعو بماء فينثره على ما أصاب ثوبه من بول الصبي، ويقدم درساً عملياً مع هذه الحالة التي تعرض لكل من يتعامل مع الأطفال، من غير أن يُشعر والدي الطفل بحرج من هذا المشهد، وإنما كان في غاية التفهم لهذه الحال المتوقعة والتقبل لها؛ فعَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ: أَنَّهَا أَتَتْ بِابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ، لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَنَضَحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ[(١)].

ولقد ذكرت أم قيس ما فعله النبي ﷺ، ولم تتحرج أو تشعر بانزعاج النبي ﷺ أو مفاجأته بذلك؛ لأنه تعامل مع الموقف بأريحية ولياقةٍ وعظمةِ خلق.

٢- فإذا كبر الأطفال قليلاً وصاروا يتفاعلون ويدركون تفاعل النبي ﷺ معهم، تدلى إلى مداركهم ملاطفة ومؤانسة، فنزل بهمه إلى همومهم، قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان يدخل علينا فيضاحك أخاً لي فَطِيم ـ أي في الثالثة من عمره ـ فدخل يوماً فرأى الصبي واجماً حزيناً، فسأل أمه: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؛ مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيرٍ خَاثِرَ النَّفْسِ**[(٢)]**؟**».
قالت: مات نُغَيرُه ـ وهو طائر كان يلعب به ـ فأقبل النبي ﷺ على الطفل وجعل يضاحكه، ويقول: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[(٣)].

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧).
(٢) أي: ثَقيل النَّفْس غَيْرُ طَيِّب وَلاَ نَشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).
(٣) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).



أي: أخبرني كيف مات طائرك؛ حتى يؤنس الطفل بسؤاله عما يحزنه، فيتفاعل الصبي ويروي خبر الطير وقصة موته، ثم يتفاعل ويبكي، والنبي ﷺ يفسح من همومه لهمه، ويقبل عليه باهتمام.

وكلَّما تخيلت هذا المشهد سألت: بأيِّ عينٍ كانت أم الصبي تنظر إلى هذا الحوار النبوي مع بُنَيِّها الطفل الصغير، والنبي ﷺ ينشغل به هذا التشاغل، ويشاركه همه وحزنه؟!

ومن ذلك: ما رواه أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة، ويقول: «**يَا زُوَيْنِبُ، يَا زُوَيْنِبُ**»، مراراً[١].

وهذا التصغير هو تصغير التمليح والتلطيف، مبالغةً في إيناس الطفلة وملاطفتها.

ومن ذلك: ما رواه محمود بن الربيع قال: إِنِّي أَعْقِلُ مَجَّةً مَجَّهَا[٢] رَسُولُ الله ﷺ فِي وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ، مِنْ دَلْوٍ فِي دَارِنَا[٣].

إن هذه الصورة التي نقلها محمود من ذاكرة طفولته الباكرة، تحف بها صورة لم تنقل؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يفجأ طفلاً غافلاً بمجة في وجهه يفجعه بها؛ ولكن كامل الصورة تدل على أنه كان يضاحكه ويؤانسه، فتطور هذا المزاح إلى أن مجَّ في وجهه مَجّة من ماء البئر، زادت في أُنْس الصبيّ وتفاعله، وأبقى المشهد خالداً في ذاكرته.

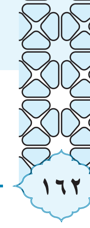
إنه مشهد من عظمة الخلق النبوي، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) «الأحاديث المختارة» (١٧٣٣).

(٢) المجّ: طرحُ الماء من الفم. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٧)، و«صحيح مسلم» (٣٣).



٣- وكان ينثر حياته في حياة الأطفال، فيكون مروره بهم مروراً حاضراً وليس عابراً، يقول سَمُرة بن جندب: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ صَلَاةَ الأُولَى[١]، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ رِيحاً، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[٢].

وتأمل قول سمُرة: فاستقبله وِلْدانٌ؛ إنه إشعار بابتهاج الأطفال بالنبي ﷺ، فيتلقونه في الطريق ويأنسون بملاطفته، ويتلقون منه الحنان، يناولهم إياه بكلتا يديه حين يمسح وجوههم واحداً واحداً، فينقلبون إلى أهليهم وأحدوثتهم لقيا رسول الله لهم وتلطفه بهم.

٤- وكان يعلمهم الآداب وجوامع الدين بما يستوعبه إدراكهم ووعيهم؛ فعن عمر بن أبي سلمة قال: كُنْتُ غُلَاماً فِي حَجْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[٣].

ولاحظ أنه جاء بغاية الرفق، وجاء بضميمة من التوجيهات بحيث لا يظهر فيها العتاب على تصرف من عمر، وجعل التنبيه على فعله في آخر التوجيهات: «**وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**».

وكان من أثر هذا التلطُّف في التعليم: أن تشربت نفس الطفل هذه التعاليم، فاستصحبها بقية عمره: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

---

(١) أي الأولى من العشي، وهي الظهر. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٥/ ٨٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).

ومن ذلك: ما حدَّث به ابن عباس قال: كُنْتُ رديفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْماً فَقَالَ: «**يا بُنَيّ! ألا أعَلِّمُك كَلِمَاتٍ يَنْفُعَكَ اللهُ بِهِنَّ؟**». قلت: بلى، فقال: «**احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سأَلتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً**»[١].

وهنا نجد استغلال النبي ﷺ لَحظةَ القرب وهي كون الطفل رديفه على الدابة، وهي مما يشعر بالخصوصية ويهيئ للتلقِّي، ثم النداء الأبوي: «**يا بُنَيّ**». ثم طرح السؤال التشويقي: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟**». ثم ذكر له كلمات جوامع هي من قواعد الدين! وكل ذلك من الاحتفاء بالأطفال، والارتفاع بمستواهم، ولذا حفظ ابن عباس هذه الوصاة ووعاها، ورواها محفوفة بهذا المشهد البليغ المؤثر.

ومن ذلك: حديث الحسن بن علي الذي توفي النبي ﷺ وهو طفل، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[٢].

فقوله: حفظتُ، دالّ على إرادة النبي ﷺ حفظَه لهذه الكلمة البليغة الجامعة، ولذا وعاها وحفظها ورواها.

٥- وكان يتعامل معهم باعتبار لأشخاصهم وشخصياتهم، فإذا مرَّ بهم

(١) «جامع الترمذي» (٢٥١٦).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).

في الطريق ابتدأهم بالسلام.

مرَّ أنسٌ بصبيان فسلَّم عليهم وقال: مرَّ النبي ﷺ على غلمان فسلَّم عليهم[١].

فانظر إلى أثر فعل النبي ﷺ في نفوس هؤلاء الغلمان، وأحسب أنساً كان منهم، حيث بقي المشهد حاضراً في نفوسهم، ومؤثراً بالاقتداء به، فإذا أنس يقتدي بالنبي ﷺ ويطبق هديه.

٦- وكان ﷺ يحافظ على نقائهم الأخلاقي، وعلى المصداقية في التعامل معهم، قال عامر بن ربيعة: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْماً وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟**». قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْراً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئاً كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**»[٢].

وبذا يحافظ على الاستقامة الأخلاقية منذ الطفولة، ويصحح ما يتساهل به الآباء والأمهات من التحايل على الأطفال، مما يفقد الصدق قيمته وأهميته في نفوسهم.

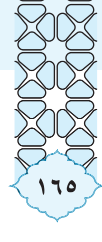
٧- وكما كان للصبية حظهم من الحفاوة والرعاية النبوية، فقد كان للبنيات حظهن من الإقبال النبوي والود والرحمة.

قال أنس بن مالك: مرَّ النبي ﷺ ببعض المدينة، فإذا بِجَوَارٍ يضربْنَ بدُفِّهِنَّ ويتغنين ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

(١) «صحيح مسلم» (٢١٦٨).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٩١).



فأقبل عليهن ﷺ وهو يقول: «**يَعْلَمُ اللهُ إِنِّي لَأُحِبُّكُنَّ**»[(١)].

ما أسعد هاتِه الفتياتِ الصغيراتِ وهن يَرَيْنَ النبي ﷺ يحتفي بلهوهنَّ، ويتعاطى الحبَّ معهن، ويشعرهن بالأبوة والقرب!

وثَمّ مشهدٌ نبويٌّ أبويٌّ لا ينقضي منه العجب، يجمع شواهد من فنون التعامل مع الأنوثة في طفولتها، ومع الطفولة في أنوثتها؛ إنه مشهد النبي ﷺ مع طفلة في نحو الرابعة من عمرها، هي أم خالد واسمها أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص، وكان من خبرها: أن رسول الله ﷺ كان يقسم ثياباً على أصحابه، فبقي بين يديه كساء صغيرٌ مُخطَّطٌ بأعلام صفراء وخضراء وحمراء، وكان الكساء جميلاً زاهياً علقت به الأعين، وإذا رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «**مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟**». فسكت الصحابة رضي الله عنهم إكراماً لرأي رسول الله ﷺ، وانطلقت في الأذهان أسئلة وتساؤلات: مَن التي سيؤثرها رسول الله ﷺ بهذا الكساء؟ ومَن الذي سيختاره له؟!

فقال ﷺ: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**». فذهب الداعي إلى أبيها يخبره أن رسول الله ﷺ يدعو بُنَيَّته، فجاء بها أبوها يحملها بين يديه، حتى وضعها بين يدي النبي ﷺ، فأقبل عليها النبي ﷺ ينشر الخميصة، ثم يُلبِسُها إيَّاها بيديه الكريمتين، حتى إذا احتوى الكساء جسدها الصغير، والتمعت في عينيها فرحة الطفولة بالجديد، جعل النبي ﷺ يشاركها فرحتها، ويتفاعل مع بهجتها، فيرفع بيده الشريفة أعلام الثوب الملونة، ثم يتطامن بهمَّه إلى همِّها، وبلهجته إلى لهجتها، ويلثغ بلسانه كما تلثغ بلسانها قائلاً: «**يَا أُمَّ**

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).

خَالِدٍ سَنَا»(١). أي: هذا جميل وحسن؛ بلغة الحبشية التي تعلمتها أم خالد حيث وُلدت!

ثم عقَّب النبي ﷺ على ذلك يدعو ويكرِّر لها الدعاء: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي**».

وأَلِفت الطفلة رسول الله ﷺ وأَنِست به، فجعلت تتحسَّس بيدها الصغيرة ما يلفتها في الجسد النبوي المبارك، وكان مما لفت انتباهها خاتم النبوة بين كتفيه، فذهبت تلعب به، وتتحسَّسه بأصابعها، فنهرها أبوها على لعبها هذا؛ إجلالاً لرسول الله ﷺ، وإذا العطف النبوي يغلب العطف الأبوي، فيُقْبِل عليه النبي ﷺ قائلاً: «**دَعْهَا**»!

فلتعبث الطفلة ما شاءت أن تعبث، ولتلعب ما شاءت أن تلعب، فثَمَّ رسول الله ﷺ، وثَمَّة الرحمة واللين والأبوة.

وتكبُر أم خالد رضي الله عنها، وتكبر في قلبها معاني هذا الموقف وذكراه الحسنة، فتتمسك بالأثر الباقي من هذا الحدث، وتحفظ الكساء حتى حالت ألوانه، ودكنت أعلامه، فهو يحفظ لها بركة كَفَّي رسول الله ﷺ، وروعة ذلك اللقاء(٢).

لقد كان يمكن أن يكتفي ﷺ بإرسال الخميصة إلى أم خالد؛ ولكنه باشر هذا الأمر بنفسه، وبكل تفاصيله؛ ليكون هذا العمل -وهو إسعاد هذه الطفلة، وإدخال السرور إليها- سُنّة نبوية تُقتفى، وأُسوة حسنة لمَن كان

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٥٨١١)، و«صحيح البخاري» (٣٠٧١، ٥٨٢٣)، و«سنن أبي داود» (٤٠٢٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٧٠)، و«الإصابة» (٧/ ٥٠٦)، و«فتح الباري» (٦/ ١٨٤)، (١٠/ ٢٧٩).

يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً؛ ولذا فإنك واجدٌ لهذه اللفتة الجميلة في سيرة النبي ﷺ أخوات كُثُراً تشبهها، تُوالي تأكيد هذه السنة، وتُعيد معاني هذا المشهد.

وانظر إلى البراعة النبوية في تحويل الفعل الجميل إلى باقة من الأفعال الجميلة المعبرة، بدأها ﷺ بطَرح التساؤل لمَن يعطى الكساء؛ مما يوحي بالأهمية والانتقاء، ولذا تحوَّل الكساء إلى وسام شرف.

ثم طلبها ﷺ لتحظى باستلامه منه، ولم يرسله إليها.

ثم تولَّى ﷺ بنفسه إلباسها الكساء.

ثم أتبع ذلك بمؤانستها وملاطفتها، ومشاركتها فرحتها الطفولية.

ثم الدعاءِ لها، وتكرار ذلك الدعاء.

ثم إدنائها وتقريبها حتى لامست جسده، ولعبت بما يلفت اهتمامها منه، ثم تقريره لذلك بقوله لأبيها: «**دَعْها**»!

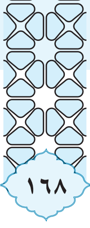
إنه درس نبوي يبين أن صنائع المعروف كما هي كرم وأريحية، فهي فنٌّ وحُسْن أداء.

إنه المنهج النبوي الكريم في التعامل مع الطفولة في مظاهر:

أ - الحفاوة والإيناس والملاطفة والإسعاد.

ب - القُرب والتآلف مع الطفولة، بحيث تدنو وتقرب؛ حتى تلاعب اليدُ الصغيرة الجسدَ النبويَّ الكريم.

ج - الرفق والبعد عن النهر والجفاء: «**دَعْها**».



إنها اللفتات النبوية الكريمة التي تراعي أخص مشاعر الطفولة، وتوليها هذه العناية والاحتفال[١].

خلاصات:

١- كان ﷺ يتلقّى الأطفال في أول طريق الحياة، فيأتيه أصحابه بأطفالهم رضعاً يُحَنّكهم ويدعو لهم.

٢- كان يتفاعل مع الأطفال، ويتدلى بهمومه إلى همومهم وهو يلاطفهم ويؤانسهم.

٣- كان ينثر حياته في حياة الأطفال، فيعقلون عنه سلامه عليهم، ومسحه وجوههم.

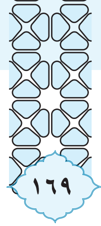
٤- كان يتعاهدهم بتعليم الآداب والقيم، وحفظ جوامع الكلم.

٥- كان يحافظ على نقائهم الأخلاقي، وعلى مراعاة القيم في التعامل معهم.

٦- كان للبنيات نصيبهن من الحفاوة والملاطفة والإيناس، ومشاعر المحبة والوداد.



(١) باختصار من كتاب «**قصص نبوية**» للمؤلف.



الرَّسُولُ ﷺ والشَّبَاب

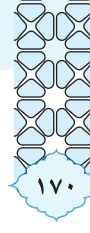
عندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع الشباب، نرى معالم لعلاقته معهم؛ منها:

١- الاندماج بينه وبين الشباب، بحيث إنه ﷺ حطم حواجز الأجيال، وأوجد تواصلاً بينهم وبين الأجيال التي قبلهم، فأصبح الشباب يعيشون مع مَن هم أكبر منهم في حال تمازج.

نلاحظ هذا في جلوس ابن عباس وعمره اثنتا عشرة سنة عن يمين النبي ﷺ، وكان عن يساره ﷺ أشياخ من قريش، فأُتي ﷺ بقدح فشرب منه، ثم قال لابن عباس: «**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ أَعْمَامَكَ؟**». يعني: الأشياخ الذين على يساره، فقال ابن عباس بألمعية وذكاء ووثوق: لا أؤثر بفضلة رسول الله ﷺ أحداً، فأعطاه إياه[1].

لاحظ كيف تربى ابن عباس بين يدي النبي ﷺ على مجالسته ﷺ والأشياخ حوله! وكيف تكونت عنده على حداثة سنه هذه الاستقلالية والثقة في الرأي والقرار، وهذا الوعي والشعور بأهمية سؤر النبي ﷺ، وأنه شيء شريف لا يُؤثِر به أحداً!

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٠).



وإذا نظرت إلى بقية الصحابة من الشباب، تجد امتزاج حياتهم بحياة النبي ﷺ، فهذا كان راكباً مع الرسول، وهذا كان ردف النبي، وهذا كان مع النبي؛ يقول معاذ: كنت ردف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل. ولك أن تتخيل معاذاً رضي الله عنه وهو شاب في عشرينات عمره مع الرسول ﷺ على الحمار، صدره ملتصق بظهر النبي ﷺ، ويداه تطوقان جنبي النبي ﷺ، فأيُّ قرب أقرب! ثم يناديه ﷺ مع قربه هذا باسمه كاملاً، فيقول: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله، فيسكت النبي ﷺ شيئاً، ثم يقول: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله. ثم يسكت ﷺ شيئاً، ثم يقول: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله! فيقول: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟..**» الحديث[١].

إن هذا القرب، وهذا الحوار، وهذا الإيثار بالمعلومة، وإيناس الرشد في الشاب ليعلمه معلومة يخصه بها، لا يصلح نشرها حتى لا يساء فهمها؛ كلّ ذلك يبين أيَّ مكانة كانت عنده للشباب، فيها الحب والقرب والثقة.

وفي حجة الوداع عندما كان ﷺ في عرفة، وتضيفت الشمس للمغيب وهو ﷺ على ناقته والناس حوله، وإذا به يقول لأصحابه: «**ادْعُوا لِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ**»[٢]، فضجت عرفة تنادي: يا أسامة بن زيد! يا أسامة بن زيد! هلمَّ إلى رسول الله، وجعل زعماء الأعراب ينظرون من هو أسامة بن زيد هذا الذي استدعاه النبي ﷺ في هذا الوقت الضيق قبيل الانصراف، وخصه بهذا النداء والانتظار؟! وكأنما تخيلوه شيخاً كبيراً ذا لحية بيضاء،

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٦٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٠).

فبينما هم كذلك إذْ جاء شابٌّ أسودُ في الثامنة عشرة من عمره، فتوثب ناقة النبي ﷺ وجلس خلفه والتزمه، فقال الأعراب باستغراب: أهذا الذي حبسنا ابتغاؤه؟ هل كنا ننتظر هذا الشاب الصغير؟

ولذا نجد أكثر الذين كان النبي ﷺ يُردفُهم معه هم الشباب، كعبد الله ابن عباس، والفضل بن عباس، ومعاذ بن جبل، وأسامة بن زيد، وسلمة بن الأكوع، والإرداف حالة قُرْبٍ واختصاص.

لقد كان النبي ﷺ يُحْكِم العلاقةَ، ويُحسنُ التمازج مع أجيال الشباب، ولذلك اختار شابّاً ليكون ردفه من عرفة إلى مزدلفة، لقد كان في حياة النبي ﷺ تمازج مع الشباب، وتحطيم لفوارق الأجيال.

٢- وكان يربي الشباب على معاني الإيمان والقيم قبل أن يلقنهم إياها علماً، فيربيهم على تعظيم الله ومحبته وإجلاله ومخافته، وعلى قيم الخير وأخلاقه، فإذا تعلموا القرآن لاقى في قلوبهم أرضاً خصبة تتقبل غيثه، وتتفاعل معه، وتنشأ عليه.

قال جندب بن عبد الله: كنا مع النبي ﷺ فتيانٌ حَزَاوِرَةٌ[١]، فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ القُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا القُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَاناً[٢].

وقال ابن عمر: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلاَلَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا، كَمَا تَعَلَّمُون أَنْتُمُ القُرْآنَ[٣].

---

(١) حزاورة: جَمْع حَزْوَرٍ وحَزَوَّرٍ، وَهُوَ الَّذِي قَارَبَ البُلُوغَ، وَالتَّاءُ لِتأنيث الجَمْعِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٦١).

(٣) «المستدرك» (١٠١).

فكانوا يأخذون عن الرسولِ القرآن بلفظه ومعناه، ويأخذون عنه المعاني مجردة عن ألفاظه بألفاظ أُخر يتعلمونها منه ﷺ، فكان يعلمهم الإيمان، وهو المعاني التي نزل بها القرآن من المأمور به والمخبَر عنه، المتلقى بالطاعة والتصديق، ثم يحفظونها من القرآن[١].

وقال عبد الله بن عمر: رأيت وأنا غلام حديث السن رؤيا، فقصصتها على أختي حفصة، فقصَّتها على رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّ عَبْدَ اللهِ رَجُلٌ صَالِحٌ. نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**». فلم يزل عبد الله بعد ذلك يكثر الصلاة، حتى كان لا ينام من الليل إلا قليلاً[٢].

فانظر إلى هذا التحفيز النبوي للشباب على العبادة، ثم انظر إلى أثره على الشاب عبد الله بن عمر، حيث تأثر بذلك، فعاش بقية عمره محافظاً على قيام الليل، حتى قال مولاه نافع: ما كان عبد الله ينام من الليل إلا قليلاً؛ وذلك من أثر هذا التوجيه النبوي الرفيق له إبّان شبابه.

٣- كما نلاحظ أن النبي ﷺ كان يغدق على الشباب بفيض غامر من المشاعر والعواطف؛ لأن الشباب أكثر تذوقاً للمشاعر وتفاعلاً معها، فنراه ﷺ يمسك بيد الشاب معاذ بن جبل، فيجعل يده في يده، ثم يقول: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!**» قال: لبيك يا رسول الله. قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ..**» الحديث[٣].

ولك أن تتخيل مشاعر معاذ بن جبل وخفقات قلبه حين كانت يده في يد النبي ﷺ، ووجه النبي ﷺ يشع في وجهه، ثم تذرف من بين شفتي

---

(١) ينظر: «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيمية (١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢١، ٣٧٤٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).

(٣) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).

النبي ﷺ كلمات الحب العذبة الجميلة، ولذلك طفر قلب معاذ وهو يسمع ذلك، وقال: وأنا والله يا رسول الله، والذي نفسي بيده؛ إني لأحبك.

ويقول عبد الله بن مسعود: علمني رسول الله ﷺ التشهد، وكَفِّي بين كَفَّيْه[(١)].

لقد أخذ النبي ﷺ يده وأطبق عليها بين يديه، ثم جعل يعلمه التشهد؛ إنها لمسة عاطفية معبرة يتم التعامل فيها بحب وموادة، ولذلك حفظ عبد الله بن مسعود التشهد وعلَّمه لأمة محمد ﷺ، فأمة محمدٍ ﷺ يتشهدون في صلاتهم بهذا التشهد الذي حفظه ابن مسعود وكفه بين كفي رسول الله ﷺ.

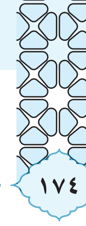
وهذا الشاب عبد الله بن عمر.. يأتي إليه النبي ﷺ فيضع يديه على منكبيه! ولك أن تتخيل عبد الله بن عمر شاباً دون العشرين من عمره، والنبي قد وضع يديه على منكبيه.. إنها لحظة قربٍ، ولمسة حبٍّ، ثم يقول له: «**يَا عَبْدَ اللهِ! كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[(٢)]، لاحظ عذوبة الوصاة تُقَدّم في هذا الوعاء المشاعري الجميل!

٤- كان ﷺ يتفهَّم رغائب الشباب ومشاعرهم، ففي حجة الوداع كان مردفاً على راحلته الفضل بن العباس، وكان شاباً وسيماً حسن الشعر، فأتت فتاة جميلة تسأل النبي ﷺ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فلوى النبي ﷺ عنق الفضل عنها، فأخرج الفضل عنقه من الجهة الأخرى؛ ولكنه مع ذلك لم يعنفه النبي ﷺ ولم يُقَرعه، ولم يشتد عليه،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤١٦).



بل الأعجب أنه لم يوبخ هذه الفتاة لأنها لا تحتمل ذلك، فوعظها بطريقة غير مباشرة، وهي وعظ الفضل برفق[(١)].

ومن تفهمه لرغائب الشباب: ما رواه مالك بن الحويرث قال: قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً بنا؛ فلما رأى أنا قد اشتقنا إلى أهلنا سألنا عنهم فأخبرناه، فقال: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ**»[(٢)].

لقد لاحظ النبي ﷺ شوق الشباب إلى زوجاتهم، وفهم قوة الرغبة الدافعة لذلك، ولذا أمرهم باللحوق بهم، وانظر كيف أدركوا أن هذا من رحمته بهم ومعرفته بشوقهم.

ولتفهُّم النبي ﷺ لرغبات الشباب.. كان الشباب يبوحون له برغائبهم..؛ يأتي إليه شاب فيقول: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا!! فما وبّخه ولا نهره، وإنما قال: «**ادْنُه**». فدنا الشاب حتى صار بين يديه، فقال له: «**أَتَرْضَاهُ لِأُمِّكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِأُخْتِكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِعَمَّتِكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِخَالَتِكَ؟**». قال: لا والذي بعثك بالحق. قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ؛ لَا يَرْضَونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، وَلَا لِأُمَّهَاتِهِمْ، وَلَا لِأَخَوَاتِهِمْ**». ثم وضع النبي ﷺ يدَه على صدر هذا الشاب، حتى وجد هذا الشاب برد يد النبي على صدره، ثم قال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»[(٣)].

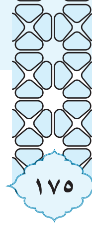
٥- كان ﷺ يثق بالشباب ويشعرهم بالثقة، ولا يستهين بقدراتهم،

---

(١) «صحيح البخاري» (١٥١٣). و«صحيح مسلم» (١٣٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٢١١).



ولا يهمش مواهبهم، وإنما يسند إليهم جلائل الأعمال إذا رآهم أهلاً لذلك، ولا ينقص من قدرهم صغر أعمارهم.

فالأرقم بن أبي الأرقم المخزومي كان فتى في نحو الثامنة عشرة من عمره، توفي أبوه، وكانت داره وهي على الصفا المكان الأنسب للاجتماع النبوي، فكان ﷺ يجتمع فيها بأصحابه، فكان بيته مدرسة المسلمين الأولى في مكة، وملتقاهم الآمن برسول الله ﷺ، وبقيت دار هذا الشاب ملتقى المسلمين، ومدرسة علمهم طوال فترة الدعوة السرية بمكة، وكان الأرقم يشاركهم التلقي عن رسول الله ﷺ والأخذ عنه.

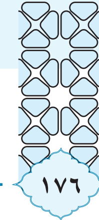
ومن ذلك: تفعيله لقدرات الشباب، فقد قدم ﷺ المدينة ولزيد بن ثابت إحدى عشرة سنة، فحظي برعاية النبي ﷺ وثقته، ووجَّهَه لتعلم القراءة والكتابة وتعلم اللغة العبرانية، وكان كاتب الوحي بين يديه، وكان أعلم الأمة بالفرائض حتى قال ﷺ: «**وَأَفْرَضُ أُمَّتِي زَيْدٌ**»[١]، وتوفي النبي ﷺ وعمره إحدى وعشرون سنة.

وخرج ﷺ من مكة بعد الفتح فأَمّر عليها عتّاب بن أسيد وعمره نحو عشرين سنة[٢]. ولك أن تتخيل عتاب بن أسيد رضي الله عنه أميراً على مكة، وفيها أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وكبراء قريش وأشياخها، والأمير عليهم هذا الشاب العشريني؛ لكن النبي ﷺ يختار أهل القدرات الفائقة، ثم يسند إليهم المهمات، ويوليهم الثقة.

كما جهّز جيشاً إلى الشام، ثم جعل الأمير عليهم أسامة بن زيد وعمره ثمانية عشر عاماً، وفيهم أبو بكر وعمر، ويبعثه ويعقد له اللواء، ويقول وهو

(١) «مسند أحمد» (١٣١٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٧٩٠)، و«المستدرك» (٨٠٥٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٣٤).



يحمي سُمعة أسامة ومكانته: «**لَا تَطْعَنُوا فِي إِمَارَةِ أُسَامَةَ؛ فَإِنِّي لَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ أَبَاهُ، وَإِنَّهُ لَجَدِيرٌ بِالإِمَارَةِ**»(١). فيعطيه بذلك زخماً معنوياً وحماية لمكانته.

ويرسل معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى اليمن أميراً ومعلماً، يَقْدَم على قوم أهل كتاب(٢) وهو شاب ما بلغ الثلاثين من عمره.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوظف كفاءة الشباب ولا يستهين بها، ولا يهمشها، فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك يؤهل الجيل الثاني باكراً لتحمل المسؤولية، والاقتدار على مواجهة الأزمات.

ولذلك كان هؤلاء الشباب بين يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طاقات فاعلة مؤثرة، ثم إن هؤلاء الشباب الذين كانوا فاعلين مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هم الذين حملوا رسالته بعده، وبلغوها للبشرية، وصار هؤلاء الشباب أشياخ الأمة بعده، وعاشوا وهم يذكرون مواقفه الجميلة المضيئة في حياتهم.

٦- كان يولي الشباب عنايةً خاصة في التعليم، فهم أوعى وأقدر على الاستيعاب، وهم رسله إلى الأجيال القادمة، ولذا تظهر هذه الرعاية التعليمية في احتوائه لهم وحواراته معهم، وإجابته على أسئلتهم، ومن ذلك:

ما حدث به أبو محذورة قال: خَرَجْتُ فِي عَشَرَةِ فِتْيَانٍ مِنْ مَكة مَقْفَلَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُنَيْنٍ، فَلَقِيَنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ وَهُوَ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْنَا، فَأَذَّنُوا، فَصَرَخْنَا نَحْكِيهِ، نَهْزَأُ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**ائْتُونِي بِهَؤُلَاءِ الْفِتْيَانِ، فَقَدْ سَمِعْتُ تَأْذِينَ إِنْسَانٍ حَسَنِ الصَّوْتِ**». فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: «**أَذِّنُوا**»، فَأَذَّنَّا وَكُنْتُ آخِرَهُمْ، فَقَالَ حِينَ أَذَّنْتُ: «**تَعَالَ**». فَأَجْلَسَنِي

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٩).

بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَسَحَ عَلَى نَاصِيَتِي وَبَرَّكَ عَلَيَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وأَعْطَانِي صُرَّةً فِيهَا شَيْءٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِالتَّأْذِينِ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: «**أَمَرْتُكَ بِهِ، اذْهَبْ فَأَذِّنْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ**». قُلْتُ كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ فَعَلَّمَنِي التَّأْذِينَ هُوَ بِنَفْسِهِ، فَقَدِمْتُ عَلَى عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ عَامِلِ رَسُولِ الله ﷺ بِمَكَّةَ، فَأَذَّنْتُ مَعَهُ بِالصَّلَاةِ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ[(١)].

وهنا نرى الاحتواء والتأليف باللمسة الحانية، والدعوة الصالحة، والعطية الكريمة، والتعليم الحسن، كيف أثر ذلك على الفتى، فبعد أن كان مبغضاً صار محباً، وبعد أن كان مستهزئاً صار موقناً، وبقي مؤذن مكة حتى وفاته[(٢)].

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ! هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا**»[(٣)].

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ خصّ معاذاً بعلم خاص، ونهاه أن يلقيه إلى من يسيء فهمه، وبوَّب البخاري على هذا الحديث: «**باب من خص بالعلم قوماً دون قوم؛ كراهية ألا يفهموا**»[(٤)].

وهذا الذي خصه النبي ﷺ بهذا العلم ثقة بحسن فهمه، هو معاذ الشاب النبيه اللائق للعلم والتعلم.

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٣٧٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٦٠٨)، و«سنن ابن ماجه» (٧٠٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢).

(٤) «صحيح البخاري» (١/ ٣٧).

ومن ذلك: عنايته بعبد الله بن مسعود في تعليمه القرآن حتى قال: حفظت من رسول الله ﷺ سبعين سورة من فيه إلى في[(١)].

فكان الشباب هم خزائن علم النبي ﷺ ورسله إلى الأجيال من بعده، ولذا نجد مرويات صغار الصحابة أكثر من مرويات كبارهم؛ لأسباب، أحدها: عناية النبي ﷺ بهم، واحتياج الأمة إلى علمهم لما كبروا وذهب الذين هم أكبر منهم، فاتسعت مروياتهم وأخرجوا محفوظاتهم.

٧- كان يحضهم على الجد والعبادة والمحافظة على نوافلها، فيقول عن عبد الله بن عمر: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ!**» فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلاً[(٢)]، ويطرق بيت علي وفاطمة ليلاً وهما شابان، فيقول: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟**»[(٣)].

ومع الترغيب في التعبد، كان يحافظ على توازن العمل، وعدم الإفراط المُجهِد الذي تدفع إليه غلواء الشباب وشِرَّتُه، فعندما علم بمجيئ ثلاثة شباب إلى بيوته يسألون عن عبادته في السر، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي**

(١) «مسند أحمد» (٤٣٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

وكذا عندما علم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد انقطع للعبادة، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة، دعاه وقال: «**صُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّام**». قَالَ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَمَا زَالَ به حَتَّى قَالَ: «**صُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْماً**». وقَالَ: «**اقْرَأ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**». قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ، فَمَا زَالَ به، حَتَّى قَالَ: «**فِي ثَلَاثٍ**»[(٢)].

وبذا يحفز الشباب للعبادة، ويحافظ على اعتدالهم فيها بما يضمن استمرارهم، والوفاء ببقية حقوقهم.

خلاصات:

١- كانت علاقته ﷺ بالشباب وثيقة إلى درجة الاندماج، وتحطيم حواجز الأجيال.

٢- كان يربي الشباب على معاني الإيمان، والقيم وأخلاق الخير قبل أن يلقنهم إياها علماً، فإذا تعلموها تشربوها وانفعلوا بها.

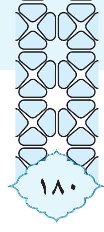
٣- كان يغدق على الشباب عاطفة الحب والرعاية المشاعرية، فيتذوقون أبوته لهم.

٤- كان يخصهم برعاية تعليمية لأنهم أحفظ وأوعى، فاتسعت مروياتهم، وكانوا رسله إلى أجيال الأمة من بعده.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٩٨٧)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

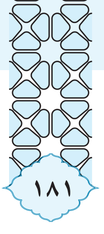


٥- كان يتفهَّم رغائب الشباب ونوازعهم، ويحسن الاستجابة لها، وعلاج جنوحها.

٦- كان يُفعِّل طاقات الشباب، ويوليهم ثقته، ويحملهم المسؤولية باكراً إذا تأهلوا لها.

٧- أثمر هذا التعامل النبوي مع الشباب في تخريج القادة، وتوريث الدعوة، والتواصل بين الأجيال، فصغار قوم كبار آخرين.





الرَّسُولُ ﷺ وأَهْلُ الصُّفَّةِ(١)

١- كان الفقراء والضعفاء والغرباء محل الحفاوة والرعاية من رسول الله ﷺ يحتفي بهم ويرعاهم ويوصي بهم، ويتلقاهم ويدنيهم إليه ويقول: «**ابْغُونِي**(٢) **الضُّعَفَاءَ؛ هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!**»(٣).

وكان للنبي ﷺ رعايةٌ ومواساةٌ للفقراء فيها حفظ كرامتهم ودمجهم مع المجتمع، فما أشعر فقيراً أن فقره يقصيه، أو ينقص من شأنه، كما كان ﷺ يؤهلهم تعليماً وتحفيزاً.

ومن فقراء المسلمين المشهورين أهل الصفة، فالحديث عنهم يقدم نموذجاً للتعامل النبوي مع الفقراء بعامة رعايةً وتعليماً وإعداداً.

٢- والصُّفّة هي العريش الذي كان في قبلة المسجد حينما كانت قبلته إلى الشام أول ما بُني مسجده ﷺ، فصلى النبي ﷺ في هذا العريش بضعة عشر شهراً فلما حولت القبلة إلى الكعبة المشرفة بنى النبي ﷺ في

(١) ينظر: كتاب «أهل الصفة بعيداً عن الوهم والخيال» لشيخنا صالح بن أحمد الشامي، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) ابغوني: اطلبوا لي. ينظر: «النهاية» (١/ ١٤٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٩٦).

جنوب المسجد عريشاً آخر أوسع منه فكان هو مكان صلاته في مسجده ﷺ، وبقي العريش الأول شاغراً ليكون هو الصفة، ولتكون له مهمة أخرى بقيت في تاريخ الإسلام محفوظة وهي إيواء فقراء المهاجرين الذين لحقوا برسول الله ﷺ بعد ذلك.

أما أهل الصفة فهم الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعدما استقر في المدينة هو وأصحابه المهاجرون الأُول، فأتوا إلى المدينة وليس لهم فيها أهل ولا مال يأوون إليه، فأسكنهم النبي ﷺ في هذه الصفة التي في مؤخر المسجد، وهم نزاع من قبائل شتى فيهم: الغفاري، والأسلمي، والسُّلمي، والدوسي، والغطفاني، وكانوا يَكثرون ويقلون بحسب وفودهم، ويقيمون مدداً متفاوتة بحسب أحوالهم، ولم يكونوا يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له أو يعود إلى قومه، ويجيئ ناس بعد ناس، فتارة يكونون عشرة وتارة يكونون سبعين أو ثمانين(١) أو أكثر أو أقل.

ونلاحظ أنهم من قبائل شتى ليس ثمة نسب يجمعهم، ولا رابطة تؤلف بينهم، ولكن النبي ﷺ أوجد بينهم رابطة عُظمى، ليست رابطة القبيلة ولا رابطة البلد، وإنما رابطة الإيمان والأخوة في الله، وقد اندمج هؤلاء على تنوعهم مع النبي ﷺ، وانصهرت علاقتهم بأقوى وأسمى رابطة وهي الحب في الله والأخوة فيه.

٣- أوى هؤلاء إلى هذه الصفة وعاشوا فيها مع النبي ﷺ حياة فيها شظف العيش وقلة ذات اليد، وكان ﷺ يواسيهم بما يتيسر عنده ويفرقهم

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٤١).

أحياناً في وجبة العشاء على المسلمين ليصيبوا عشاءهم وليحقق بذلك إدماجاً لهم في المجتمع، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: إِنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاساً فُقَرَاءَ وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ**». وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ[١].

عن بَشِيرِ ابْنِ الخَصَاصِيَةِ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ لِي: «**مَا اسْمُكَ؟**». قُلْتُ: نَذِيرٌ قَالَ: «**بَلْ أَنْتَ بَشِيرٌ**». قَالَ: فَأَنْزَلَنِي الصُّفَّةَ فَكَانَ إِذَا أَتَتْهُ الهَدِيَّةُ أَشْرَكَنَا فِيهَا وَإِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ صَرَفَهَا إِلَيْنَا[٢].

وإذا توفر التمر عند النبي ﷺ كان يقسم بينهم في كل يوم مُدّاً[٣] من التمر بين كل اثنين، حتى أتوا إلى النبي ﷺ يوماً فقالوا: يا رسول الله أحرق التمر بطوننا. فوقف النبي ﷺ يخطب فيهم ويقول: «**وَاللهِ لَوْ أَجِدُ خُبْزاً وَلَحْماً لَأَطْعَمْتُكُمْ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ**». ثم قال: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ**». فقالوا: يا رسول الله، ونحن على ديننا اليوم؟ قال: «**وَأَنْتُمْ عَلَى دِينِكُمُ اليَوْمَ**». فقالوا: نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة، ونكفى المؤنة فقال رسول الله ﷺ: «**لَأَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**»[٤].

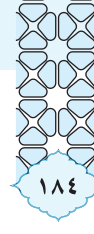
وكان الفقر الذي تعرض له أهل الصفة اضطرارياً وليس اختيارياً، فهم لم يختاروا الفقر على الغنى، ولم يختاروا هذه الحال زهداً وتقشفاً،

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/٢٦).

(٣) المُد: هو بقدر ملئ كفي الرجل المتوسط الخلقة. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٨).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).



ولكن اضطرتهم إلى ذلك هجرتهم إلى رسول الله ﷺ من أوطانهم التي فيها أهلوهم وأموالهم، فقدموا المدينة لا يأوون إلى أهل ولا مال، واحتملوا حالة القلة والكفاف والشدة واللأواء إيثاراً لصحبة النبي ﷺ، مع أنهم كانوا في قبائلهم وعند أهلهم في كفاية وسعة؛ كما قال سلمة بن الأكوع: كنت تبيعاً[(١)]، لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه وأَحُسه[(٢)] وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت مالي وأهلي مهاجراً إلى الله ورسوله[(٣)]، ولذا فليس في حالهم ترغيب في الفقر ولا تزهيد في الغنى[(٤)]، فقد كان من العشرة المبشرين بالجنة أغنياء، وقد قال ﷺ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[(٥)]. لكنهم تخلوا عن ذلك في سبيل الهجرة إلى رسول الله ﷺ، واحتملوا لذلك هذا الفقر وقلة الطعام وقلة الكساء حتى قال أبو هريرة وهو واحد منهم: إن كنت لأرى الرجل منهم يخر من طوله من الجوع، ويجمع إزاره بيده خشية أن ترى عورته، وقال سهل بن سعد: لَقَدْ رَأَيْتُ الرِّجَالَ عَاقِدِي أُزُرِهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ مِثْلَ الصِّبْيَانِ مِنْ ضِيقِ الأُزُرِ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ قَائِلٌ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ لَا تَرْفَعْنَ رُؤُوسَكُنَّ حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ**»[(٦)].

وحكى لنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعض ما مر به عندما كان في الصفة قال: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِياً

---

(١) تبيعاً: أي خادماً. ينظر: «النهاية» (١/ ١٧٩).

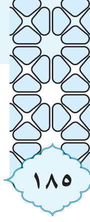
(٢) أحسّه: أي أحك ظهره بالمِحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٥٠).

(٣) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٤) ينظر: رسالة ابن تيمية في أهل الصفة، من: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨).

(٥) «مسند أحمد» (١٧٧٦٣)، و«الأدب المفرد» (٢٩٩).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٤٤١).



عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الجُوعُ[١].

٤- أما حال النبي ﷺ معهم، فإنه قد أقام في هذه الصفة أول جمعية خيرية في التاريخ تعتمد على إيواء الفقراء وتعليمهم، فكان النبي ﷺ يجلس معهم في الصفة يُقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، وكان يجوع معهم كما يجوعون، فإذا كان عنده شيء واساهم به، فما كان يستأثر بشيء دونهم، ولذا لما قُدم عليه برقيق وسألته ابنته فاطمة أن يهبها واحداً منهم يكفيها مشقة العمل في بيتها، فقال لها: «**والله لا أُخْدِمُكما خَادِماً، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الجُوعِ، ولكِنْ أَبِيعُهم وأَشْتَرِي بِثَمَنِهم طَعاماً لِأَهْلَ الصُّفَّةِ**»[٢]. فحتى حاجة بنيته في بيتها لم تكن تسبق حاجة أهل الصفة إلى قوتهم.

ويمر به أبو طلحة فيراه يُقرئ أهل الصفة القرآن بصوت يظهر فيه أثر الجَهْد من الجوع، فلم يستطع الصبر على ما رأى، فانطلق إلى زوجته أم سُليم؛ لعله يجد عندها ما يطعمه رسولَ الله ﷺ، فلما قال لها ذلك، قالت: عندي شيء ـ وأشارت بكفها تقلِّله ـ عندنا نحو مُدٍّ من دقيق شعير، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء معه أحد قلَّ عنهم. قال: فاعجنيه وأصلحيه، عسى أن ندعو النبي ﷺ فيأكل عندنا.

فعمدت إلى الشعير فعجنته، ثم أرسلت ابنها أنساً إلى نخل لهم ليأتيها بحطب تخبز عليه، فأتاها به، فعملت مما عجنت قرصاً. فقال أبو طلحة

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٢٤).
(٢) «مسند أحمد» (٨٣٨).

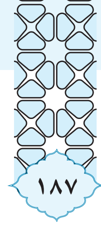


لربيبه أنس: يا بني، اذهب إلى رسول الله ﷺ فقم قريباً منه، فإذا قام فدعه حتى يتفرق أصحابه، ثم اتبعه، حتى إذا قام على عتبة بابه قل له: إن أبي يدعوك، ولا تدع معه غيره، ولا تفضحني.

وذهب أنس إلى رسول الله ﷺ، فوجده في مجلسه، وأصحابه حوله، نحو من ثمانين رجلاً، فقام ينتظر أن يقوم رسول الله ﷺ فيدعوه، فإذا رسول الله ﷺ يقبل عليه، فيقول: «**أَرْسَلَكَ أَبُوكَ يَا بُنَيَّ؟**». قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لِطَعَامٍ؟**». قال: نعم. وإذا برسول الله ﷺ يقبل على أصحابه، فيقول لهم: «**قُومُوا بِاسْمِ الله، أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ**».

ثم أخذ بيد أنس فشدها بيده، وانطلقوا يسيرون إلى بيت أبي طلحة، ولا تسل عن أنس وهو يسير، ويده بيد رسول الله ﷺ، وكأنما وقع خطوات هذا الجمع تميد بالأرض حوله، ماذا سيقول لأبي طلحة، وقد أوصاه وحذَّره؟ وما حيلته وقد سأله رسول الله ﷺ، وما كان له إلا أن يجيبه ويصدقه؟ وما عساه يصنع طعامهم القليل بهذا الجمع الكثير؟

حتى إذا دنوا من بيت أبي طلحة أطلق رسول الله ﷺ يد أنس؛ فانطلق مسرعاً، ودخل على أبي طلحة، فقال: يا أبتاه، قد قلت لرسول الله الذي قلت لي، فدعا أصحابه، فقد جاءك بهم! فدفعه أبو طلحة بيده، وقال: فضحتني عند رسول الله ﷺ، أو ما علمت ما عندنا؟! فقال أنس: بلى، ولكن لم أستطع أن أقول لرسول الله شيئاً، قال لي: «**لِطَعَامٍ؟**». فكرهت أن أكذب. فكرب أبو طلحة كرباً شديداً، وأقبل على زوجته أم سُليم، فقال: يا أم سُلَيم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم. قالت: الله ورسوله أعلم.



فخرج أبو طلحة، فقام على الباب يتلقى رسول الله ﷺ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب، قال لمَن معه: «**اقْعُدُوا**». فجلسوا في السكة، ودخل هو وأبو طلحة، فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، وإنما هو قرص صنعته أم سُلَيم، وما عندنا ما يكفي مَن أَرى معك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ادْخُلْ وَأَبْشِرْ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ سَوْفَ يُبَارِكُ فِيمَا عِنْدَكَ**».

فدخل أبو طلحة برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أُمَّ سُلَيمٍ! هَلُمَّ مَا عِنْدَكِ**». فجاءته بالصحفة فيها القرص، فقال لها: «**هَلْ عِنْدَكِ سَمْنٌ؟**». فقال أبو طلحة: قد كان عندي عُكَّة[1] فيها شيء من سمن. قال: «**فَأْتِ بِهَا**». فجاء بها عكة عجفاء ينظر إليها الناظر فيقول: فيها شيء أو ليس فيها شيء؟ ففتح رسول الله ﷺ رباطها، ثم قال: «**بِاسْمِ الله، اللهُمَّ أَعْظِمْ فِيهَا البَرَكَةَ**». ثم قال: «**اقْلِبِيهَا يَا أُمَّ سُلَيمٍ**». فقلبتها، وجعل رسول الله ﷺ وأبو طلحة يعصرانها، حتى سرب منها شيء، فمسحه النبي ﷺ بأصبعه، ثم مسح به القرص، وقال: «**بِاسْمِ الله**». فانتفخ القرص، فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ، حتى انساح في الجفنة كلها.

ثم قال لأنس: «**ادْعُ عَشَرَةً مِنْ أَصْحَابِي**». فدعا له عشرة، فوضع النبي ﷺ يده في وسط القرص، وقال: «**كُلُوا بِاسْمِ الله**». فأكلوا حوالي القرص؛ حتى ثملوا شبعاً، فما زالوا يدخلون عشرة عشرة، فيأكلون لا يرعي أحد منهم على أحد؛ حتى شبعوا كلهم، ثم دعا أبا طلحة وأم سُلَيم وأنساً، فجلسوا معه، وقال: «**كُلُوا**». فأكلوا مع رسول الله ﷺ حتى شبعوا، ثم رفع يده،

(١) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

وإن وسط القرص حيث وضع رسول الله ﷺ يده كما هو، فقال: «**يَا أُمَّ سُلَيمٍ! أَيْنَ هَذَا مِنْ طَعَامِكِ حِينَ قَدَّمْتِيهِ؟**». قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لولا أني رأيتهم يأكلون لقلت: ما نقص من طعامنا شيء.

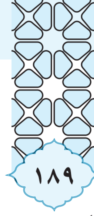
ثم جمعت أم سليم ما بقي فأهدته لجيرانها[١].

يا الله النبي ﷺ مع أنه مجهود من الجوع يجلس لهم يعلمهم.

ثم لما عرض عليه الطعام دعاهم معه وشاركهم الطعام كما شاركهم الجوع.

٥- وكان النبي ﷺ لخلطته بهم يَلمح من حالهم ما لا يعرفه غيره ويبادرهم بما في نفوسهم قبل أن يقولوه، وكانت تجري لهم عجائب معه ومنها: قول أبي هريرة: واللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْماً عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَالتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَا سَالتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَالتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَا سَالتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو القَاسِمِ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الحَقْ**». وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَناً فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «**مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟**». قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قَالَ: «**أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي**». قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

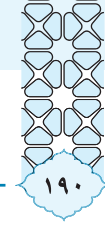


بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئاً، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاؤوا أَمَرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ البَيْتِ، قَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**». قَالَ: فَأَخَذْتُ القَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، ـ والقدح لا يزال ملآن يترجرج في يد أبي هريرة قال: ـ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ القَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، ـ وكأنه قرأ ما كان في نفس أبي هريرة، وما حدثته به نفسه ـ فَقَالَ: «**أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ**». قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: «**اشْرَبْ**». فَشَرِبْتُ، حتى استوى بطني فصار كالقِدْح[١]، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «**اشْرَبْ**». حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً، قَالَ: «**فَأَرِنِي**». فَأَعْطَيْتُهُ القَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ[٢].

---

(١) القِدْح هو عود السهم يضرب به المثل في الاستقامة، يشير أبو هريرة إلى أن بطنه استوى مع صدره، وهذا في وقتهم غاية الامتلاء والشبع، لأن بطونهم في العادة ضامرة، فإذا امتلأت استوت مع الصدر، وهذا حالٌ غير حالنا في زماننا حيث تكورت البطون، وصار أحدنا يجوع وهو يحتضن في بطنه جراباً من الشحم المعتق.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٥٢).



لقد شرب نبينا ﷺ فضلة أهل الصفة، فهل ثم إيثارٌ ومواساة وتمازج مع هؤلاء الفقراء أروع وأجمل من تلك المواساة النبوية.

٦- وكان ﷺ يعلمهم ويحفزهم للتعلُّم يقول أحدهم: خَرَجَ علينا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى العَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ؟**». فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «**أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[(١)]. وهذا نوع من المواساة والتحفيز لتتحول الصفة من كونها مجرد مأوى وسكن إلى حلقة علم ومدرسة تعليم.

٧- بقي أن تعرف أن هؤلاء الذين كانوا في الصفة يواسيهم النبي ويعلمهم قد أغمض الدهر عنهم عينه ثم نظر فإذا كل منهم أمير في مصر، أو إمام في بلد، أو داعية في قبيلة، وأصبح الغرباء الفقراء أمراء وأئمة ودعاة، إنهم نتاج التربية النبوية التي تجاوزت بهم الإغاثة والإيواء إلى التربية والتنمية، وبذلك أُهلت القدرات وفُعلت الطاقات، وصار فقير أهل الصفة أبو هريرة أميراً على المدينة، وخطب عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة، فقال: لقد رأيتني سابع سبعةٍ مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قَرِحتْ أَشْداقُنا[(٢)]، فالتقطت بُردةً فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتّزرت

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٨٠٣).

(٢) قَرحت أشداقنا: أي خرجت القروح من جوانب الفم وتجرّحت. ينظر: «شرح السندي على ابن ماجه» (٢/ ٥٣٩).

بنصفها واتّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أميراً على مصرٍ من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً»[١].

وكان تعامل النبي ﷺ مع أهل الصفة نموذجاً لتعامله مع الفقراء والغرباء.

خلاصات:

١- الصُّفَّة هي العريش الذي في شمال المسجد النبوي، وأهلها هم نزّاع القبائل الذين لحقوا بالنبي ﷺ.

٢- كان أهل الصُّفَّة غرباء فقراء هم أضياف أهل الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال.

٣- كان أهل الصُّفَّة يَكثرون ويَقلون بحسب وفودهم، ويقيمون مدداً متفاوتة بحسب أحوالهم.

٤- كان أهل الصُّفَّة فقراء، وكان فقرهم اضطرارياً وليس اختيارياً، فهم لم يختاروا الفقر على الغنى، ولكن تعرضوا للفقر بسبب هجرتهم إلى الرسول ﷺ وتركهم أموالهم وبلادهم.

٥- كانت الصُّفَّة مأوى وسكناً، ومدرسةً ودارَ علم، وكان النبي ﷺ يجلس إليهم فيها معلماً ومحفزاً.

٦- الذين كانوا في هذه الصُّفَّة تأهلوا علماء وقادة، ومعلمي خير في قبائلهم وأمصارهم.

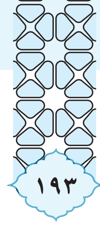


(١) «صحيح مسلم» (٢٩٦٧).

الرَّسُولُ ﷺ والضِّيافة

١- كرم الضيافة عادة عربية متأصلة في المجتمع القرشي، وممن اشتهر بالكرم فيها أجداد النبي ﷺ، فجده قصي كان يضع موائد الطعام للحجاج وشهر بذلك، وجده هاشم سمي بذلك لأنه هشم الثريد للحجاج فغلب هذا اللقب على اسمه مناف، وكان جده عبد المطلب من سادات مكة رئاسةً وكرماً، وكان إليه سقاية الحجاج وبقيت لبنيه من بعده، فبيته ﷺ وأسرته توارثوا كرم الضيافة واشتهروا بها.

وقبل ذلك كان أبوه إبراهيم عليه السلام من كرام خلق الله، حيث قص الله خبر ضيافته للملائكة الذين أتوه بصفة بشرية، فقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، ومن مشاهد الكرم الإبراهيمي في هذه الآيات وصف الله الضيوف بأنهم مكرَمون؛ فقد تلقاهم إبراهيم بأنواع من الإكرام حتى صار وصفهم أنهم المكرمون، ثم حسن التحية والتلقي لهم مع أنهم قوم منكرون، ثم ذهابه خفية لإحضار الضيافة: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾، ثم تقريبه إليهم ودعوتهم إليه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا



تَأْكُلُونَ﴾، إنه كرم النبوة وكرم الأبوة، ومن ذاك النبي جاء هذا النبي الذي هو أشبه ولده به خَلْقاً وخُلُقاً.

٢- ثم كان كرم الضيافة صفة مشهورة عنه ﷺ قبل النبوة، ولذا قالت له خديجة عندما جاءها فزعاً من غار حراء: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ(١).

ووصفه عمه أبو طالب في قصيدته اللامية:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل(٢)

٣ – ثم اتسع كرم ضيافته بعد النبوة فكان كما وصفه ابن عباس: أجود بالخير من الريح المرسلة.

ولذا كان بيته مقصد المحتاجين، وطعامه قرى الأضياف قليلاً كان أو كثيراً، فهو يجزل بالكثير من الكثير، ويواسي بالقليل من القليل.

ومن كرم ضيافته مشاهد منها:

أ ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ**». وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ(٣).

(١) «صحيح البخاري» (٣).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٢).

ب ـ وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ، وَالطَّعَامُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: «**أَصْلِحُوا هَذِهِ الشَّاةَ، وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخُبْزِ فَأَثْرِدُوا وَاغْرِفُوا عَلَيْهِ**». وَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَصْعَةٌ[١] يُقَالُ لَهَا: الغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَسَجَدُوا الضُّحَى، أُتِيَ بِتِلْكَ القَصْعَةِ وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا، فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَأْكُلُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الجِلْسَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُوا مِنْ جَوَانِبِهَا، وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا**»، **ثُمَّ قَالَ**: «**خُذُوا كُلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَيُفْتَحَنَّ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، حَتَّى يَكْثُرَ الطَّعَامُ فَلَا يُذْكَرُ اسْمُ الله عَلَيْهِ**»[٢].

وإنما جثا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ركبتيه حتى يتسع مكان الجلوس حول صحفة الطعام لمَّا كَثُرَ أضيافه، وإنما فعل ذلك من تواضعه لمن يجلس معهم، وهذه الجلسة على ركبتيه مما يترفع عنها الجبارون والمتكبرون، ولذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً**». كما أن في ذلك مظهراً لتواضع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع أضيافه وتوسعته من مكانه لهم.

ج ـ وقد يقل ما عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيواسي من هذا القليل على قلته، فعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ جَالِساً فِي دَارِي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَى بَعْضَ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَدَخَلَ ثُمَّ أَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْ غَدَاءٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْرِصَةٍ

(١) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٧٧٣).

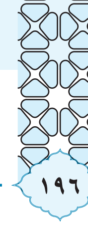
مِنْ خُبْزٍ فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ قُرْصاً فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ قُرْصاً آخَرَ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ أَخَذَ الثَّالِثَ فَكَسَرَهُ بِاثْنَيْنِ، فَجَعَلَ نِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَنِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ مِنْ أُدُمٍ؟**». قَالُوا: لَا، إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ، قَالَ: «**هَاتُوهُ؛ فَنِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ! مَا أَقْفَرَ مِنْ أُدُمٍ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ**». قَالَ جَابِرٌ: فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ نَبِيِّ الله ﷺ[(١)].

وهنا نلحظ أن النبي ﷺ ابتدأ جابراً بالدعوة، وأتى به معه من بيته مع قلة ما عنده من طعام وهو ثلاثة أقرصة، ثم إن النبي ﷺ قسم هذا الطعام القليل حتى لا يقع جابر في الحرج أن يأكل ما يظن أنه نصيب النبي ﷺ، ولذا دفع إليه قرصاً وأخذ قرصاً وشق الثالث نصفين فأعطاه نصفاً، وأبقى لنفسه نصفاً، ولو دفعه إليه كاملاً لتحرج أن يأكل أكثر مما أكل النبي ﷺ، ولذا أعطاه نصفاً وأخذ نصفاً حتى تطيب نفس جابر بما أكل، وإن أُنسَ جابر بهذه الدعوة، وشعوره بإيثار الرسول ﷺ له بالقليل لا يساويه باذخات الموائد وإن زخرت بصنوف اللذائذ، فخير منها هذه اللقيمات القليلة يواسيه بها نبيه الكريم من طعامه القليل.

د ـ ومن ذلك: ما حدَّث به أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقَ بِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى رَحْلِهِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَناً فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ، الحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ ادْعُهُمْ لِي**». فَدَعَوْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**». فَأَخَذْتُ القَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ، فَدَفَعْتُ القَدَحَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فقَالَ: «**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «**اشْرَبْ**». حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً، قَالَ:

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).



«**نَاوِلْنِي القَدَحَ**». فَأَعْطَيْتُهُ القَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ[١].

وهنا نجد أن النبي ﷺ ابتدأ أبا هريرة بالدعوة، ولما وجد اللبن دعا أهل الصفة معه، وكانت الضيافة هذا اللبن الذي أهدي له، ومن كرمه وإكرامه لضيوفه أنه بدأ بهم ليشربوا قبله، ولم يشرب حتى ارتوى آخرُهم وهو أبو هريرة، ثم شرب الفضلة بعد أن دار الإناء على أهل الصفة كلهم، كرماً وتواضعاً.

هـ ـ وكان ﷺ حريصاً على أن يُقرِي الضيف عنده فإذا وفد عليه أحد سأل في بيوته عن الطعام فإن وجد شيئاً أطعمه وإلا عرض على أصحابه استضافته، ومن ذلك: ما حدَّث به أبو هريرة قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟ رَحِمَهُ اللهُ**». فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو طَلْحَةَ فقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ[٢].

وهنا نرى النبي ﷺ أرسل إلى بيوت نسائه كلهن فاعتذرن بعدم وجود شيء عندهن، وهذا هو المتوقع فإذا لم يكن عند واحدةٍ، فلن يكون عند البقية؛ لأن بيوت النبي ﷺ كالبيت الواحد، ولكن النبي ﷺ فعل ذلك مبالغة في تطلب إكرام الضيف وإطعامه، ولم يعرض ﷺ على أصحابه استضافته إلا بعد أن طاف على بيوت نسائه كلهن يسألهن فلم يجد عندهن شيئاً، وفي هذا غاية المواساة، وهو من الإطعام في يوم ذي مسغبة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٤).

٤ ـ وكان يؤنس من يستضيفه ويرفع عنه الحرج والشعور بالتكلف له، فعَنْ أَبِي رَزِينٍ لَقِيطِ بْنِ صَبِرَةَ العُقَيْلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ وَافِدَ بَنِي المُنْتَفِقِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ، وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها فَأَمَرَتْ لَنَا بِخَزِيرَةٍ[١] فَصُنِعَتْ لَنَا، وَأُتِينَا بِقِنَاعٍ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**هَلْ أُطْعِمْتُمْ شَيْئاً، أَوْ أُمِرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ؟**». فَقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ جُلُوسٌ إِذْ دَفَعَ الرَّاعِي غَنَمَهُ إِلَى المُرَاحِ[٢] وَعَلَى يَدِهِ سَخْلَةٌ تَيْعَرُ[٣] فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ وَلَدَتْ يَا فُلَانُ؟**». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاذْبَحْ لَنَا مَكَانَهَا شَاةً**». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**لَا تَحْسِبَنَّ أَنَّا ذَبَحْنَا الشَّاةَ مِنْ أَجْلِكَ، لَنَا غَنَمٌ مِئَةٌ لَا نُرِيدُ أَنْ تَزِيدَ، فَإِذَا وَلَّدَ الرَّاعِي بَهْمَةً ذَبَحْنَا مَكَانَهَا شَاةً**»[٤].

فقوله له: «**لَا تَحْسِبَنَّ أَنَّا ذَبَحْنَا الشَّاةَ مِنْ أَجْلِكَ**». هو من رفع ما يمكن أن يشعر به الضيف من حرج إذا ظن أن مضيفه قد تكلَّف له، فرفع النبي ﷺ هذا الظن استطابة لنفسه وبيَّن أن ذبح هذه الشاة عادة جارية لهم وافقت قدومه.

(١) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يَقَطَّع صِغَارًا ويُصبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحْمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) المـُراح: الموضع الذي تروح إليه الماشية، أي: تأوي إليه ليلًا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٧٣).

(٣) تيعر: من اليُعار وهو صوت الشاة. ينظر: «معالم السنن» (١/ ٥٣).

(٤) «سنن أبي داود» (١٤٢).

خلاصات:

١- كان كرم الضيافة عادة متأصلة في المجتمع القرشي، وكان أجداد النبي ﷺ من أشهر كرماء قومه.

٢- عرف ﷺ بالكرم قبل النبوة كما وصفته خديجة رضي الله عنها.

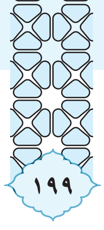
٣- ثم اتسع كرمه بعد النبوة فكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

٤- كان ﷺ يسخو بالكثير من الكثير إذا كان عنده، ويواسي بالقليل من القليل إذا لم يجد غيره.

٥- كان ﷺ إذا لم يجد ما يضيف به ضيفه سأل أصحابه أن يضيفوه، فيسخو بماله وبشفاعته.

٦- كان يؤانس من يستضيفه، ويرفع عنه ما قد يشعر به من حرج مزيداً في الإكرام وطيب النفس.





الرَّسُولُ ﷺ ضَيفاً

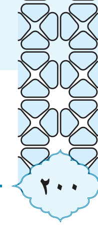
كانت ضيافته ﷺ الأولى في المدينة عند كلثوم بن الهدم في قباء حيث أقام أربعة عشرَ يوماً[١]، وكان يبيت عنده ويجلس في النهار في دار سعد بن خيثمة لأنه كان عزباً فيستقبل فيها القاصدين إليه.

ثم كانت ضيافته الكريمة عند أبي أيوب خالد بن زيد حيث نزل في ضيافته ستة أشهر يقاسمه منزله ويشاركه طعامه حتى بنى مسجده وحجراته.

وزيارة الناس في بيوتهم، وإجابة دعوتهم، وقبول ضيافتهم ومشاركتهم طعامهم من مفاتيح القلوب التي تفتح أغاليقها، فكيف كان حال النبي ﷺ إذا دعاه أصحابه فزارهم في بيوتهم، وآنس قلوبهم، وشاركهم طُعيِّمَهم الذي يقدمونه له، وإنا واجدون في هدي النبي ﷺ ضيفاً معالم مهمة، منها:

١- اتساع إجابة النبي ﷺ للدعوات في المدينة، حيث اتسعت مساحة هذه الزيارات لتصل إلى أطراف المدينة ونواحيها المتباعدة، فما من ناحية أو حي من أحياء الأنصار إلا وقد سعدوا بزيارة النبي ﷺ لهم وإكرامهم في دورهم.

(١) اختلف في مدة إقامة النبي ﷺ في قباء، وهذا أحد الأقوال ولعله الأقرب.



ومن أطراف المدينة التي أجاب النبي ﷺ فيها الدعوة بنو سَلِمة ومكانهم يبعد عن المسجد النبوي قرابة (٤ كم)، فقد دعوا النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله عندنا جزور نريد أن ننحرها، ونريد أن تشهدها، وذلك أن نحر الجزور يعتبر احتفالية، ومناسبة سعيدة؛ لقلة اللحم عندهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يشهدها معهم ويشاركهم فرحتهم بها، فقال: «**نَعَمْ**». فلما صلى العصر ذهب إليهم فإذا الناقة قائمة لم تنحر بعد ينتظرون قدوم النبي ﷺ، فنحروها؛ ثم قالوا: يا رسول الله اجلس حتى تذوق من لحمها، فقطعوا من لحمها ثم طبخوه وقدموه إلى النبي ﷺ فطعم منه ثم عاد إلى المدينة فصلى فيها المغرب[١].

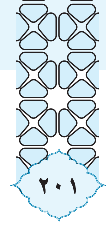
ودعونا نتساءل: ما شعور بني سَلِمة والنبي ﷺ يشهد معهم هذه الاحتفالية، ويأكل من طعامهم، ويشاركهم فرحتهم بنحر الجزور؟ إنه النبي الذي آتاه الله هذه البراعة وهذا الاقتدار لإسعاد النفوس وفتح مغاليق القلوب.

٢- كان ﷺ يقبل الدعوة ممن دعاه صغيراً وكبيراً، ولم يكن يزدري أحداً أو يتعالى على أحد إذا دعاه، ففي الوقت الذي يجيب فيه دعوة كبار الصحابة نجد خياطاً من الموالي يدعو النبي ﷺ، فيذهب إليه ويجيب دعوته ويأكل من طعامه[٢]، ونجد عجوزاً هي مُليكة جدة أنس بن مالك تدعو النبي ﷺ فيذهب إليها ويسعد قلبها ويأكل من طعامها[٣]، ولك أن تسأل عن مقدار السعادة التي كان النبي ﷺ يفتقها في تلك القلوب، ويبهج بها تلك النفوس.

(١) «صحيح مسلم» (٦٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٦٥٨).



٣- كان أصحاب النبي ﷺ إذا دعوه لا يتكلفون له ما يشق عليهم ويعسر، وإنما يقدمون له ما تيسر عندهم، فهو الذي قال: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ**»[١]. فهذا عتبان بن مالك يدعو النبي ﷺ إلى بيته، فيذهب النبي ﷺ إليه ويجيب دعوته فيقدم للنبي ﷺ الضيافة، فماذا كانت الضيافة؟ لقد كانت حساء دقيق فيه قطع صغيرة من اللحم يسمونها خزيرة، ويجلس لهذه الضيافة ويأكل معهم، ويدعو لهم ويصلي في بيتهم[٢].

وذاك الخياط الذي دعا النبي ﷺ فذهب إليه هو وأنس بن مالك، يقول أنس: فقدم إلينا أقراص شعير، ومرقة فيها دُبّاء وقَديد[٣]، فهذه كانت الضيافة، والعجيب أن هذا الخياط قدم لهم الطعام[٤] ثم جلس يكمل الخياطة، لانشغاله بعمله، وهذا يدل على أن هذا الخياط لم يكن متهيباً ولا متوتراً، ولا كان يعيش حالة رهبة من النبي ﷺ، وإنما ابتهاجٌ وأنسٌ، ولذا رحب بهم وقدم لهم الضيافة ثم جلس يكمل عمله، ولا تسل عن إسعاد النبي ﷺ لقلبه بذلك، لقد كان مثل هذا الخياط المولى مزدرى عند العرب، لا يقبلون مجرد الجلوس معه، أما النبي ﷺ فيقبل دعوته، ويدخل داره، ويأكل من طعامه، إنها العظمة الأخلاقية للنبي ﷺ.

٤- كان النبي ﷺ إذا زار قوماً وأسعدهم بمشاركتهم طعامهم فإنه كان يسعدهم أيضاً بالدعاء لهم، يقول عبد الله بن بسر: قدم علينا النبي ﷺ فقدمنا له طعاماً فأصاب منه، ثم قدمنا له شراباً فأصاب منه، فلما

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣).

(٣) الدباء: هو القرع، والقديد: هو اللحم المجفف. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٦) (٤/ ٢٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).

أراد أن يخرج قال له أبي: يا رسول الله ادع لنا. قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيمَا رَزَقْتَهُمْ وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ**»[١].

وذهب إلى سعد بن عبادة فقدم له أقراصاً من شعير فقال له النبي ﷺ: «**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلاَئِكَةُ**»[٢].

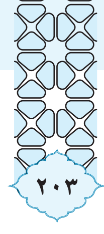
وذهب مرة إلى جابر بن عبد الله يزوره فقدم له ضيافة فلما أراد أن يخرج خرجت امرأة جابر فقالت: يا رسول الله صلى الله عليك، صلِّ عليَّ وعلى زوجي. قال: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»[٣].

يا لله ما هي السعادة التي غمرت قلب هذه المرأة والنبي يصلي عليها وعلى زوجها، ما البركة التي غمرت حياتهم بصلاة النبي ﷺ عليهم.

٥- كان ﷺ يجيب دعوة المسلم وغير المسلم ولم يكن يأنف أن يجيب دعوة غير المسلمين إذا دعوه، فدعاه يهودي على أقراص من شعير وإهالة سنخة وهي شحم مذاب قد تغيرت رائحته، فأجاب الدعوة[٤]، وعندما فتح خيبر دعته امرأة يهودية على طعام فقدمته وكان شاةً مسمومة، فأجاب الدعوة[٥] ولم يعلم أنها مسمومة حتى أكل منها.

٦- ومن الذوق النبوي في الزيارة أنه كان يستأذن عند الباب ثلاثاً، فإن أُذن له وإلا انصرف، يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: استأذن رسول الله ﷺ على سعد بن عبادة، فقال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله**». فقال سعد: وعليك

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٤٢).
(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٥٤).
(٣) «سنن أبي داود» (١٥٣٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٦٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٢٦١٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٠).



السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثا، ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه. فرجع رسول الله ﷺ، فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا هي بأذني، ولقد رددت عليك، ولم أُسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك ومن البركة[(١)].

٧- ومن الذوق الرفيع في الزيارة أنه كان إذا وقف على باب من يزوره لا يقف مقابل الباب ولكن ينحرف عنه يميناً أو شمالاً حتى لا ينكشف من داخل البيت إذا فتح بابه ما لا تحسُن رؤيته فيحرج ذلك صاحب البيت[(٢)].

٨- وكان النبي ﷺ يسعد من يزورهم ويشعرهم بأن الذي قدموه شيء أسعده، دعاه جابر وقدم له لحماً فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال: «**جَابِرُ! كَأَنَّكَ عَلِمْتَ اشْتِهَاءَنَا اللَّحْمَ؟**»[(٣)]. يا الله كيف تكون سعادة جابر وهو يشعر أن ضيافته لاقت شهوة النبي ﷺ وحبه.

وزار مرة أبا الهيثم بن التيهان ومعه أبو بكر وعمر فقدم لهم ماءً وعذقاً فيه رطب وبسر وتمر فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ، وَتَمْرٌ طَيِّبٌ**»[(٤)]، إنه يصف هذا الطعام بالنعيم، فما وَقْع ذلك على مضيفهم أبي الهيثم بن التيهان وهو يسمع ثناء النبي ﷺ على ضيافته؟ إنه النبي الذي أوتي هذه المهارة الفائقة في إسعاد الناس وإبهاج قلوبهم ومشاركتهم فعاليات حياتهم.

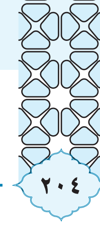
---

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٠٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٥١٨٦).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٢٤٥)، و«مسند الدارمي» (٤٦)، و«صحيح ابن حبان» (٩٨٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٣٦٩).



٩- وكان من هديه الاستئذان لمن تبعه ولم يكن مدعوا حتى لا يحرج صاحب الدعوة بحضور من لم يستعد له، ومن ذلك: أن رجلاً من الأنصار يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ، فَقَالَ له: اصْنَعْ لِي طَعَاماً، أَدْعُو رَسُولَ الله ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَدَعَا رَسُولَ الله ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَتَبِعَهُمْ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّكَ دَعَوْتَنَا خَامِسَ خَمْسَةٍ، وَهَذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَذِنْتَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْتَهُ»**، قَالَ: بَلْ أَذِنْتُ لَهُ[1].

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ جَاراً لِرَسُولِ الله ﷺ فَارِسِياً كَانَ طَيِّبَ المَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: **«وَهَذِهِ؟»**. لِعَائِشَةَ، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَا»**. فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«وَهَذِهِ؟»**. قَالَ: لَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَا»**. ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«وَهَذِهِ؟»**. قَالَ: نَعَمْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ[2].

وإنما اشترط حضور عائشة معه لأن الدعوة كانت بحضرتها، ولعل بها من الجوع وشهوة الطعام ما به، فكره ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة، وحقوق المصاحبة، وآداب المجالسة.

وأما الداعي فلعله اعتذر أولاً لأن حاله لم يكن مهيئاً لذلك فإن دعوة الرجل وامرأته تحتاج إلى تهيئة مناسبة، فلما تمكن من تهيئتها دعاهما جميعاً.

وهذا المعنى يتأكد في حال الناس في ذلك الناس، حيث الطعام قليل والداعي عادة إنما يستعد بالطعام لمن دعاهم كفافاً، فإذا جاء من لم يدع أحرجه ذلك وقصر الطعام على المدعويين.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٤٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٣٧).

وأما إذا تغيرت الحال وصارت أمور الناس متيسرة وعُرِفَ فرح الداعي بالحضور تـغير الحكم بتغير الحال، فإن الغالب مع تيسر الأحوال ووفرة المال أن من حضر من غير دعوة يكون هو صاحب المكرمة والفضل لمبادرته بالحضور، وهذه أمور يضبطها حال الناس وعرفهم.

١٠ـ وكانت دعوات الصحابة للنبي ﷺ بدافع المحبة له والتبرك به والتشرف بزيارته، وربما حملهم على ذلك التفاعل النفسي مع ما يرونه على النبي ﷺ من علامات الجهد والجوع الظاهرة عليه، كما في حديث أبي طلحة حين رآه مع أهل الصفة، أو حال أبي شعيب الأنصاري حينما رآه كذلك.

ومن ذلك: خبر جابر رضي الله عنه قَالَ: لَبِثْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقاً فَحَانَتْ مِنِّي التِفَاتَةٌ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ شَدَّ عَلَى بَطْنِهِ حَجَراً مِنْ الجُوعِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصاً[١] شَدِيداً، فَهَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحْتُ العَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، فَقَالَ: «**كَمْ هُوَ؟**». فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ، فَقُلْ لَهَا لَا تَنْزِعْ البُرْمَةَ وَلَا الخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**». ثُمَّ صَاحَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ سُوراً**[٢]»،

(١) خمصاً: أي ضموراً في بَطْنه من الْجُوع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٤).

(٢) السور بغير همز: الصنيع من الطعام الذي يدعى إليه، وقيل: الطعام مطلقا. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٢١٣).

فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ». قَالَ: فَقَامَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَتِي قُلْتُ: وَيْحَكِ، جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بِالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا**». فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِيناً، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا، فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي**». فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ وَيَغْرِفُ وَهُمْ أَلفٌ فَأُقْسِمُ بِالله لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، فَتَرَكُوهُ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُوا هَذَا وَأَهْدُوا؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»[1].

ونلاحظ أن النبي ﷺ في حديث أبي طلحة وجابر دعا جمعاً لم يدعهم المضيف وفاجأه بهم، وذلك لما علم ﷺ من حاجة الناس ومن البركة الإلهية التي سينزلها الله في هذا الطعام بحيث يكفي القليل منه الفئام الكثيرة من الناس، وكانت هذه المعجزة تقع أمام أصحابه وتحت سمعهم وبصرهم ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليكون في ذلك مزيد يقين وثبات، فهو من تثبيت الله لهم في هذه الشدائد والكروب، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

كما نرى حال النبي ﷺ وهو يباشر بنفسه معونة أصحاب الضيافة ومشاركتهم في تهيئة الطعام وإعداده وتقديمه، وكأنه من أهل الدار، فيا لله أيُّ سعادة تغمرهم وهو ﷺ يدلي يده مع أيديهم معونة وبركة.

(١) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٩).

خلاصات:

١- كان ﷺ يقبل الدعوة من كل من دعاه، الرجال والنساء والموالي وغير المسلمين.

٢- لم يكن الذين يدعونه يتكلفون له وإنما يصنعون له ما تيسَّر عندهم.

٣- كان يجيب الدعوة إلى نواحي المدينة المتباعدة، ولذا سعد أهل كل ناحية بزياراته لهم.

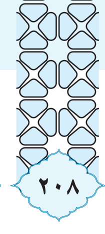
٤- كان من هديه الاستئذان لمن تبعه ممن لم يُدع حتى يرفع الحرج عن الداعي.

٥- كانت دعوات الصحابة للنبي ﷺ بداعي الحب له والتبرك بزيارته وربما كانت للتأثر بحاله إذا رأوا عليه مظاهر الجهد والجوع.

٦- كان يستأذن على الباب ثلاثاً، ويقف متجافياً عن الباب ولا يواجهه.

٧- كان يدعو لمن زارهم وأكل عندهم ويظهر التلذذ بضيافتهم وما قدموه له.





الرَّسُولُ ﷺ وأصحابه

أولاً: كم استوقفني هذا اللقب الشريف وما فيه من دلالة وإيحاء: صحابة رسول الله ﷺ.

إن لهذه التسمية الشريفة معناها الذي توحي به، وهو الاستقلالية، واستواء الشخصية مع النبي ﷺ، فلم يوصفوا بالأتباع ولا بالمريدين ولا الطلاب، ولكن الأصحاب الذين معه: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ**﴾.

وكان الذي اختار لهم هذا الاسم الذي هو وسام شرف ولقب تشريف هو النبي ﷺ، فقد وقف ﷺ على قبور أصحابه في البقيع فسلم عليهم ودعا لهم ثم قال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**». فقال أصحابه حوله: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَك يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»[(١)]، وكما سماهم أصحابه سمى نفسه صاحبهم، فقال وهو يصف أباه إبراهيم عليه السلام: «**وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ، فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ**»[(٢)].

وكما كانت هذه التسمية التي سماهم بها لها هذه الدلالة، فكذلك كان تعامله معهم وفق هذه الحالة، وهي الصحبة التي يصف الله معالمها في قوله: ﴿فَبِمَا

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

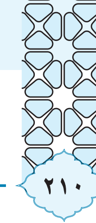
(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٦).

رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾.

فهذه الآية كما هي ثناء على الخُلُقِ النبوي العظيم في التعامل مع الصحابة فهي ثناء على شخصيات الصحابة وأنهم لو عوملوا بغلظة لأَنَفُوا ونفروا، وذلك لكمال شخصياتهم، وأنهم اتبعوا النبي ﷺ إيماناً واقتناعاً وليس عسفاً وإكراهاً، ولذا كانوا حول النبي بكامل شخصياتهم، وقد أطلق لهم ﷺ آفاق الاقتدار فكان كل منهم حاضراً باستواء، ليس فيهم منتقص الشخصية، ولا مقموع المواهب، ومع أنهم حول النبي ﷺ إلا أن وهج شمسه لم تطفئ أنوار نجومهم، وهذا خلاف ما تراه في كثير من الشخصيات القيادية التي تطمس مواهب من حولها، وتمتص قدراتهم، وتذيبهم في شخصية القائد.

أما أصحاب النبي ﷺ فكان وجودهم حوله فرصة لاستثارة مواهبهم وميزاتهم، وامتدادهم بكامل لياقتهم، فكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي بكامل شخصياتهم حول النبي ﷺ، وبحضورهم الفاعل المميز في حياته، ولكلٍ مساره ومواهبه حتى لنجد سلمان الفارسي وهو حديث عهد بحرّيّة يشارك في غرفة القيادة قبل معركة الأحزاب، ويشير بالخطة العسكرية فتعتمد وتنفذ، ولم تغمر شخصيته ولا رأيه.

ويمر ﷺ في الطريق بجمع من أصحابه جلوس في فناء على الطريق فيقول: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ



مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**». قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**»[1].

إن هذا الحوار يبين كيف كان الصحابة في حال حوار حيوي مع النبي ﷺ، وتفاعل مع التوجيه حين يتلقونه منه، فعرضوا وجهة نظرهم، وفقهوا أن هذا النهي مقصودٌ لغيره وليس مقصودا لذاته، ولذا أبدوا رأيهم، وتلقاه النبي ﷺ فاستجاب لهم مع إعطائهم ضوابط لهذه الحالة.

ومثل ذلك: مبادرة الحباب بن المنذر يوم بدر حين قال عن منزل النبي ﷺ: أهو منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: «**بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ**»[2]. فقال: ليس هو المنزل يا رسول الله، واقترح على النبي ﷺ أن ينزل في الماء الذي يلي القوم حتى يمنعهم مما وراءه، فاستجاب له النبي ﷺ وصوب رأيه.

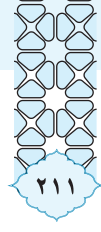
وقد كان النبي ﷺ يستثير استقلالية الشخصية لديهم بكثرة المشورة لهم حتى قال أبو هريرة: ما كان أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[3].

ثانياً: نجد صحابة النبي ﷺ منذ بداية الدعوة الأولى متنوعين في أجناسهم وقبائلهم وبلدانهم، ففي طلائع البعثة النبوية في مكة كان معه أبو بكر القرشي، وبلال الحبشي، وابن مسعود الهذلي، وسالم مولى أبي حذيفة الفارسي، وصهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، ومنهم أهل المدن

(١) «صحيح مسلم» (٢١٢١).

(٢) «المستدرك» (٥٨٠١).

(٣) «جامع الترمذي» (١٧١٤).



والأعراب فكان الصحابة تجمعا عالميا منذ بدايات الدعوة وإشراقها الأول[١]، ثم كثر هذا التنوع بعد الهجرة، وكانت الصُفَّة تجمع النزّاع من القبائل، ثم بعد الفتح استقبل الوفود من جميع أنحاء الجزيرة ومع ذلك استوعب ﷺ هؤلاء كلهم على تنوعهم واحتواهم جميعا، ولم يشعر أحد بالبعد ولا الغربة بمحضر النبي ﷺ.

ثالثاً: الحضور النبوي في حياتهم، فكان ﷺ مشاركاً لهم في أفراحهم وآلامهم وأحزانهم، والمتأمل لحال النبي ﷺ في تواصله مع أصحابه ومشاركته لهم يشعر وكأن النبي ﷺ كان متفرغاً لهذا الأمر بكليته وكل وقته، فهو يقصدهم بالزيارة، ويجيب دعوتهم، ويشهد أفراحهم، فهؤلاء بنو سَلِمة يدعون رسول الله ﷺ ليشهد عندهم نحر جزور، وكان نحر الجزور مناسبةً لها احتفاليتها لقلة اللحم عندهم، ولذا دعوا النبي ﷺ لشهود هذه المناسبة فحضر إليهم بعد صلاة العصر والجزور لما تنحر، فنحرت ثم احتبسوا النبي ﷺ حتى يأكل منها[٢]، فإذا كان النبي ﷺ يشاركهم فرحة هذه المناسبة ويؤنسهم بالأكل منها فما بالك بأفراحهم في زواجهم ومسراتهم؟

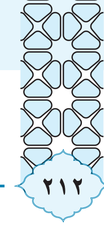
ومن مشاركتهم أفراحهم ما حدث به أبو أسيد الساعدي أنه دَعَا النَّبِيَّ ﷺ لِعُرْسِهِ، فَكَانَتِ امْرَأَتُهُ خَادِمَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَهِيَ العَرُوسُ، فَقَالَتْ أَوْ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَنْقَعَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ؟ أَنْقَعَتْ لَهُ تَمَرَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ فِي تَوْرٍ[٣]،

---

(١) وللدكتور محمد أفندي أوغلو بحث عن الصحابة من غير العرب فذكر أن منهم (٤٥) من الأحباش، و(١٧) من الفرس، و(٨) من القبط، و(٧) من الروم، و(٤٣) من بني إسرائيل.

(٢) «صحيح مسلم» (٦٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥١٨٣). والتَّوْر: إناء من صُفر أو حجارة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٩٩).



فانظر إلى يسر الحياة مع الرسول ﷺ، فهذه دعوة لعرس والخادم هي العروس، والضيافة ماءٌ نقعت فيه تمرات.

وعن الربيع بنت معوذ قالت: دَخلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَداةَ بُنِيَ عَلَيَّ[(١)]، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[(٢)]. إنها دعوة عرس ولم يكن ثم فراش يجلس عليه إلا فراش العروس، فيشركهم فرحهم، ويسمع غناء الجواري حوله، لتبقى ذكرى الزيارة خالدة تُحدث بها هذه العروس التابعين إذا زاروها.

وكما كان يؤنسهم في أفراحهم كان يشاركهم آلامهم ويعودهم في أمراضهم يقول جابر بن عَبْدِ الله رضي الله عنهما: مَرِضْتُ مَرَضاً، فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا مَاشِيَانِ، فَوَجَدَانِي أُغْمِيَ عَلَيَّ، فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ. فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ[(٣)]. ولك أن تتخيل شعور جابر ومشاعره حين يفيق من إغمائه فإذا النبي ﷺ أمامه وأنوار وجهه تغمره.

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «قَدْ قَضَى؟». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ

---

(١) غداة بُنِي عَلَيَّ، أي: صبيحة عرسي.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٥١)، و«صحيح مسلم» (١٦١٦).

بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا[١]. ولك أن تتخيل شعور سعد بن عبادة عندما يفيق من إغمائه فيعلم أن النبي ﷺ زاره، وأن دموعه تناثرت شفقةً عليه، وما أثر هذا المشهد على أبناء سعد وقرابته؟ إنها مشاهد آسرة للقلوب.

وكانت مشاعره تتفاعل مع أفراحهم ومباهجهم فيغمره الفرح، ويطفح السرور على وجهه، فعندما نزلت توبة الله على كعب بن مالك بعد تخلفه عن غزوة تبوك توجَّه قاصداً مسجد رسول الله ﷺ ليسلم عليه، قال كعب: فلما سلَّمتُ عليه قال: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**». فقلت: أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لَا؛ بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[٢]. فهذا السرور الطافح على محياه فرحٌ لهم.

وقالت عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم مسروراً تبرق أسارير وجهه، فقال: «**يَا عَائِشَةُ! أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزاً الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْداً، وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[٣].

فحصل منه هذا الفرح لقول مجزِّز وهو معروف بالقيافة وإلحاق النسب؛ لأن زيداً والد أسامة، وزيد أبيض وأسامة أسود، فكان ذلك مما يُرجِف به مَن يطعنون في نسب أسامة، ففرح النبي ﷺ بكلام القائف، حتى جاء يبشر عائشة مسروراً بذلك وطفح السرور على محياه فاستنار وجهه حتى

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٧١١)، و«صحيح مسلم» (١٤٥٩).

كأن ضياءَ البرقِ يسطعُ في أسارير جبينه فرحاً لأسامة وزيد؛ لأنه سمع ما يدفع عنهما هذه المطاعن.

إن هذا التمازج المشاعري بينه ﷺ وبين وأصحابه جعلت أفراحه وأحزانه معهم ولهم، فعاشوا في وجدانه حباً، وفي مشاعره فرحاً وحزناً.

ويجمع وصف النبي ﷺ في حضوره في حياة أصحابه، وخلطته بهم، والقيام بأمرهم قول عثمان رضي الله عنه: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير(١).

رابعاً: حضورهم في حياته بالسؤال عنهم وتفقدهم، وإنك لتعجب من كثرة مشاغل النبي ﷺ وضخامة مسؤولياته وكثرة الأصحاب حوله ثم نجده يسأل عمن يفتقده، ويتفقد من غاب عنه، فها هو يخرج إلى تبوك ومعه ثلاثون ألفاً فلما وصل تبوك سأل فقال: «**مَا صَنَعَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟**»(٢)، فكيف فقده مع أشغال السفر ووعثائه وكثرة الجيش معه؟!

وفي حجة الوداع ومعه أكثر من مئة ألف يفتقد سعد بن أبي وقاص فيعوده وهو مريض ويدعو له ويبشره(٣)، ويبقى المشهد خالداً في وجدان سعد يتذكره ويرويه إلى أن توفي بعد نصف قرن من تلك الزيارة.

وعن مُعَاوِيَةَ بْنَ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: كَانَ نَبِيُّ الله ﷺ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ

(١) «مسند أحمد» (٥٠٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٦٢٨)، و«صحيح مسلم» (١٦١٦).

بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلَكَ فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الحَلْقَةَ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا لِي لَا أَرَى فُلَاناً؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، بُنَيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا فُلَانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَداً إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ**». قَالَ: يَا نَبِيَّ الله، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: «**فَذَاكَ لَكَ**»[(١)].

فانظر كيف فقده حين غاب فسأل عنه، ثم سأله حين لقيه، ثم عزَّاه بولده وواساه وبشره بالمثوبة وعظيم الجزاء.

وعندما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع جاءته أم معقل فلما سلمت عليه قال لها: «**يَا أُمَّ مَعْقِلٍ! مَا مَنَعَكِ أَنْ تَخْرُجِي مَعَنَا؟**». قالت: يا رسول الله، لقد تهيأنا، فهلك أبو معقل، وكان لنا جمل وهو الذي نحج عليه فأوصى به أبو معقل في سبيل الله، فقال: «**فَهَلَّا خَرَجْتِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ الله، فَأَمَّا إِذْ فَاتَتْكِ هَذِهِ الحَجَّةُ مَعَنَا فَاعْتَمِرِي فِي رَمَضَانَ فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ**»[(٢)].

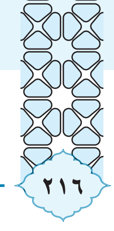
ولك أن تتخيل أثر سؤال النبي ﷺ على أم معقل: «**مَا لَكِ لَمْ تَحُجِّي مَعَنَا؟**». كيف فقدها ومعه الألوف الزاحفة؟ كيف فقدها وهو المشغول بشأن الناس كلهم؟ كيف فقدها ثم ها هو الآن يسألها؟ لا أستطيع أن أتخيل فرحها وزهوها بهذا السؤال، وشعورها باهتمام النبي ﷺ بها.

إنها البراعة النبوية في إشعار كل أحد بأهميته، حتى تجد امرأة من عامة المسلمين مكانها من اهتمام النبي ﷺ وتفقده وسؤاله، فليس أحد في حياة النبي مغموراً أو مهمشاً!

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٨٨).

(٢) «سنن أبي داود» (١٩٨٩).



فكل من غاب عن النبي ﷺ من أصحابه فهو حاضر عنده بالسؤال عنه، ومعرفة حاله وتعاهده، فعن أنس بن مالك أن فتى من الأنصار قال: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أُرِيدُ الجِهَادَ وَلَيْسَ عندي مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ الأَنْصَارِيِّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ**». فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ، قَالَ: يَا فُلَانَةُ، أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئاً، فَوَالله لَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئاً فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ[(١)].

وهنا ترى معرفة النبي ﷺ بحال هذا الأنصاري وأنه تجهز واستعد للجهاد ثم مرض، ولذا أرسل الفتى إليه، وهذه المعرفة لا تكون إلا عن متابعة واهتمام بحاله.

خامساً: استيعابه لهم جميعاً واتساع حياته حتى شمل صغيرهم وكبيرهم واحتوى ضعفاءهم ومساكينهم، وواسى فقراءهم، وشملهم جميعاً بره وإحسانه، ولم يكن أحد منهم يشعر بإقصاء أو تهميش أو دونية مهما كان شأنه.

وكان يقول: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**»[(٢)].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ مِسْكِينَةً مَرِضَتْ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَرَضِهَا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعُودُ المَسَاكِينَ، وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَتْ فَآذِنُونِي بِهَا**». فَخُرِجَ بِجَنَازَتِهَا لَيْلاً، فَكَرِهُوا أَنْ يُوقِظُوا رَسُولَ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ أُخْبِرَ بِالَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهَا، فَقَالَ: «**أَلَمْ آمُرْكُمْ أَنْ تُؤْذِنُونِي بِهَا؟**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَرِهْنَا أَنْ

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٦).

نُخْرِجَكَ لَيْلاً وَنُوقِظَكَ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى صَفَّ بِالنَّاسِ عَلَى قَبْرِهَا، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ[(١)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ[(٢)].

سادساً: وكان ﷺ شديد الرعاية لعلاقاتهم بحمايتها من تداعيات النزاع والاختلاف، ولذا يسعى في الإصلاح واحتواء الخلاف عند أي بادرة نزاع، ومن ذلك: سعيه إلى الإصلاح بين بني عمرو بن عوف لما حصلت بينهم الخصومة، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولَ الله ﷺ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ قَدْ اقْتَتَلُوا وَتَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ، وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَأَقَامَ بِلَالُ الصَّلَاةَ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ حَيْثُ ذَهَبَ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ حَتَّى بَلَغَ الصَّفَّ[(٣)].

ويظهر في ذلك مسارعة النبي ﷺ إلى الإصلاح بين أصحابه مع أن هؤلاء في مكان بعيد، فإن منازل بني عمرو بن عوف في قباء جنوب المدينة وهي نائية عن مسجده، ومع ذلك ذهب إليهم من فوره وبقي عندهم حتى أصلح بينهم ولم يرجع إلى مسجده إلا وقد استبطأه الناس وأقاموا صلاتهم. وكل ذلك مبادرة منه ﷺ إلى الإصلاح قبل أن يتطور الخلاف وتشتد الخصومة.

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٩٠٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٧٢).
(٣) «مسند أحمد» (٢٢٨٦٣).

وعَنْ كَعْب بن مالك، أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْناً كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سَجْفَ[1] حُجْرَتِهِ، فَنَادَى: «**يَا كَعْبُ**». قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا**». وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ: أَيِ الشَّطْرَ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قُمْ فَاقْضِهِ**»[2].

سابعاً: إظهار فضلهم ورعاية مكانة أهل السابقة منهم والدفاع عنهم أن يؤذوا أو ينتقصوا، ومن ذلك: أن ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكاً مِنَ شجرة الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ فتكشف عن ساقيه، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**». قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[3].

وعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَالله مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا وكان ذلك في فترة الهدنة قبل أن يسلم أبو سفيان، قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لهم: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ**». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي[4].

ثامناً: وكان من أثر ذلك حياتُه في حياتِهم، وعمقه في قلوبهم، فما يشغله هو شُغلهم، وما يهمّه هو هَمُّهم، ومن ذلك: خبر عمر مع جاره الأنصاري؛

---

(١) السَّجْف: الستر. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٤).

(٣) «مسند أحمد» (٣٩٩١).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٠٤).

قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا تحدثنا أن غسان تُنعِل الخيلَ لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاءً، فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول؛ طلق رسول الله نساءه، قلت: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت عليَّ ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مَشْرُبةً[1] له فاعتزل فيها، فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم[2].

لقد كان استقرار البيت النبوي شاغِلُهم، ولذا لما ظنوا أن النبي ﷺ طلق نساءه كان ذلك أشد عليهم من غزو الروم للمدينة، وكان مصاباً عاماً لهم جميعاً، حتى أفزع جار عمر، فطرق عليه الباب طرقاً شديداً لشدة فزعه وتأثره، وعندما قال له عمر: هل جاء العدو؟ قال: بل أشد من ذلك وأطول، ولما دخل عمر المسجد وجد الناس جلوساً عند المنبر يبكون، وكأن المصيبة في كل بيت من بيوتهم، بل في كل قلب من قلوبهم.

ولذا كان حديثهم بعده هو حديثهم عنه: كنت مع رسول الله، قال لنا رسول الله، خرج علينا رسول الله، رأيت رسول الله. وبقيت عواطفهم مرتبطة به، وأشواقهم متوجهة إليه، وألسنتهم لهجة بذكره.

خطب أبو بكر على منبر النبي ﷺ، وَقَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ عَامَ

(١) المشربة: الغرفة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

أَوَّلٍ فَخَنَقَتْهُ العَبْرَةُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِثْلَ اليَقِينِ بَعْدَ المُعَافَاةِ، وَلَا أَشَدَّ مِنَ الرِّيبَةِ بَعْدَ الكُفْرِ**»[1].

وعن أبي هريرة أنه مرَّ بقوم وبين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[2]. إن أبا هريرة تذكر في تلك الساعة ما مر بالنبي ﷺ من القلة والشدة فالتاعت نفسه ولم يشته أكل اللحم المشوي في هذه الساعة لشدة انفعاله بذكرى النبي ﷺ، ولذا لم ينه الذين كانوا يأكلون ولم ينكر عليهم، ولكن ذكرى النبي ﷺ هيجته حتى أعرض عن الطعام.

وقال عمرو بن ميمون: قلما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فما سمعته لشيء قط يقول: قال رسول الله ﷺ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ، قَالَ: وَهُوَ قَائِمٌ مَحْلُولٌ أَزْرَارُ قَمِيصِهِ، قَدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ: أَوْ دُونَ ذَاكَ، أَوْ فَوْقَ ذَاكَ، أَوْ قَرِيباً مِنْ ذَاكَ، أَوْ شَبِيهاً بِذَاكَ[3]، فانظر حال ابن مسعود وتهيجه لذكر النبي ﷺ، وهيبته لحديثه، وشدة تأثره بذلك.

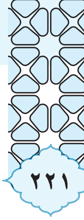
تاسعاً: وكانوا يتحدثون بعد ذلك عن ذكرياتهم مع رسول الله ﷺ وكأنهم ما زالوا يعيشونها، ويجدون ذواق لذاذتها.

فعَنْ رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو المُزَنِيِّ، قَالَ: أَقْبَلْتُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعَبِّرُ عَنْهُ، وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ جَالِسٍ وَقَائِمٍ، فَجَلَسَ أَبِي، وتخَلَّلْتُ

(١) «مسند أحمد» (٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤١٤).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٣).



الرِّكَابَ حَتَّى أَتَيْتُ البَغْلَةَ، فَأَخَذْتُ بِرِكَابِهِ، وَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى رُكْبَتِهِ، فَمَسَحْتُ حَتَّى السَّاقِ حَتَّى بَلَغْتُ بِهَا القَدَمَ، ثُمَّ أَدْخَلْتُ كَفِّي بَيْنَ النَّعْلِ وَالقَدَمِ فَيُخَيَّلُ إِلَيَّ السَّاعَةَ أَنِّي أَجِدُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى كَفِّي[(١)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْداً أَوْ رِيحاً كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[(٢)].

وعن صَفِيَّةَ بِنْتِ بَحْرَةَ قَالَتْ: رَأَيْتُ أَبَا مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا قَعَدَ يَضَعُ قُصَّتَهُ[(٣)] فِي الأَرْضِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ مَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، وَلَا أَحْلِقُ مَوْضِعَ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(٤)].

عاشراً: حَمَّلَهم مسؤولية ما بعث به حتى صارت أعمارهم كأنها بقية عمره، فقد نفروا لبلاغ دينه، ونشروا رسالته، وحفظوا ميراثه، ثم أدوه كما وعوه، فكانت حياتهم مع النبي ﷺ رَصْداً لحياته، وحفظاً لسنته، وتعظيما لشريعته؛ ولذا بلغوا سنته كما سمعوها، وبلغوا مع السنة توقيرها، ومع الدين تعظيمه، فكانوا خير رسول لرسول الله ﷺ، وأفضل مبلغ عنه.

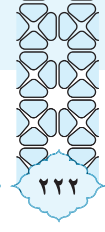
وكان لهم غيرة على حديث النبي ومهابة وتعظيم له، فعَنْ أَبِي السَّوَّارِ العَدَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**». فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: مَكْتُوبٌ فِي الحِكْمَةِ: إِنَّ مِنَ الحَيَاءِ

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٣) القُصّة هي شعر الناصية. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩٦).

(٤) «أخبار مكة» للفاكهي (١٣١٢).



وَقاراً، وَإِنَّ مِنَ الحَيَاءِ سَكِينَةً. فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ[(١)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ أَنْ يُصَلِّينَ فِي المَسْجِدِ**». فَقَالَ ابْنٌ لَهُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ، فَقَالَ: فَغَضِبَ غَضَباً شَدِيداً، وَقَالَ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وتقولُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ؟[(٢)].

إن هذا التعظيم البالغ لمقام النبي ﷺ وكلامه وسنته يبين عظيم مكانته، ورفيع منزلته في نفوس أصحابه، وأنه حب امتزج بالتعظيم له، والحمية لدينه، والغيرة على سنته، حتى تظهر منهم بادرات الغضب لما يرونه تقصيراً في تعظيم التلقِّي عنه ﷺ، فصلى الله على النبي الذي استنبت في قلوبهم هذا الحب الإيماني، ورضي الله عن أصحابه الذين بقوا أوفياء له محبةً وتعظيما، واتباعاً وتوقيراً.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

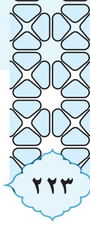
خلاصات:

١- كان أصحابه حوله بكامل شخصياتهم واستقلالهم واستوائهم، ولم يكن وهج شمسه يطفئ أنوار نجومهم.

٢- كانوا متنوعين في أجناسهم وقبائلهم وبلدانهم، واحتواهم جميعاً، ولم يشعر أحد عنده بالبعد أو الغربة.

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٧)، و«صحيح مسلم» (٣٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٤٢).



٣- كان له حضور قوي في حياتهم، ومشاركة في أفراحهم وأحزانهم وآلامهم.

٤- كانوا حاضرين في وجدانه، ولذا يفقدهم ويسأل عنهم، ويتابع شأنهم.

٥- شملت رعايته صغيرهم وكبيرهم، واحتوى ضعفاءهم ومساكينهم، وما شعر أحد بدونية أو تهميش.

٦- سعيه في الإصلاح بينهم واحتواء خلافاتهم عند أي بادرة نزاع.

٧- حسن رعايته لمكانتهم وسابقة أهل السابقة منهم، وتوليه الدفاع عنهم.

٨- بقي حياً في حياتهم وذاكرتهم وذكرياتهم، فكان حديثهم في حياته معه، وبعد وفاته عنه، وبقوا يتذكرون مشاهدهم معه وكأنهم ما زالوا يعيشونها.

٩- حملهم مسؤولية بلاغ ما بلغه، واتبعوه بما بُعث به، فكأنما أعمارهم بقية عمره.



الرَّسُولُ ﷺ والخاطِئون

أحبَّ عبدُ الله رسولَ الله ﷺ كأشدِّ ما يكون الحب، وكان لحبه لرسول الله ﷺ يتشهَّى له كل طُرْفة طعام يراها تدخل المدينة؛ فربما جاء الأعرابي بعُكة[١] السمن أو العسل، فيأخذها منه، ويهديها للنبي ﷺ، فإذا جاءه صاحبها يتقاضاه الثمن جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: أعطِ هذا الثمن. فيقول رسول الله ﷺ: «**ألم تهدِه إليَّ؟**». فيقول: بلى، يا رسول الله، ولكن ليس عندي ثمنه[٢]. فما يزيد رسول الله ﷺ أن يضاحكه، ويأمر لصاحبه بالثمن.

إن هذه الممازحة اللطيفة تعكس الالف النفسي والعشرة الجميلة بينه وبين رسول الله ﷺ.

وكان عبد الله هذا مُبتلىً بشرب الخمر، مُكثِراً منها، وكثيراً ما أُتي به إلى النبي ﷺ ثَمِلاً من السُّكر؛ فيأمر بجلده، فجيء به يوماً كذلك، فلما جلده وانصرف، قال أحد الصحابة: اللهم العنْه، ما أكثر ما يُؤتى به. فإذا النبي

(١) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (١٢٧).

ﷺ يرد هذه المقولة ويقول: «**لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ لَيُحِبُّ اللهَ وَرَسولَهُ، لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[(١)].

إن هذا الموقف النبوي يقدم لنا بصائر نبوية في التعامل مع الخطأ والخاطئين، منها:

أولاً: يشدُّ بصرك هذا التآلف، بل التمازج بين هذا الصحابي على ما وقع فيه من خطأ مع رسول الله ﷺ، إنه إلف وحب، وممازحة وموادة، مما يكشف لنا أنه لم يكن ثمَّة تشطير في مجتمع النبوة، أو عزل لفئة منه لمعرَّة خطأ كان منها، وإنما الاندماج والتمازج بينهم على تفاوت مقاماتهم في الخير؛ فمنهم السابق، ومنهم المقتصد، ومنهم مَن ظلم نفسه، ولكن لم يكن أحد يعيش النَّبْذ أو النَّبْز أو الإقصاء، وإنما كان التآلف والاحتواء، وبذلك تظلُّ الأخطاء التي يقع فيها بعضهم محدودة الأثر والتداعيات؛ لأنها محاصَرة بهذا الجو التآلفي الكريم، الذي لا يُتيح لها التطور ولا التكاثر، وكلما عَثَر أحد بخطيئته آنس أيدي إخوانه تمسك بضَبْعيه أن يهوي من هذه العثرة، أو ينقطع عنهم بسبب هذه الزَّلة.

ثانياً: النظر إلى المساحة الإيجابية في نفس عبد الله، وهو حبه الله ورسوله، وليست هذه مَنْقَبة خاصة بعبد الله، ولكنها الخصلة التي يشركه فيها كل مؤمن، فلا يصحُّ إيمانٌ إلا بحبِّ الله ورسوله، ولكن النبي ﷺ أبرز هذه الخصلة، وامتدح الرجل بها، وهو أسلوب تربوي فريد، يترتب عليه توسيع مساحة الخير في النفوس، وتأكيد انتسابها إليه، وارتفاعها به، وإن حصلت منها الهفوات فلا تكبِّلها، ولا تجترُّها للقاع، ولك أن تتصور

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).

نفس عبد الله هذا، وقد بلغته مقولة النبي ﷺ عنه، فأيُّ نشوة ورفعة تستثيرها فيه تلك المقولة، حتى لكأنما يُعرج بنفسه إلى أفق أعلى يسمو به فوق هذه الخطايا والهنَات؟!

إن هذا لمن أقوى الأسباب للتخلص من هذه الخطايا، والتأكيد لنفسه أن هذه هفوات عارضة، وليست الأصل في حاله، ولا الحاكم لنا عليه، فالأصل فيه حب الله ورسوله، وكما قال ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة عندما حاول إفشاء السر العسكري لأهل مكة قبل الفتح، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «**إِنَّه شَهِدَ بَدْراً، وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللهَ** ﷻ **اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[١]. فذكر سابقته وجهاده، ومساحة الخير الواسعة في نفسه، والتي لا يحجبها هذا الموقف ولا يلغيها.

ثالثاً: إن هذا الذنب خطأ ظاهر؛ بل كبيرة من الكبائر، لا مجال فيه لاحتمال الخطأ أو التأوُّل، إنها الخمر التي لعن فيها النبي ﷺ عشرة[٢]، ومع ذلك فإن النبي ﷺ الذي أقام عليه حدَّ الخمر، قد حفظ حقَّه أن يُستطال عليه بأكثر من العقوبة الشرعية التي نالها، أما السب واللعن فهو قدر زائد عن العقوبة الشرعية ولذلك نهى عنه، ورأى ذلك من معونة الشيطان عليه.

رابعاً: ربما احتاج ﷺ في علاج بعض الأخطاء إلى قدرٍ من الشدة وإظهار التأثر الذي يبين مقدار الخطأ وليس ذلك مع كل خطأ ولا مع كل خاطئ، وإنما يكون ذلك مع الخطأ الكبير، ومع من يفيده ذلك ويؤثر فيه

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٦٧٤).

ولا يُنفِّره، ومن ذلك: موقفه من أسامة بن زيد لما قتل رجلا من المشركين بعد أن قال: لا إله إلا الله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستدعاه وقال له: «**يَا أُسَامَةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**». قال: يا رسول الله، إنما قالها مخافة السلاح والقتل. فقال: «**أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَمْ لَا؟! كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!**». فخاطب أسامة النبيَّ ﷺ خطاب المعترف المستعتب، قائلاً: يا رسول الله، استغفر لي، فأعاد عليه ما قال: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!**». فكرر عليه أسامة: ورسول الله ﷺ لا يزيد في جوابه على قوله: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!**»[1]. حتى كُرِب أسامة لذلك كَرْباً شديداً، تمنَّى معه أنه لم يكن أسلم إلا هذه الساعة؛ حتى يهدم إسلامه ما كان قبله، ويأمن جَريرة فعلته.

وقد بقي أثر ذلك التأديب النبوي عميقاً في نفس أسامة، فكان أكف الناس عند كل فتنة يخشى أن يكون مِنْ قتلاها مَن يشهد أن لا إله إلا الله، حتى كان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: لا أقاتل مسلماً حتى يقاتله أسامة؛ لشدة ما يرى من توقِّيه واحتياطه فيما يلتبس من أمر الدماء[2].

وكذلك موقفه ﷺ من أبي ذر حينما عيَّر رجلاً من الخدم بأمه السوداء فدعاه ﷺ وقال له: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». قَالَ أبو ذر: عَلَى سَاعَتِي هذه مِنَ الكِبَرِ؟ قَالَ: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**[3] **جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ**

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٦٩)، و«صحيح مسلم» (٩٦).

(٢) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٨/ ٢٦٥)، و«المفهم» للقرطبي (١/ ٢٩٣-٢٩٨)، و«شرح النووي على مسلم» (٢/ ٩٩)، و«فتح الباري» (٧/ ٥١٨)، (١٢/ ١٩٥)، و«عمدة القاري» (٢٤/ ٢٦٠).

(٣) الخَوَل: هم حشَم الرجل وأتباعه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٨).

أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيُلْبِسْهُ مِنْ ثِيَابِهِ، وَإِنْ كَلَّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ»(١).

وهذه الكلمة وهي الوصف بخلق الجاهلية، كلمة شديدة أثرت في أبي ذر حتى قال: على ساعتي هذه من كبر السن، فهو من السابقين الأولين إلى الإسلام فكيف يوصف بأن فيه جاهلية، فبين له النبي ﷺ مأخذ ذلك، وطريقة معاملة الخدم واستشعار حقوقهم.

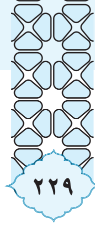
ولذا أثر ذلك في أبي ذر والتزمه بقية عمره، وقد كان سبب روايته لهذا الحديث أنه في آخر عمره حين سكن الربذة كان معه خادم له وكان قد كساه حلة من جنس ما لبسه هو، فاستغرب ذلك بعض من رأوه وسألوه عن ذلك، فذكر لهم هذا الحديث، فانظر التزام أبي ذر بذلك إلى آخر عمره، وتطبيقه ذلك بأعلى صور المساواة بحيث قسم الحلة بينه وبين خادمه.

خامساً: عندما يكون سبب الخطأ الجهل فإنه ﷺ يصحح الخطأ بالتعليم الرفيق، كما في حديث معاوية بن الحكم قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: **«إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»**(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٦٦١).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٣٧).



وكما في حديث الأعرابي الذي بَالَ في المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا به، فَقَالَ لهمْ رَسولُ الله ﷺ: «**دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِن مَاءٍ؛ فإِنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[١].

ويلاحظ في هذه الأخطاء أنها بسبب الجهل وليس دافعها شهوة كشهوة الانتقام أو الغضب أو الطمع ونحوه، ولذا فإن النبي ﷺ يرفع الجهل بالتعليم الرفيق ولذا أثر ذلك في معاوية بن الحكم فقال: فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.

وأثر في الأعرابي فقال بعد ما فَقِه: فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي، فَلَمْ يُؤَنِّبْ، وَلَمْ يَسُبَّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا المَسْجِدَ لَا يُبَالُ فِيهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ الله وَلِلصَّلَاةِ..**»[٢].

سادساً: إغلاق الخطأ وعدم استتباعه باللوم والعتاب، فحين خَطَب يوم الجمعة وجاءت القافلة فانفضوا إليها وتركوه قائماً، نزل القرآن: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، فاكتفى ﷺ بالعتاب القرآني ولم يزد عليه، ولم يجعلها وصمة لمن قام، ومن ثمَّ نُقلت لنا أسماء بعض من جلسوا ولم تنقل أسماء من قاموا[٣].

وفي الحديبية أمر الناس بالحلق والنحر فتأخروا عليه حتى غضب، فكان حل الموضوع أن يخرج فيحلق وينحر فتتابعوا بعده، ثم لم يعاتب ولم يعاقب[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٥٢٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وفي قصة حاطب استدعاه وسأله وقبل عذره، ثم أغلقت القضية فلم تذكر بعد لحاطب ولم يُذَكَّر بها(١).

والجامع بين هذه المواقف تصحيح الخطأ مع احتوائه فلا يتمدد، وعدم استتباع الخطأ بالملامة والعتاب، وإنما يغلق في حينه وتستأنف الحياة.

سابعاً: مساعدتهم على تجاوز الخطأ وعدم حبسهم في الإدانة، كما في قصة المخزومية التي سرقت وأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَقُطِعَتْ يَدُهَا، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ(٢).

فقد تم احتواء هذه التائبة بعد خطئها حتى كان بيته ﷺ مأواها لقضاء حوائجها.

ثامناً: عدم مواجهة المخطئ والاكتفاء بالتوجيه العام إذا أمكن تصحيح الخطأ بذلك، ولذا كان ﷺ يصحح كثيراً من الأخطاء من غير تعيين المخطئ حتى لا يجرحه أو يحرجه، وإنما يكتفي بقوله: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ..**».

كما في حديث بريرة، حين اشترتها عائشة فاشترط ملاكها أن يكون لهم الولاء، وهو شرط غير صحيح، فقام ﷺ فخطب الناس وقال: «**فَما بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطاً ليسَتْ في كِتَابِ الله، مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ ليسَ في كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَهو بَاطِلٌ، وإنْ كانَ مِئَةَ شَرْطٍ، كِتَابُ الله أَحَقُّ، وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ، وَإِنَّمَا الوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**»(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٠٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٥٠٤).

ومن ذلك: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة، فكسع[(١)] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟**». قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[(٢)].

إن ما حصل هو دعوة جاهلية ظاهرة بيِّنة، ومع ذلك كانت طريقة النبي ﷺ في تكييف المشكلة ذكرها بصيغة سؤال، لا يحمل اتهاما لأحد ولا انتقاصا من أحد.

ثم قال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**». فانصب كلامه على الدعوى وقال: إنها منتنة، وليس وصفاً لمن دعا بها حتى يتوجه الانتقاص إليه.

لقد كان ﷺ يعالج الخطأ بطريقة فيها الكثير من اللباقة واللياقة والرفق، حتى كأنها عملية جراحية تجرى لمريض.

وبهذا الهدي الرفيق كان يصحح الخطأ فيهدي الضال، ويعلم الجاهل، ويأخذ بيد الضعيف، ويرد الشارد، دون استعلاء ولا استصغار.

خلاصات:

١- كان الذي يقع في الخطأ يبقى ممتزجاً مع المجتمع لا يُبعَد ولا يقمع، وإنما يحتويه التآلف المجتمعي الكريم.

٢- عند النظر إلى الخاطئ ينظر أيضاً إلى المساحة الإيجابية في نفسه وخصال الخير الباقية فيه.

---

(١) كَسَعَه: أي ضرب دبره بيده. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

٣- عندما توقع العقوبة الشرعية على الخاطئ فلا يجوز تخطيها أو البغي فيها، فحقه وعرضه محفوظ، والعقوبة بقدرها.

٤- ربما يحتاج في علاج بعض الأخطاء إلى قدر من الشِّدة التي تبيِّن مقدار الخطأ، وليس ذلك مع كل خطأ ولا كل خاطئ، ولكن حيث ينفع ذلك ولا يضر.

٥- عندما يكون سبب الخطأ هو الجهل فإنه يصحح بالتعليم الرفيق الحكيم.

٦- بعد تصحيح الخطأ يغلق ولا يستتبع بالملامة والتذكير.

٧- مساعدة المخطئ على تجاوز الخطأ، وعدم حبسه في الإدانة.

٨- الاكتفاء بالتعريض العام وعدم مواجهة المخطئ إذا كان ذلك كافياً في تصحيح الخطأ وتجاوزه.



الرَّسُولُ ﷺ والمخالفون

من حكمة الله في بعث الرسل أن جعلهم بشراً من البشر، شأنُهم الخلطة بالناس والتعايش معهم. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

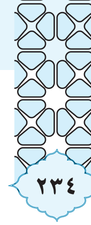
وكان في بيوت بعض أنبياء الله المخالف لهم في دينهم، ففي بيت نوح زوجته وابنه، وفي بيت إبراهيم أبوه، وفي بيت لوط زوجته، وفي أسرة نبينا ﷺ عمه أبو طالب، وعمه أبو لهب.

والتعايش الإنساني فطرة بشرية، ولذا عاش الناس منذ الأزل في تجمعات بشرية لأن في كلٍّ منهم ما يجذبه إلى غيره، فالإنسان مدني بالطبع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ولذا فإن الهدي النبوي في ذلك يُمثِّل الاستواء الفِطْري، والكمال الإنساني.

وقد وصف الله خُلق نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا وصف لعظمة خلق النبي ﷺ مع كل من يتعامل معهم من المتَّبعين



والمخالفين، وأمر الله بالقول الحسن لكل الناس فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾، ولفظ الناس عام يشمل المسلم والكافر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، فالجدال والحوار مع أهل الكتاب إنما هو بالأحسن من القول. ولذا كان للتعامل النبوي مع المخالفين سماته ومعالمه ومنها:

أولاً: التعايش الاجتماعي:

المخالطة العامة هي سمة المجتمع النبوي، ويظهر ذلك:

في صحيفة المدينة وفيها تنظيم العلاقة بين مواطني دولة المدينة من المسلمين وغيرهم.

وفي التمازج الاجتماعي والخلطة بين المسلمين وغيرهم؛ فقد مرَّ النبي ﷺ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فنزل إليهم وتحدث معهم[١]، ولم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس المختلط وإنما شاركهم المجلس.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، فنهى الله المسلمين عن الجلوس مع المشركين إذا خاضوا في آيات الله كفراً واستهزاءً وبدأوا في هذا الحديث، فإذا خاضوا في حديث غيره ارتفع الحظر فهو حظر مؤقت مرتبط بحديث معين فيقوم عنهم المسلم الجالس

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٨).

معهم احتجاجاً على هذا الحديث الباطل، فإذا خاضوا في حديث آخر رجع الحكم إلى أصله وهو جواز المعاشرة والمحادثة.

ثانياً: التزاور:

كان اليهود يدخلون بيت النبي ﷺ فيستضيفهم، ويجلس معهم.

والبيت هو مأوى الإنسان، وفيه خصوصيته، وتكرمته وضيافته، وإدخال أحد إلى البيت إكرام وتقريب، ومن ذلك:

١- الغلام اليهودي الذي كان في بيته ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ...(١)، وكان هذا الغلام يدخل بيته ويلى خاصة شأنه.

٢- وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا، فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ إِلَيْهَا شَيْئاً مِنَ الْمَعْرُوفِ، إِلَّا قَالَتْ لَهَا الْيَهُودِيَّةُ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ، قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**لَا، وَعَمَّ ذَاكَ؟**». قَالَتْ: هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ لَا نَصْنَعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، إِلَّا قَالَتْ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ، قَالَ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ، وَهُمْ عَلَى اللهِ عز وجل أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». قَالَتْ: ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ ذَاكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ مُشْتَمِلاً بِثَوْبِهِ، مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! أَظَلَّتْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ بَكَيْتُمْ كَثِيراً وَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً. أَيُّهَا النَّاسُ! اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ**»(٢).

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٥٢٠).

فهذه اليهودية كانت تخدم عائشة، وكانت عائشة تحسن إليها وتصنع لها المعروف، وكل ذلك كان بعلم النبي ﷺ ومراجعته.

٣- وعنها قَالَتْ: دَخلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا، وَدَخلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَتَا؛ إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا**». فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلاَةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[١].

قال الحافظ ابن حجر: وكلا الحديثين عن عائشة، وحاصله أنه لم يكن أوحي إليه أن المؤمنين يفتنون في القبور، فقال: «**إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ**». فجرى على ما كان عنده من علم ذلك، ثم لما علم بأن ذلك يقع لغير اليهود استعاذ منه وعلمه وأمر بإيقاعه في الصلاة ليكون أنجح في الإجابة[٢].

٤- وعن عائشةَ، قالَت: لم يُقتَلْ مِن نسائِهم ـ تعني بَني قُرَيْظةَ ـ إلَّا امرأةٌ، إنَّها لعِندي تُحدِّثُ تَضحَكُ ظَهْراً وبطناً، ورسولُ الله ﷺ يقتلُ رجالَهُم بالسُّيوفِ، إذ هتفَ هاتفٌ باسمِها أينَ فُلانةُ؟ قالَت: أنا. قلتُ: وما شأنُكِ؟ قالَت: حدثٌ أحدثْتُهُ. قالَت: فانطلقَ بِها فضُربَت عُنقُها، فما أنسَى عجباً مِنها أنَّها تَضحَكُ ظَهْراً وبطناً وقَد علِمَتْ أنَّها تُقتَلُ[٣].

إن نساء بني قريظة لم يقتل منهن إلا هذه المرأة المجرمة التي قتلت رجلاً من المسلمين[٤]، ومع أنها قاتلة وستقتل فلم تعامل بما يخدش

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٧٦).
(٣) «سنن أبي داود» (٢٦٧١).
(٤) «مغازي الواقدي» (٢/ ٥١٧).

إنسانيتها وإنما كانت في ضيافة زوجة النبي ﷺ وفي بيته، وكان التآنس والحديث والمفاكهة الضاحكة بينها وبين عائشة التي لم تكن تعلم جنايتها ولا مصيرها.

فإذا كان هذا التعامل مع المخالف الجاني، فكيف بالمخالف المسالم الموادع؟

٥- وعنها قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ[١] عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»[٢].

إن هؤلاء اليهود برغم وقاحتهم ودفين حقدهم، إلا أن بيوت النبي ﷺ تفتح لهم، وخلقه الكريم يستوعبهم، فيعاملهم بالرفق ويأمر به معاملتهم.

وكما استقبلهم في بيته فقد زارهم في بيوتهم، ومن ذلك:

١- عن أنس، أن يهوديا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه[٣].

٢- وعن جَابِرٍ أن يَهُودِيَّةً مِن أهلِ خيبَرَ سمَّت شاةً مصليَّةً، ثم أَهدتْها لرسولِ الله ﷺ، فأخذَ رسولُ الله ﷺ الذِّرَاعَ، فأكَلَ منها، وأكل رهطٌ مِنْ أصحابِه مَعَهُ، ثم قال لهم رسولُ الله ﷺ: «**ارفَعُوا أيدِيَكُمْ**». وأرسل

---

(١) السام: هو الْمَوْتُ الْعَاجِلُ. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥).

(٣) «مسند أحمد» (١٣٢٠١). وإهالة سنخة: هي شحم مذاب قد تغيرت رائحته. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٨٢).

رسول الله ﷺ إلى اليهوديةِ فدعاها، فقال لها: «**أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟**». قالتِ اليهوديةُ: من أخبَرَكَ؟ قال: «**أَخْبَرَتْنِي هَذِهِ فِي يَدِي**». للذراع، قالت: نعم...[(١)].

ودعا عظيم أنباط الشام عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنا قد صنعنا لك وللمسلمين طعاما فإن رأيت أن تحضره؟ فقال: وأين؟ فقال: في الكنيسة، فقال عمر: إن في كنائسكم الصور، والملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة، وإنا لا ندخل بيتا لا تدخله الملائكة، قالوا: يا أمير المؤمنين قد أنفقنا عليك نفقة وكلفنا فيه مؤنة، فقال عمر: يا علي انطلق فتغد وغد الناس، فقعد عليٌّ فجعل يتغدى ويغدي الناس، وعلي ينظر إلى تلك الصور التي في كنيستهم ويقول: ما كان على أمير المؤمنين أن لو دخل وتغدى[(٢)].

ثالثاً: الاستعانة بذوي النفوذ من غير المسلمين، ومنها:

١- الهجرة إلى النجاشي في الحبشة والإقامة في كنفه وهو على النصرانية.

٢- نصرة أبي طالب لرسول الله ﷺ وحمايته له وهو على دين قومه.

٣- نصرة بني هاشم وبني المطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ له ﷺ في حصار الشعب.

٤- دخوله ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي، فإنه لما رجع من الطائف أرسل إلى المطعم بن عدي يطلب جواره ليدخلها آمنا من

(١) «سنن أبي داود» (٤٥١٠).

(٢) «تاريخ دمشق» (٤٢/٦).

جراءة قومه عليه، وأذيتهم له، فأجاره المطعم بن عدي وسلَّمت قريش له جواره وذمته(١).

٥- ودخول أبي بكر مكة في جوار ابن الدغنة: فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِراً قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، فَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ(٢).

٦- والاستعانة بأدراع صفوان بن أمية وهو مشرك، فعن أمية بن صفوان ابن أمية، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين أدراعا، فقال: أغصبا يا محمد؟ قال: «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ**». قال: فضاع بعضها، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب(٣).

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١٨٠-١٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٢٩٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٥٦٢).

رابعاً: الاستعانة بذوي الأمانة والرأي منهم في المهمات، ومن ذلك:

١- حضور العباس بن عبد المطلب بيعة العقبة وهو مشرك ليستوثق لابن أخيه، وفي دعوة النبي ﷺ له، وإسناده أمر الحديث إليه وكأنه ولي أمر قرابته مشهد من التوقير النبوي لعمه وهو لا زال على دين قومه، ليت شعري لو أدرك النبي ﷺ أباه كيف سيكون بره وتوقيره له.

٢- اختيار عبد الله بن أريقط دليلاً في طريق الهجرة وهو مشرك ومع ذلك استأمنه على أمرٍ في غاية الأهمية والخطورة، وقد وافى ذلك عند ابن أريقط مروءةً ونبلاً وعزة نفس، ولذا كانت قريش تجزل العطاء لمن يدلها على رسول الله وصاحبه ومع ذلك لم تحدثه نفسه أن يخبر قريش فيفوز بالعطاء ويريح نفسه من عناء السفر، وإنما التزم بما عاهد عليه مروءة وحسن عهد.

خامساً: إقرار العلاقات الإنسانية:

العلاقات الإنسانية تعامل طبيعي كشأن التصرفات الحياتية التي تحتويها المساحة الواسعة في الدين وهي الإباحة والعفو، ولذلك لم يكن الصحابة يسألون النبي ﷺ عن كثير من تفاصيل التعامل مع غير المسلمين وإنما كانوا يعتبرونها شأناً حياتياً عاماً تحتويه مساحة الإباحة الواسعة، ومن ذلك:

١- قصة سعد بن معاذ وكَانَ صَدِيقاً لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِراً، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ...[1].

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يحذره عندما ذهب، ولم يسأله حين رجع.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٥٠).

٢- قصة أبي ذر لما قدم مكة في أول البعثة فلقي النبي ﷺ وسمع منه فأسلم، فأمره ﷺ أن يلحق بقومه المشركين، ولم يأمره بمعاملة خاصة لهم وإنما سيعود وسيعيش بينهم كما كان يعايشهم من قبل[(١)].

٣- قصة عمرو بن عبسة: لما قدم مكة في أول البعثة فلقي النبي ﷺ وسمع منه فأسلم وقال: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي...**»[(٢)].

وكذلك السابقون إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار الذين بقي آباؤهم وأقاربهم على الشرك، واستمر تعاملهم معهم تعاملاً إنسانيّاً طبيعيّاً.

سادساً: تبادل الهدايا معهم:

١- هدية أكيدر دومة إلى النبي ﷺ: فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُكَيْدِرَ دُومَةَ أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ جُبَّةَ سُنْدُسٍ، فَلَبِسَهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحَرَّمَ الحَرِيرُ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا وَالْيَنُ**»[(٣)].

٢- وهدية المقوقس إلى النبي ﷺ: فإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ حَاطِبَ ابْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ - يَعْنِي بِكِتَابِهِ مَعَهُ إِلَيْهِ - فَأَكْرَمَ حَاطِباً وَأَحْسَنَ نُزُلَهُ، ثُمَّ سَرَّحَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَهْدَى لَهُ مَعَ حَاطِبٍ كِسْوَةً وَبَغْلَةً بِسَرْجِهَا وَجَارِيَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا أُمُّ إِبْرَاهِيمَ[(٤)].

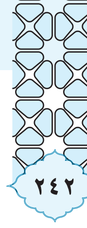
---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

(٤) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).



وقد كان ﷺ يقبل الهدية ويُثيب عليها، فالشأن أنه قد أثابهم عليها، أو أنه ابتدأهم بها.

٣- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَتْ رسول الله ﷺ حُلَلٌ، فَأَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ مِنْهَا حُلَّةً، فَكَسَاهَا عُمَرُ أَخاً لَهُ بِمَكَّةَ مُشْرِكاً[1].

٤- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِغُلَامِهِ: أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[2].

سابعاً: الإحسان إليهم والبر بهم:

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، والأسير مخالف معاد، جاء مقاتلا ثم أُسر، فلما أُسر صار محلاً للإحسان، ولذلك قال النبي ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْراً**»[3].

١-كَانَ أَبُو عَزِيز بْنُ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمٍ، أَخُو مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ فِي أسارى بدر. قَالَ: كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنْ الأَنْصارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ، فَكَانُوا إذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصُّونِي بِالْخُبْزِ، وَأَكَلُوا التَّمْرَ، لِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ إيَّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إلَّا نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ: فَأَسْتَحْيِي فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فَيَرُدُّهَا عَلَيَّ مَا يَمَسُّهَا[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٦٢٥).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٩٧٧).

(٤) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٤٥).

٢- وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدْ قدمت علي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ؛ صِلِي أُمَّكِ**»[1].

٣- وعَنْ عِكْرِمَةَ، أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ أم المؤمنين بَاعَتْ حُجْرَتَهَا مِنْ مُعَاوِيَةَ بِمِئَةِ ألفٍ، وَكَانَ لَهَا أَخٌ يَهُودِيٌّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُسْلِمَ فَيَرِثَ، فَأَبَى فَأَوْصَتْ لَهُ بِثُلُثِ المِئَةِ[2].

٤- وأتت جارية لها عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها[3].

ثامناً: عيادة مرضاهم، والقيام لجنائزهم:

١- كان غلام مِنَ اليَهُودِ يَخدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِندَ رَأسِهِ، فَقَالَ: «**أَسلِمْ**». فَنظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِندَ رَأسِهِ، فَقال لَه: أَطِع أَبَا القَاسِمِ ﷺ. فَأَسلَمَ، فَخرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ للهِ الذِي أَنقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[4].

٢- وكَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٣).
(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٩٣٢٧).
(٣) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٧٢).
(٤) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَتْ نَفْساً؟!**»(١).

تاسعاً: دخولهم المساجد ودخول المسلمين معابدهم:

١ ـ قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فضرب لهم قبة في مؤخرة المسجد؛ لينظروا صلاة المسلمين، إلى ركوعهم، وسجودهم، فقيل: يا رسول الله، أتنزلهم المسجد وهم مشركون؟ قال: «**إِنَّ الأَرْضَ لَا تَنْجُسُ، إِنَّمَا يَنْجُسُ ابْنُ آدَمَ**»(٢).

٢ ـ ولما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعُوهُمْ، فَاسْتَقْبَلُوا المَشْرِقَ، فَصَلُّوا صَلَاتَهُمْ**»(٣).

وكذلك سائر وفود العرب، كلهم كانوا يدخلون المسجد إلى النبي ﷺ ويجلسون فيه عنده مسلمهم ومشركهم.

وكذا دخول المسلمين إلى كنائسهم ومعابدهم.

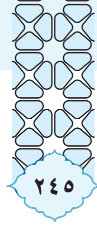
٣ ـ ولَمَّا اشْتَكَى النبيُّ ﷺ ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا: مَارِيَةُ، وكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ، وأُمّ حَبِيبَةَ رضي الله عنهما أَتَتَا أَرْضَ الحَبَشَةِ، فَذَكَرَتَا مِن حُسْنِهَا وتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ مِنهمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، ثُمَّ صَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّورَةَ؛ أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**»(٤).

(١) «صحيح البخاري» (١٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦١).

(٢) «المراسيل» لأبي داود (ص: ٨٠).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٧)، و«صحيح مسلم» (٥٢٨).



فحذَّر ﷺ من عمل هؤلاء في معابدهم ولم ينكر على زوجاته دخولهن الكنيسة ونظرهن إلى ما فيها.

٤ ـ ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وجاء كنيسة القيامة فجلس في صحنها، وحان وقت الصلاة فقال للبطرك: أريد الصلاة، فقال له: صلِّ موضعك، فامتنع وصلَّى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبطرك: لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي وقالوا هنا صلَّى عمر، وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها(١).

عاشراً: المشاركة معهم في الاتفاقات والمعاهدات:

قال ﷺ عن حلف الفضول: «**لقدْ شَهِدْتُ في دارِ عبدِ الله بنِ جُدْعانَ حِلْفاً، لو دُعِيتُ به في الإسلامِ لأَجَبْتُ، تَحالَفوا أنْ يَرُدُّوا الفُضولَ على أهْلِها، وأنْ لا يعد ظالمٌ مَظلوماً**»(٢).

وقَالَ ﷺ وهو متوجه إلى مكة عام الحديبية: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»(٣).

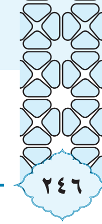
وهذا من التعاون في مساحة الحق المشترك بيننا وبينهم، كفضائل الأخلاق المذكورة في حلف الفضول، وتعظيم حرمات الله المذكورة في خبر الحديبية، وقد علق ابن القيم على ذلك بقوله: وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَى النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ ضَاقَ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ ضَاقَ(٤).

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٢٢٥).

(٢) «مسند البزار» (١٠٠٠)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٠٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٩).



حادي عشر: الاعتراف بالفضل لذوي الفضل منهم:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله فقال لهم ﷺ: «**إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكاً لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً وَمَخْرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[(١)].

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيّاً، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[(٢)].

ووصفت أم سلمة صنيع عثمان بن طلحة حين هجرتها من مكة لتلحق بزوجها أبي سلمة، فقالت: لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وكان حينها مشركاً، فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ، إِلَّا اللهَ وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوي بي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنْ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه ـ أي الرحل ـ ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ ـ وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً ـ فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ.

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٧٧٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٣٩).

فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول: والله ما رأيت صاحبا قط أكرم من عثمان بن طلحة[١].

وهذه مروءة من رجل كان حينها مشركاً تذكرها أم سلمة بوفاء واحتفاء.

ثاني عشر: المحبة الفطرية لغير المسلمين:

وهي الاستجابة المشاعرية الفطرية لدواعي الحب من قرابة أو صداقة أو إحسان.

كحب الإنسان لوالديه، وحب الرجل لزوجته، وحب الصديق لصديقه، وحب المرء لمن أحسن إليه، وهذا شعور فطري دل على وجوده بين المسلمين والمسالمين من الكفار قوله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

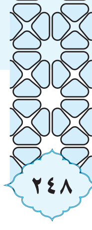
قال ابن جرير: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته... ثم قال: ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهبا[٢].

وسبب نزولها: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ!**». فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٣].

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٨١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٣٤).



ومن المحبة الفطرية ما دل عليه قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فأحلَّ الله نكاح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أن الزواج لابد أن يكون فيه بين الزوجين السكنُ والمودةُ والرحمةُ التي جعلها الله بين الأزواج كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

وكذلك من كان أبواه كافرين فإن عدم إسلامهما لا يزيل فطرة المحبة لهما، ولذا قال تعالى مؤكداً حقهما حتى وإن أمرا بالشرك: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

ولا نظن أن الصحابة كانوا جفاة مع أقاربهم المشركين، ولا كانوا يستبطنون بغضهم.

وكذا من أحسن إلينا من غير المسلمين فإن أنفسنا ستميل إلى حبه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

ولا نحسب الصحابة وهم عند النجاشي في ظل حمايته وإحسانه يستبطنون بغضه، إن الفطرة السوية لا تستجيب لذلك، وقد جاء نبينا ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، لا ليعلمنا اللؤم وسيء الأخلاق.

ولا يمكن أن يتقبَّل أحد دعوتَك إلا إذا علم أنك تحبه وتحب الخير له.

وهل نقبل أن يقال عن المسلمين: إنهم يعاملون غيرهم بالحسنى ظاهراً ويضمرون بغضهم باطناً؟!

والذي يقابل هذا الحب الفطري لغير المسلم هو البغض الفطري للمسلم لإساءة تصدر منه أو خصومة بينك وبينه، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد وعداوة كانت في الدنيا[١]، فأثبت الله لهم وصف التقوى والمصير إلى الجنة وأن ما كان في صدورهم في الدنيا من غل ـ وهو أشد البغض ـ قد نزع منها.

عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِمَّنْ قَالَ اللهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢].

وكما أن البغض الفطري بين بعض المؤمنين لا يقدح في عقيدة الولاء، فكذلك الحب الفطري لغير المسلم لإحسانٍ منه أو قرابةٍ أو صداقةٍ بينك وبينه لا يقدح أيضا في عقيدة البراء.

ثالث عشر: حفظ حقوقهم:

فقد كان المخالفون لرسول الله ﷺ من اليهود والمشركين مصاني الحقوق يتمتعون بالحماية الكاملة لدمائهم وأموالهم وحقوقهم، ومن ذلك: أنه توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير فما وجد ما يفتكّها به حتى توفي[٣]، وإنك لتعجب أن يقترض النبي من هذا اليهودي وهو في عز دولته، وقد فتح مكة ودانت له الجزيرة العربية كلها، ومع ذلك لا يقرضه هذا اليهودي حتى يأخذ رهناً، ومات النبي ﷺ قبل أن يتمكن من إيفاء القرض وافتكاك الرهن، فأداه علي واسترد الدرع.

وعندما هاجر ﷺ من مكة خلف عليا بعده حتى يؤدي عن رسول الله

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٦١٠)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٩٩).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧٩٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).

ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته[١]، وأصحاب الودائع هؤلاء هم المشركون في مكة.

ومن حفظ حقوقهم حرمة دمائهم وصيانتها والوعيد الشديد على التعدي عليهم فقال ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً**»[٢]، والمعاهَد هو من دخل بلاد المسلمين بعهد وأمان أو كان من أهل الذمة.

رابع عشر: الحرص على هدايتهم:

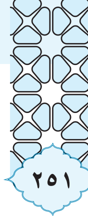
وعندما ننظر إلى حرص النبي ﷺ على هداية المخالفين نجده يتوقد بعاطفة مشبوبة هي كحرص الوالد على ولده أو أشد، حتى كادت نفسه أن تذهب حسرات عليهم، فعاتبه ربه الذي أرسله فقال ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ باخع نفسك أي مهلكها، وقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾.

ومن أمثلة ذلك:

١- موقفه حين عاد من الطائف إلى مكة مهموماً فاستفاق في قرن الثعالب قال: «**فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ**

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٦٦).



الأَخْشَبَيْنِ؟»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»(١).

فاحتمل ﷺ هموم الدعوة ولأواءها، ومصابرة الملأ من قريش طمعاً في إسلامهم أو إسلام ذرياتهم.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**». فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ المِدْرَاسِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فناداهُمْ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**». فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ، فَقَالَ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ**»(٢).

٣- ولما زار النبي ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه وهو مريض مدنف فدعاه إلى الإسلام فأسلم ثم مات، ففرح ﷺ بإسلامه وقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»(٣).

وهذا الفرح بإسلام فتى أسلم ثم مات هو فرح بالهداية التي كان نبينا ﷺ يذيب مهجته في بلاغها.

٤- وفي غزوة أحد عندما شُج رأسه ﷺ وكسرت رَباعيته(٤) فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(٥).

قال القرطبي: وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنى

---

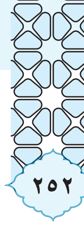
(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٥).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٤) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٥) «صحيح ابن حبان» (٩٧٣).



قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يوصل إليها[١].

إن التعايش والسلم هو مناخ الدعوة، ولذا كان السلم بعد صلح الحديبية سبباً في انتشار الإسلام في بقية قبائل العرب، وخروجه خارج الجزيرة العربية، ولقد جاء النبي ﷺ إلى عمرة الحديبية ومعه ألف وأربعمئة، وبعد سنتين جاء إلى مكة فاتحاً ومعه عشرة آلاف، ولذا قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير[٢].

وكان تعامل المسلمين الفاتحين مع أهل الأديان سبباً في إسلامهم، وتمسكهم بالدولة الإسلامية.

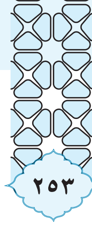
فهذا هدي النبي ﷺ وهداه، وهذه عظمته الأخلاقية في تعامله مع من يخالفون دينه، ويتأبون عن اتباعه، فكيف سيكون تعامله وحسن خلقه مع المؤمنين به، المحبين له، المعظمين لدينه وأمره.

وإذا كان هذا هو الهدي النبوي في التعامل مع المخالف دينا فكيف بالتعامل مع الأخ المسلم الذي يخالفنا في شأن جرى الخلاف فيه قديماً من غير أن يكون مخرجا عن دائرة الإسلام.

---

(١) ينظر: «المفهم» للقرطبي (٣/ ٦٥٠).

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٣٣).



وعندما نرى بغي بعض المسلمين على بعض بسبب بعض الاختلافات العقدية أو الفقهية التي جرى الخلاف فيها قديماً نقول: ليت المسلمين اليوم يعامل بعضهم بعضا كما كان النبي ﷺ يعامل غير المسلمين.

وليت بعض إخواننا من المسلمين يعاملوننا كما كان النبي ﷺ يعامل غير المسلمين[١].

تتمة:

وبعد ذكر هذه الآداب العالية بأدلتها النيرة قد يرد تساؤل حول التوفيق بين ذلك كله وما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**»[٢]، وما ورد في معناه.

والجواب ـ والله أعلم ـ: أن فهم هذا الحديث إنما يكتمل بجمع رواياته وتطبيقاته، والأدلة التي في معناه، ليتضح من خلالها المقصود به.

فإذا جمعنا رواياته اتضح أن هذا الحديث مخصوص بحالةٍ خاصة وهي حال الحرب والقتال، والدليل ما رواه أبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي رَاكِبٌ غداً إِلَى الْيَهُودِ فَلَا تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»[٣]، ونحوه عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الغِفَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مُنْطَلِقٌ غداً إِلَى يَهُودَ فَلَا تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»[٤].

---

(١) كلمة لأخي الشيخ عائض القرني.

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٦٧).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٣٦٩٩).

(٤) «الأدب المفرد» (١١٠٢).

فقوله: «**إِنِّي رَاكِبٌ إِلَى يَهُودَ**» أو «**إِنَّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ**»، يدل أن هذا كان عند التجهيز لإحدى غزواته لبعض اليهود، وإلا فاليهود موجودون في أنحاء المدينة وأحيائها فتخصيص المقالة بهذه الحالة يدل على أن ذلك وقع لما غدر اليهود وذهب النبي ﷺ إليهم محارباً، فكان يقول ذلك لأصحابه(١)؛ لأن إلقاء السلام لا يتطابق مع إرادة القتال، فهو عهد وميثاق بالمسالمة لا يجوز نقضه.

ويزيد الأمر وضوحاً النظر إلى تطبيقات الحديث، فإنه لم يؤثر في هدي النبي ﷺ ولا أصحابه أنهم لقوا ذمياً فاضطروه إلى أضيق الطرق، ولا نقل ذلك عنهم(٢).

ولم يكن هذا هو الهدي العملي الذي يسلكونه على كثرة خلطتهم لليهود في المدينة والبلاد التي فتحوها بعد ذلك.

وكذا إذا نظرنا إلى بدئهم بالسلام فإن الملاحظ في تطبيقات الصحابة عدم تحري ذلك، ولا تطبيقه مع من يلقونه من قراباتهم ومعارفهم.

وإذا نظرت إلى أحوالهم استبان ذلك.

فهل نتوقع أن النبي ﷺ ومعه أبو بكر ويصحبهم ذاك المشرك النبيل عبد الله بن أريقط في طريق الهجرة أنه إذا أقبل عليهم سلم عليهم، وإذا جاؤوا إليه لم يسلموا؟ ما شعور العربي الحر إذا أحس بهذه المعاملة هل سيكمل الطريق معهم.

وهل نتوقع أن سعد بن معاذ عندما نزل ضيفاً على صديقه أمية بن خلف في مكة كان يتوقى بداءته بالسلام وقد نزل داره وأكل طعامه.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٨٨).

(٢) «الصحوة الإسلامية، ضوابط وتوجهات» لابن عثيمين (١٨٩).

وقد أسلم بعض الشباب قبل آبائهم وأمهاتهم فهل كانوا يعاملونهم كذلك؟

ولذا فإن الذي يوضح معيار التعامل هو قوله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فكيف يجوز ابتداؤهم بالبر والمعروف، ولا يجوز ابتداؤهم بالسلام؟!

وقد قال إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد جداله له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فإذا جمعت هذه النصوص والتطبيقات اتضح أن هذا الحديث قد ورد لحالة خاصة وهي حال التحضير للحرب.

وأما في حالات الذمة والسلم فترجع العلاقة إلى هداية قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، والله أعلم[(١)].

خلاصات:

١- التعايش الاجتماعي والمخالطة مع المخالفين سمة المجتمع النبوي.

٢- ومن مظاهر هذا التعايش التزاور بزيارتهم في بيوتهم، واستضافتهم في بيت النبي ﷺ.

٣- الاستعانة بذوي النفوذ والرأي ومن تحسن الاستعانة به منهم.

---

(١) ينظر: «خزانة المراسلات» للشيخ سلمان العودة.

٤- إقرار العلاقات والتعاملات الإنسانية مع غير المسلمين.

٥- قبول الهدايا منهم وإثابتهم عليها.

٦- الإحسان إليهم والبر بهم.

٧- عيادة مرضاهم والقيام لجنائزهم.

٨- المشاركة معهم في الاتفاقات والمعاهدات.

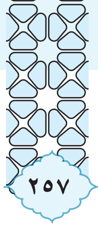
٩- المحبة الفطرية لمن يُحَبُّ منهم لقرابته أو إحسانه.

١٠- حفظ حقوقهم، وحمايتهم من التعدي عليهم.

١١- الحرص على هدايتهم.

١٢- التعاون مع المخالف في مساحة المشترك والمتفق عليه.

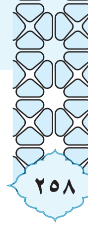




الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله وسلم والأعداء

لا يمكن لصاحب رسالة أو دعوة أن يقوم بواجبه ودعوته دون أن تواجهه خصومات وعداوات، يمكن التقليل منها ومداراتها، ولا يمكن تجاوزها وإلغاؤها بالكلية، كما قال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ هادياً لأوليائه، ونصيراً لهم على أعدائهم، ولذلك واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته ودعوته عداوات كثيرة متنوعة، وحينما نقف مع حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أعدائه والعداوات حوله نلاحظ:

أولاً: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجه منذ بداية دعوته عداوات أعداء عظام، ولا يصلح أن نهون من شأن أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونقدمهم بصورة ساخرة أو واهنة، فقد كانوا عظماء في مواهبهم وقدراتهم وأقدارهم، فكان أبو جهل عبقريّاً في القيادة استطاع أن يقود زعماء قريش وفيهم من هو أكبر وأجل منه، وكان حيي بن أخطب داهية في دبلوماسيته قديراً على تكوين التحالفات، استطاع أنه يجمع عشرة آلاف مقاتل حول المدينة من قبائل شتى، واستطاع أن يغري بني قريظة حتى نقضوا العهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك ببراعته الدبلوماسية، وكان عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلول زعيماً عظيماً



في زعامته، فهو الرجل الذي استطاع أن يَجمع عليه الأوس والخزرج قبل مقدم النبي ﷺ فيتفقوا أن يكون ملكاً عليهم، وكان من الصعوبة أن يتفقوا على غيره لشدة العداوة فيما بينهم.

فتهوين شأن أعداء النبي ﷺ تهوينٌ لشأن انتصاره وغلبته عليهم، لقد كانوا ذوي مواهب وقدرات لكنهم كانوا مع الباطل ضد الحق، والله غالب على أمره، ولذلك انتهى كيدهم، وفشلت عداوتهم، وكان عاقبة أمرهم خسراً.

ثانياً: واجه النبي ﷺ أشد العداوات، وأمرّها، وأمضّها، وهي عداوة ذوي القربى.

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَـةً ... عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[١]

فكان أعداؤه في مكة، هم عشيرته، وذوو قرباه.

فأبو لهب عمه الذي يجمعه وإياه جده عبد المطلب، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، أبناء عمه، يجمعهم وإياه جده عبد مناف، وعقبة بن أبي مُعيط يلتقي معه في جده عبد مناف، والنضر بن الحارث يلتقي معه في جده قصي بن كلاب، والوليد بن المغيرة وأبو جهل يلتقيان معه في جده مرّة بن كعب، وأمية بن خلف يلتقي معه في جده كعب بن لؤي.

ولذا ناشدهم المودة في القربى، ورعاية الرحم والنسب، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، قال ابن عباس: كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: **«يا قَوْم! أَرَأَيْتُم إِذَا أَبَيْتُمْ أَنْ تُتَابِعُونِي فَاحْفَظُوا قَرَابَتِي فِيكُمْ، وَلَا يَكُونُ غَيْرُكُمْ مِنَ العَرَبِ أَوْلَى بِحِفْظِي وَنُصْرَتِي عَنْكُمْ»**[٢].

---

(١) «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣٠٢٦).

ثالثاً: برغم تلك العداوة وشدة الأذى إلا أن حرص النبي ﷺ كان على هدايتهم، وليس على الانتقام منهم، ولذا دعا الله: أن يعز الإسلام بأحد العمرين: أبي جهل عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**». فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى الله عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ[١].

وعندما قال الطفيل بن عمرو إن دوساً عصت وأبت فادع عليهم، دعا لهم ولم يدع عليهم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ، عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ دَوْساً عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ الله عَلَيْهَا، فرفع النبي ﷺ يديه فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فقَالَ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَأْتِ بِهِمْ**»[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ عَلَى المُشْرِكِينَ قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[٣].

وفرح بإسلام مَن أسلم منهم، فقال: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**». فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَامَ الفَتْحِ، جَاءَهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرِ، فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئاً، قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**»[٤].

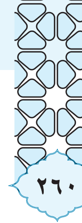
---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٠٢١)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٧٨٠)، مختصراً.



وعندما فتح مكة وجاءت قريش تبايعه على الإسلام جلس يبايعهم والسرور باد عليه والفرح يطفر من وجهه حتى خاف الأنصار أنه سيبقى في مكة ولا يرجع معهم، فقالوا: أما الرجل فقد أدركته رغبةٌ في قريته ورأفة بعشيرته قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ الله حَتَّى يَقْضِيَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ»** قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **«قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟»**، قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ، قَالَ: **« فَمَا اسْمِي إِذَنْ؟ كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»**، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَالله، مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِالله وَبِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ»**[١].

وأعطى أبا سفيان مئة من الإبل، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية مئة مئة.

وأبو سفيان هو الذي قاد الجيوش لحربه في أحد، والخندق، لكن إرادة الهداية أعظم من شهوة الانتقام.

رابعاً: نلاحظ نجاح النبي ﷺ الفائق في تحويل عداوات شديدة إلى محبة شديدة، ولذلك يمر عليك في سير بعض الصحابة قولهم له: ما كان وجه أبغض إلي من وجهك، وإن وجهك اليوم لأحب الوجوه إلي، وما كان دين أبغض إلي من دينك، وإن دينك لأحب الدين إلي. هذه يقولها ثمامة ابن أثال الذي جاء من نجد[٢]، ويقول مثلها عمرو بن العاص الذي جاء

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

من مكة[١]، ويقولها صفوان بن أمية بن خلف، وتقولها هند بنت عتبة بن ربيعة[٢]، إنها براعة النبي ﷺ في احتواء العداوات وتحويلها إلى مودات.

خامساً: نلاحظ أن العداوات حول النبي ﷺ كانت تضيق ولا تتسع، وتنكمش ولا تتمدد، فلم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تتداعى وتنتشر، ولكن يضيقها في أضيق نطاق، ولم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تسري من الآباء إلى الأبناء، بل لم يكن ﷺ يذكر للأبناء عداوات آبائهم مهما بلغت شدةً وكيداً، ولما فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل إلى البحر فأرسل النبي ﷺ إليه بالأمان، فلما عاد جعل ﷺ ينقي الأجواء لاستقباله فقال لأصحابه: «**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ** ـ يَعْنِي: أَبَا جَهْلٍ ـ **فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي الحَيَّ وَلَا يَضُرُّ المَيِّتَ**»[٣]. فلما أقبل عكرمة قام النبي ﷺ يتلقَّاه ويقول له: «**مَرْحَباً بِالرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**»[٤]. ولم يُذْكَر لنا أن النبي ﷺ ذكَّره بعداوة أبيه أو ذَكَرها له، ولذا أسلم وصحب النبي ﷺ مَن كان آباؤهم أشد أعدائه، ووجدوا في كنفه الرعاية والحب والاحتواء، مثل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط، وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، وعكرمة بن أبي جهل، والوليد وخالد ابني الوليد بن المغيرة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وصفوان بن أمية بن خلف، وغيرهم.

سادساً: هذه العداوات لم تكن تستفز النبي ﷺ فتصنع أهدافه أو تقود اتجاهه، وإنما كان الذي يقود أهدافه ويحدد اتجاهه رسالتُه ومسؤوليتُه

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٧١٤).

(٣) «جامع الترمذي» (١٩٨٢).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

وليس ردات الفعل مع العداوات، رجع من الطائف بعد أن كذبه أهلها وردوا دعوته إلى مكة مكروباً كرباً شديداً لأنه إذا دخلها فستواجهه قريش بالشماتة وشدة العداوة والجرأة على الإيذاء، فنزل عليه ملك الجبال، وعرض عليه أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ـ وهما جبلا مكة اللذان يحيطان بها ـ فيدفنهم تحت أحجارها، إلا أن الجواب من النبي ﷺ جاء سريعاً حاسماً: «**لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[١]. فكان الذي يقود النبي ﷺ هو هدفه وهو إرادة هداية الناس، وليس ردة الفعل مع العداوات، ولذلك أسعد الله قلبه وأقر عينه، ورأى الذين عادوه وقد خرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ورأى أبناء الذين قاتلوه يشهدون معه أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

سابعاً: مع كثرة العداوات وشدتها إلا أن النبي ﷺ لم يتطامن في التعامل مع الأعداء إلى ما لا يليق بمقامه الكريم، فلم تُؤثر عنه كلمة فاحشة، ولا تصرف قبيح، بحيث تروى لنا اليوم سيرته، فلا نجد فيها ما يخدش الحياء، أو يزري بالمروءة، برغم ما لاقى من أنواع العدوات والاستفزازات، فما كان فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق.

كما أنَّا لا نجد مع شدة العداوات التي لقيها أنه ﷺ أهان كرامة إنسان مهما كانت عداوته، حتى من استحقوا القتل أمر بقتلهم بدون مثلة أو تعذيب أو تشفٍّ.

ثامناً: إن النبي ﷺ نجح في احتواء أكثر العداوات، وتحويلها إلى مودات، أما العداوات التي لم يمكن احتواؤها فهي العداوات التي كان

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

منطلقها الحسد، فالذين عادوا النبي ﷺ حسداً لجوا في عداوتهم إلى آخر حياتهم، فأبو جهل لم يمنعه من الإيمان برسالة النبي ﷺ عدم قناعته بها، ولكن استكبر أن يكون النبي ﷺ من بني عبد مناف وهو من بني مخزوم، ولا يريد أن تستأثر بنو مناف بالنبوة فيهم، فلم يستجب له حسداً، وحيي بن أخطب اليهودي كانت مشكلته مع النبي ﷺ أن النبي كان عربياً وليس إسرائيلياً، وهو ينتظر النبوة في بني إسرائيل، فحسده لذلك، ولذلك لجَّ في عدواته، وعبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ كانت مشكلته مع النبي ﷺ أنه نَفَس عليه الزعامة، حيث أتى النبي ﷺ وهم على وشك أن ينصبوه ملكاً على المدينة فلما جاء النبي ﷺ انفضوا عنه، ولذلك شَخَّص سعد ابن عبادة عداوة عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ للنبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك أتيتنا وكنا ننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ علينا، ولذلك حسدك[1].

فهؤلاء الذين كانت عداوتهم مع النبي ﷺ حسداً من عند أنفسهم لجوا في عداوتهم وذهبوا بحسدهم معهم إلى قبورهم، أما رسولنا ﷺ فقد أظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

تاسعاً: لم يكن ﷺ يعامل الأعداء على أنهم نوع واحد، ولذا تنوع تعامله معهم بحسب ما يناسب كل حالة، ويظهر ذلك جلياً في تعامله مع أسرى بدر؛ فقد مَنَّ على بعضهم وأطلقهم من غير فداء كأبي عزة الجمحي، وأخذ الفداء من بعضهم، وقتل مجرمي الحرب منهم وهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط.

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٦٨).

وكذا تعامله مع هوازن بعد معركة حنين، حيث رد عليهم أسراهم، واستمال قائدهم مالك بن عوف النصري حتى صار من أتباعه.

وهذه براعة نبوية في التعامل مع الأعداء، بحيث يتفتت تكتلهم، ويستدرج من فيه قابلية للإصلاح منهم.

عاشراً: أن الله أقر عينه، وشفى صدره، من أعدائه، فقد قرت عينه بإسلام كثير منهم بعد طول العداوة، كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وأبي سفيان بن حرب، أو بإسلام أبنائهم كعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

وأما الذين لجوا في عدواتهم فقد شفى الله صدره، وأذهب غيظ قلبه منهم، حيث رأى مصارعهم وعاقبة أمرهم، فبعد معركة بدر، سحبت جثث رؤوس الكفر، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، وغيرهم، وألقيت في بئر مهجورة في بدر.

فعن أَنس بْن مَالِكٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ اليَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا، ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا: مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: «**يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقاً؟**». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ**

مِنْهُمْ». قَالَ قَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخاً وَتَصْغِيراً وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَماً[(١)].

وقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، صبراً[(٢)] بين يديه، لسابق عداوتهم وأذاهم، وأما حيي بن أخطب الذي كاد المكايد، وحزّب الأحزاب، فقد جيء به مغلولاً، مع بني قريظة في أسوأ عاقبة وأخزى مصير، ثم قتل مهزوماً مخذولاً.

خلاصات:

١- واجه النبي ﷺ عداوات من أعداء كانوا عظماء في مواهبهم وقدراتهم ومكانتهم، ولكن الحق كان أغلب.

٢- كانت أشد العداوات وأمضّها عداوات ذوي قرباه في مكة فناشدهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

٣- كانت أشد العداوات التي لقيها ﷺ هي تلك العداوات الإبليسية التي كان باعثها الحسد.

٤- برغم شدة العداوة منهم إلا أن حرصه على هدايتهم كانت أعظم في نفسه ولذا قال: «**اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَدِ العُمَرَيْنِ**».

٥- نجح ﷺ في تحويل أكثر العداوات إلى مودات واحتواها بحسن خلقه وسياسته.

٦- كانت العداوات حول النبي ﷺ تضيق ولا تتوسع، وتزول ولا تتعمق.

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٤).

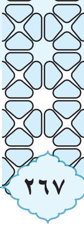
(٢) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبراً. ينظر: «النهاية» (٣/ ٨).

٧- هذه العداوات على شدتها وضراوتها لم تحرف النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن أهدافه ولم تغير أولوياته.

٨- لم يتطامن صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع أعدائه، ولم يتخل عن عظمته الأخلاقية.

٩- أقر الله عين نبيه بهداية كثير من أعدائه بعد طول عداء أو هداية أبنائهم، وشفى صدره وأذهب غيظه ممن لجّوا في عداوته واستطالوا في أذاه فشهد هلاكهم وسوء عاقبتهم.





الرسول ﷺ والمنافقون

بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بقي بعض زعمائها على شركهم وقد شَرِقُوا بالرسول والرسالة فلم يؤمنوا به ولم يتبعوه، ومع ذلك فلم يعرض لهم ﷺ بغير الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم نجم النفاق في المدينة حين كثر المسلمون وقوي أمرهم وكانت وقعة بدر المؤذنة بغلبة هذا الدين وظهوره، فقال كبيرهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: هذا أمرٌ قد توَجّه، فأظهر هو وأتباعُه الدخولَ في الإسلام وهم يستبطنون الكفر وبغض الرسول ﷺ والكيد له ما أمكنهم، ولذا تنزلت آيات القرآن تحذر منهم، وتذكر صفاتهم، وتفضح مكائدهم، فهم في المجتمع قلة، ولكنها قلة خطرة مدمرة ما لم يُتعامل معها بيقظة وحذر.

على أن وجود النفاق مظهر قوة للمسلمين، حيث أدت غلبتهم إلى إسرار هؤلاء بكفرهم، والإعلان بالإيمان الزائف، وهو عكس حال المسلمين في حال الضعف في مكة حين اضطر بعضهم أن يكتم إيمانه ويستخفي بدينه.

ومن مظاهر ضعف المنافقين وقوة المسلمين وغلبتهم اضطرار بعضهم للخروج مع النبي ﷺ في غزواته حتى لا يفتضحوا، كالذين خرجوا معه

في أُحد ثم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أو الذين خرجوا معه في تبوك وقالوا: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، أرغبَ بطوناً، ولا أكذبَ ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء. فنزل القرآن يفضحهم: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾. فجاؤوا يعتذرون ويقولون: إنما كنا نخوض ونلعب.

قال عبد الله بن عمر يصف حال أحدهم: فأنا رأيته متعلقاً بحَقَب[1] ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

والتصور الذي يتحصل من مجموع الأخبار عن المنافقين أنهم بعض كبار السن من طبقة عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ وأتباعهم شَرِقوا بدعوة النبي ﷺ لما قدم المدينة، ورأوا انجفال الناس إليه، وظنوا أن مجيئه سيذهب بجاههم ومكانَتِهم، فتمنعوا عن متابعته، ثم تظاهروا بالإسلام بعد بدر، لما غمرهم المسلمون كثرةً ومنعةً.

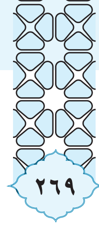
وهم يقابلون في مكة ملأ قريش وأشياخها الذين واجهوا الدعوة كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة وطبقتهم.

علماً أن هؤلاء فئة من الكبراء وليسوا الأكثر، فكثير من أشياخ الأنصار أسلموا وأبلوا في الإسلام البلاء الحسن، مثل عبد الله بن حرام، وسعد بن عبادة، وعمرو بن الجَمُوح، واليمان بن حِسْل، وغيرهم رضي الله عنهم.

والدليل على ذلك أن حذيفة لما سئل عنهم قال: لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ ـ أي مَن

---

(١) حقب الناقة: الحبْل المشْدُود عَلَى حَقْو البَعِير، أَوْ مِن حَقِيبَته، وَهِيَ الزِّيَادَةُ الَّتِي تُجْعل فِي مؤخَّر القَتَب، وَالوِعَاءُ الَّذِي يَجْمع الرجلُ فِيهِ زادَه. ينظر: «النهاية» (١/ ٤١٢).



يَعرفُ من المنافقين ـ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ المَاءَ البَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ[١].

وهذا مما يدل على أنهم انقرضوا في حياة النبي ﷺ أو بعدها مباشرة.

وقد كان النفاق يتقلّص ويذوب وتنحصر مساحته في حياة النبي ﷺ، فلم يبق المنافقون على تكتلهم الأول، وإنما تفتتوا، وتاب كثير منهم تأثراً بصحبة النبي ﷺ وحسن تعامله معهم، ورؤيتهم دلائل نبوته، ودلت آيات القرآن على توبة فئةٍ منهم وصلاح حالهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فهذه الآيات دعوة لهم إلى التوبة وإطماع لهم بالقبول.

كما أن النفاق لم يكن شيئاً موروثاً، فلم يكن أبناء المنافقين منافقين كأبناء اليهود، فلم ينتقل للجيل الثاني، ولم يورث في الشباب، وإنما كان حالة خاصة في كبار السن انتهى بانتهائهم أو بصلاح حالهم.

ولذا فإنا إذا نظرنا إلى رقعة وجودهم في خارطة الصحابة نجدها رقعة صغيرة منحسرة، وإن كانوا في مرحلة من تاريخ النبوة مصدر فتنة وإرجاف إلا أن ذلك انحسر ولم يتسع.

وليتضح ذلك فكل المهاجرين ليس فيهم نفاق، سواء المهاجرون من مكة أو غيرها من البلاد والقبائل الأخرى، كأبي هريرة، وأبي ذر، وأهل الصفة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٥٨).

وشباب الأنصار ليس فيهم نفاق لأنهم لم يعيشوا شعور المنافسة الذي عاشه بعض آبائهم، وحال عبد الله بن عبد الله بن أُبِّي دليل على ذلك.

وكل قبائل العرب غير الأوس والخزرج ليس فيهم نفاق إلا بعض الأعراب حول المدينة كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، وتعبير القرآن عن الأعراب بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ دليل أن هؤلاء الأعراب الذين نجم فيهم النفاق هم ممن حول المدينة متأثرين بالمنافقين داخلها لقوة صلتهم بهم، أما الأعراب البعيدون عن المدينة فمنهم من بقي على الشرك إلى الفتح ومنهم من أسلم مخلصاً كأسلم وغفار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا**»[1].

ويدل على قلتهم أنهم لم يستتروا بالنفاق إلا لكثرة المؤمنين وقوتهم وظهورهم عليهم، ويوضح قلتهم أيضاً حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك وفيه قوله عن رجوع النبي ﷺ من تبوك: وَجَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا[2].

وهؤلاء هم المغموصون بالنفاق، وإذا كانوا ثمانين رجلا سنة تسع، فقد كان الجيش مع رسول ﷺ ثلاثين ألفا، وهذا دليل قلتهم وتلاشيهم.

وأما ما يثار من أن بعض أحاديث الرسول ﷺ قد تكون من رواية هؤلاء المنافقين، والتشكيك في الحديث النبوي لذلك، فإن الله قد حفظ السنة أن تعبر إلى الأمة عن طريق متهمٍ بالنفاق، لأن هؤلاء الذين مردوا

(١) «صحيح البخاري» (١٠٠٦)، و«صحيح مسلم» (٦٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨).

على النفاق وشاخوا في حياة النبي ﷺ لم يحدِّثوا عنه ﷺ بعد وفاته؛ لأنهم شرِقُوا بالرسالة فما كانوا يطيبون بذكر النبي ﷺ نفساً.

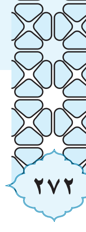
ولأنهم ماتوا قديماً فرأس المنافقين عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ مات في حياة النبي ﷺ، وكذا بقية كبرائهم تفارطوا في هذه الفترة، ومن أظهر الأدلة على تلاشيهم وانقراضهم في حياة النبي ﷺ عدم وجود دور لهم أو ذكر عند وفاة النبي ﷺ، وكانت هذه فرصتهم لو كان لهم أولو بقية، وليس لهم ذكر أيام الردة وهي حال كان يمكن أن تطل فيها رؤوسهم، فضلاً أن يكون لهم ذكر فيما جرى بعد ذلك من فتن بين الصحابة، مع أن هذه كلها من فرص الكيد والإثارة التي كانوا يستغلونها، وهذا دليل على تلاشي أثرهم وتأثيرهم.

ومن بقي منهم كانوا مغمورين في حياة جِلَّة الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكان أهلُ السابقة من الصحابة متوافرين، فما كان أحد يحتاج إلى حديثهم لو تحدثوا، ولذا لا نجد لهم ذكرا في عصر الخلافة الراشدة لانقراضهم أو تلاشي أثرهم.

ومن ثمَّ فإن من يقرأ السنة النبوية يكون في غاية الطمأنينة أنه لن يعبر إلى حديث النبي ﷺ عبر منافق.

ولو سئل أحدٌ ممن يثيرون شبهة رواية المنافقين لحديث النبي ﷺ أن يذكر مثالاً لروايةٍ أو راوٍ يتهم بالنفاق ما وجد إلى ذلك سبيلا.

إن الله قد تكفل بإظهار دين نبيه على الدين كله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ولا يمكن أن يظهر الله دينا مشوبا بدسائس المنافقين



ومكايدهم، وقد سخر الله علماء الحديث ففتشوا روايات الواهمين والمختلطين والوضاعين، فهل يغفلون عن رواية المنافقين لو كان لهم رواية، قَالَ الحَافِظُ المِزِّيُّ: مِنْ الفَوَائِدِ أَنَّهُ لَمْ يُوجَد قَطُّ رِوَايَةٌ عَمَّنْ لُمِزَ بِالنِّفَاقِ، يَعْنِي مِمَّنْ يُعَدُّ مِنْ الصَّحَابَةِ(١).

أما تعامل النبي ﷺ مع المنافقين فله معالم منها:

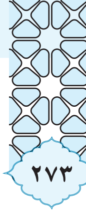
أولاً: أن تعامل النبي ﷺ مع المنافقين يقوم على الاحتواء، والأخذ بالظاهر، وعدم التنقيب عن الباطن، والتظاهر بعدم العلم بحالهم، ولا أدل على ذلك من أنه لم يواجه أحدا منهم بوصف النفاق، وبذلك يبقى طريق العودة مفتوحا لهم ويضمن عدم تكتل فئة معهم بدافع العصبية والحمية والقبلية.

ومن ذلك: أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ انخذل في الطريق إلى معركة أحد بثلاثمئةٍ من الجيش، واختار أن ينسحب بعد أن يسير مع الجيش حتى يفت في عزائمهم، ومع أن المصيبة قد وقعت على جيش المسلمين في أُحد إلا أنه لم ينقل أن النبي ﷺ عاتب عبد الله بن أُبِّي، ولا ذَكَر أحداً من الذين عادوا معه، وإنما احتوى الموقف ومرره ولم يتوقف عنده.

ومن ذلك: ما ورد في حديث كعب بن مالك لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك فجاءه المخلفون، وهم المتخلفون عن غزوة تبوك ممن كان يتهم بالنفاق يعتذرون إليه ويحلفون له، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله(٢).

(١) «شرح الكوكب المنير» لابن النجار (٢/ ٤٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).



ثانياً: لا يعلم أن النبي ﷺ ترك الصلاة على أحد من الناس بحجة النفاق مع أن الله أنزل عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، ولم يفعل ذلك أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا أحد من الصحابة سوى ما يروى عن عمر وسؤاله حذيفة.

وذلك أن النفاق ليس أمراً ظاهراً، وإنما هو سريرة قلبية، لا يجوز البهت بها، ولا التنقيب عنها، والأصل في المسلمين البراءة منها.

وفي ذلك محافظة على سِلْم المجتمع ووفاقه، ولأن المتأذي من عدم الصلاة عليه ليس الميت بل قرابته وعشيرته؛ وبالتالي يفشو الشقاق في المجتمع.

وتبقي الآية وعيداً ونذيراً لهم بأنهم غير جديرين بصلاته ﷺ عليهم، وأن صلاته واستغفاره لهم لن ينفعهم.

ثالثاً: كان النبي ﷺ يعالج كل موقف يمكن أن يثير فتنة أو يحدث مواجهةً مع المنافقين؛ لأن فرصة الحركة لديهم هي الأجواء المتوترة المشحونة والتي يستغلونها في زيادة الشحن والتصعيد لإحداث الفرقة والاصطفاف.

ومن ذلك: ما رواه جابر قال: غزونا مع النبي ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِياً، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَباً شَدِيداً حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟**». ثُمَّ قَالَ: «**مَا شَأْنُهُمْ؟**». فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**». وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا

الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ الله هَذَا الخَبِيثَ؟ لِعَبْدِ الله بن أبي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَنْ تَرْعَدُ لَهُ آنُفٌ كَثِيرَةٌ بِيَثْرِبَ**». قال عمر: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين فمر سعد بن معاذ، أو محمد بن مسلمة فليقتلوه، فقال ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ محمداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[(١)]، ولكن آذن الناس بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، وذلك ليشغل الجيش بالسرى والمسير عن الحديث فيما تحدث به ابن أُبي فتنطفئ مقالته ولا يتداعى أثرها وتأثيرها.

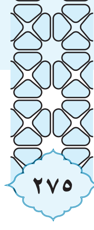
وكان من نتيجة ذلك أن أقبل قومه يلومونه على مقالته تلك، وجاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان رجلاً صالحاً فقال: يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبي فمرني آتك برأسه، فما علمت أحداً أبرَّ بأبيه مني، وإني إن رأيت قاتل أبي يمشي في الناس لا أملك أن أدعه فأقتل مؤمناً بكافر، فدعا له النبي ﷺ بخير وقال: «**لَا؛ بَلْ نَتَرَفَّق بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ بَيْنَنَا**»[(٢)].

وفي ذلك احتواء للموقف، وإطفاء للفتنة، وحفظ لوئام المجتمع.

رابعاً: كان ﷺ يغلق أبواب الاتهام بالنفاق والتوجس من الناس فيه، وذلك حتى لا يرجم أحد بتهمةٍ هو بريء منها، ولأن النفاق أمرٌ خفي ينكره صاحبه فمواجهته به قد تزيده لجاجة وإيغالاً فيه، ويقطع عليه طريق المراجعة والعودة، ولذا فلا يحفظ عن النبي ﷺ اتهام أحدٍ بعينه بالنفاق، وإنما كان يحذر من أوصاف المنافقين من غير تعيين، ويحذر من اتهام أحد بالنفاق بعينه، ومن ذلك: حديث عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ، فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي

(١) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٢).



فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ فصلى ركعتين ثم سلم، فحبسته على خزيرة[١] صُنعَت له، فسمع أهل الدار[٢] أن النبي ﷺ في بيتي فثاب رجال منهم حتى كثر الرجال في البيت، فقال رجل ما فعل مالك بن الدُخْشُم؟ لا أراه، فقال رجل منهم: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ؛ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ؟**». فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحن والله لا نرى وُدَّه وحديثه إلا إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[٣].

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ أغلق وصف النفاق عن كل من قال لا إله إلا الله، فَذَكَرَ شعار الإسلام العام الذي يشترك فيه جميع المسلمين حتى لا يبقى أحد في متناول التهمة.

وليت شعري ما هو شعور مالك بن الدُخْشُم إذا بلغه أن النبي ﷺ قد ذبَّ عنه وزكَّاه؟

ولاحظ وصف الرجل له حين قال: لا نرى وُدَّه وحديثه إلا إلى المنافقين، فلم ينكر النبي ﷺ على مالك ذلك؛ لأن هؤلاء المتهمين بالنفاق ربما يكونون بريئين منه كحال مالك، ولأن العلاقة الإنسانية مع المنافقين وداً وحديثاً هي من أسباب علاجهم وعافيتهم وبهذه المخالطة احتواهم المجتمع وذابوا فيه ولم يتكتلوا أو يتكاثروا.

---

(١) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يَقَطَّع صِغَارًا ويُصَبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) أهل الدار: أي أهل الحي.

(٣) «صحيح البخاري» (١١٨٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣).

بقي أن نعلم أن مالك بن الدُخْشُم الذي اتهم بالنفاق كان ممن شهد بدراً، وأنه هو الذي أرسله النبي ﷺ ليحرق مسجد الضرار فأخذ من بيته سعفاً مشتعلاً ثم قصد مسجد الضرار فأحرقه[١]، فهو البريء البعيد أشد البعد عن النفاق رضي الله عنه.

خامساً: ومع حسن الظن وحسن المعاملة إلا أن النبي ﷺ كان في غاية اليقظة لمكائدهم، وكان يُحذِّر من أوصافهم من غير تعيين لهم، وبذلك انحصرت حركتهم كقوله: «**أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ الْعِشَاءُ وَالْفَجْرُ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوَاً**»[٢]، وقوله: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**»[٣].

ومع ما يتنزل به القرآن من فضح أوصافهم ونزول سورةٍ باسمهم، هي سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، وسميت سورة التوبة بالفاضحة؛ لأنها ذكرت أوصافهم، قال ابن عباس: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَداً مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا[٤].

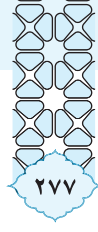
ولشدة تحذيره ﷺ من النفاق خشي بعض أفاضل الصحابة على أنفسهم منه، كما في خبر حنظلة الأسيدي الذي جاء إلى أبي بكر يقول: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٤، ٦٥٧)، و«صحيح مسلم» (٦٥١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٨٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣٠٣١).



ﷺ، عَافَسْنَا[(١)] الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، قال: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيراً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٢)].

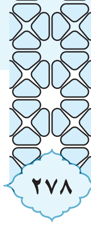
فلشدة التحذير والوعيد القرآني والنبوي من النفاق، خشي فضلاء الصحابة من التلبس ببعض خصال النفاق من حيث لا يشعرون.

ومن حيطة النبي ﷺ وحذره منهم أنه عندما سلك طريق العقبة وهي طريق ضيّق وعر وكان ذلك في رجوعه من غزوة تبوك ليلاً، أمر ألا يسلكها أحد معه لأنها عقبةٌ ضيقة؛ ويمكن أن تنجفل الناقة فتقع ويقع راكبها، ولأن في هذا المضيق مع الليل فرصة للمنافقين أن يسلكوا الطريق فيرجفوا بالناقة فتنجفل فتسقط النبي ﷺ، وهكذا كان فإنهم سبقوا النبي ﷺ حتى يجفلوا الناقة فتسقط به، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ: إِنِّي لَآخِذٌ بِزِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقُودُهُ وَعَمَّارٌ يَسُوقُ بِهِ، أَوْ عَمَّارٌ يَقُودُهُ وَأَنَا أَسُوقُ بِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالعَقَبَةِ فَإِذَا أَنَا بِاثْنَىْ عشر راكبا، قد اعْتَرَضُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَأَنْبَهْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهِمْ، فَصَرَخَ بِهِمْ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) المعافسة: المعالجة والممارسة والملاعبة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).



«هَلْ عَرَفْتُمُ القَوْمَ؟». قُلْنَا: لَا، يَا رَسُولَ الله، كَانُوا مُتَلَثِّمِينَ، وَلَكِنَّا قَدْ عَرَفْنَا الرِّكَابَ، قَالَ: «**هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا؟**». قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ الله ﷺ فِي العَقَبَةِ، فَيُلْقُوهُ مِنْهَا**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَوَ لَا تَبْعَثُ إِلَى عَشَائِرِهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرَأْسِ صَاحِبِهِمْ؟ قَالَ: «**لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا: أَنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَوْمٍ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُم**»[1].

وعندما وصل المدينة أرسل في تحريق مسجد الضرار الذي ابتناه المنافقون ليجعلوه مكاناً لاجتماعهم، وليتخذوه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، حيث أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾.

وقد كانت هذه اليقظة والاحتراس سبباً في إفشال مكائدهم، وإطفاء فتنهم، وفي التعامل الاحتوائي من النبي ﷺ معهم سبب تفتت جماعتهم واضمحلال أمرهم فلا بقية لهم، قال حذيفة: إنما كان النفاق على عهد رسول ﷺ فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان[2].

خلاصات:

١- نجم النفاق في المدينة من مجموعة من الكبراء الذين شَرِقوا بالإسلام ورأوا أنه يذهب بزعامتهم.

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٢٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٧١١٤).

٢- النفاق لم يورث للأبناء ولم ينتقل للجيل الثاني، وقد تفتت تجمعهم وانقرضوا بعد وفاة النبي ﷺ بقليل.

٣- لم تنقل السنة عن متهم بالنفاق ولم يتصدروا هم لرواياتها.

٤- كان تعامل النبي ﷺ معهم يقوم على الاحتواء والأخذ بالظاهر ولذا لم يصف النبي ﷺ أحداً بالنفاق.

٥- لا يعلم أن النبي ﷺ ترك الصلاة على أحد بحجة النفاق حتى عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ.

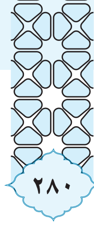
٦- كان ﷺ يعالج كل موقف يمكن أن يثير مواجهة مع المنافقين أو اصطفافاً داخل صف المسلمين بما يخمد فتنته، ويطفئ ثائرته.

٧- كان يغلق أبواب الاتهام بالنفاق ويمنع من أن يوصف أحد به.

٨- كثرة تعداد أوصاف المنافقين في القرآن والسنة ساعدت على محاصرة ظاهرة النفاق وتضييق حركتها.

٩- كان ﷺ في غاية اليقظة لمكائد المنافقين، ويُحذِّر من أوصافهم من غير تعيين لهم.





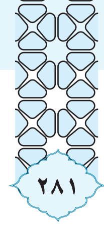
الرسول ﷺ وعالم الجن

١- الجن من العوالم التي خلقها الله وتعبَّدها، كعالم الإنس، وعالم الملائكة، وهم خلق مكلف بعبادة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال الرازي في تفسيره: اتفق الكل على أن الجن كلهم مكلّفون[1]، وقد جاءتهم رسل منهم قال الله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

وأُرسل نبينا ﷺ إلى الجن والإنس عامة، فهو رسول الله إلينا وإليهم وليس ذلك لغيره من الأنبياء، فإن كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والجن ليسوا من قومه، قال ابن حزم: لم يُبعث إلى الجن نبي من الإنس قبل محمد ﷺ لأنه آخر المرسلين بإجماع، وقد قال النبي ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[2].

وباليقين ندري أنهم قد أنذروا، فصح أنه قد جاءهم أنبياء منهم كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[3].

(١) «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥).
(٣) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ١٤٧).



قال ابن عبد البر: لا خلاف في أن محمداً ﷺ رسول الله إلى الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وهذا مما فضل به على الأنبياء[(١)].

وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنه سئل عن الجن: هل كان منهم من نبي قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟[(٢)].

٢- وكان سماعهم لنبينا ﷺ ولقاؤهم به عند رجوعه من الطائف وهو يقرأ القرآن ببطن وادي نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من البعثة[(٣)].

وكان في ذلك تأييدٌ وتثبيت من الله لنبيه ﷺ، فبعد وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة زادت جرأة قريش وأذاهم، فذهب إلى الطائف، فردوا دعوته وأعرضوا عنه فرجع مكروباً مغموماً، فكان في إيمان الجن به في هذه الحال مدد وتثبيت، فلئن كان هؤلاء وأولئك قد أعرضوا فإن خلقاً من خلق الله قد آمنوا واتبعوا، ورجعوا رسلاً إلى قومهم، دعاة ومنذرين.

وقد تعددت وفادات الجن على رسول الله بعد ذلك، فعن ابن عباس قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ

---

(١) «التمهيد» (١١/ ١١٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٢/ ١٢١)

(٣) «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (٢٦٠).

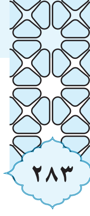
السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ[1].

وعن ابن مسعودٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «**أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ**». فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»[2].

٣- وكانت استجابة المؤمنين من الجن لدعوته ﷺ استجابة إيمانٍ ويقين، تبعتها دعوةٌ صادقةٌ لقومهم كما حكى الله عنهم: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ

(١) «صحيح البخاري» (٧٧٣)، و«صحيح مسلم» (٤٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٥٠).



ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، وقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وبيَّن أنهم حضروا صلاته ودعاءه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: جماعات متراكمة من شدة ازدحامهم عند سماعهم قراءته القرآن.

وأنهم صاروا نذراً إلى قومهم يبلغونهم: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وكانت هذه الاستجابة والاتباع والنبي ﷺ لا زال في مكة، وقد عرضت للنبي ﷺ بعد ذلك شدائد وكروب عظيمة، ومنها هجرته مستخفياً إلى المدينة، وحاله في بدر، وأحد، والخندق، وغيرها.

ومع ذلك لم يرد أن النبي ﷺ استعان بمؤمني الجن في شدةٍ من هذه الشدائد، ولم يَرِد عنهم مبادرتهم بالإعانة في موقف من هذه المواقف مع شدة الاحتياج.

فكل مَن ادّعى تسخير الجن والاستعانة بهم لقضاء حاجاته، والدلالة على ما يخفى عليه فقد ادّعى ما لم يدعه أفضل الخلق وأحبهم إلى كل مؤمن إنسي أو جني.

وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**إِنَّ عِفْرِيتاً مِنْ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَذَعَتُّهُ**[١]، **فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ**

(١) فَذَعَتُّهُ أي: خنقته، والذعت: المعك في التراب. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦٠).

سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾»(١).

وهذا يدل على أن تسخير الجن إنما كان لنبي الله سليمان عليه السلام، ولا ينبغي لأحدٍ من بعده، ولذا كفَّ عنه نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكل هذا يكشف الزيف الذي يفعله الدجالون والمشعوذون من دعوى التعامل مع عالم الجن واستخدامهم والاستعانة بهم، ويروجون ذلك على المرضى، ومن أعمتهم الضرورة.

٤- وعالم الجن محجوب عنا رؤيةً وتخيُّلاً، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وفي الكتب المتعلقة بأحكام الجن خلاف في أوصافهم، وكلُّه من التكلف، والصواب أنهم من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نتكلف صفته، كما نؤمن بأحوال الآخرة ولا نتكلف صفاتها ولا تصورها، ونؤمن بعالم الملائكة ولا نتكلف صفته، وهكذا كل محجوب عنا نؤمن بخبر الله عنه وخبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نزيد ولا نتزيد ونكل علم حاله إلى عالمه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

٥ - طوال فترة الحياة النبوية لم يثبت أن أحداً من المسلمين أو المشركين أصيب بتلبُّس الجن(٢)، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه كان يَرْقي من مس

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦١).

(٢) وردت أخبار ضعاف أو معلولة، منها: عَنْ المنهال بن عمرو، عن يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: أَنَّهُ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا قَدْ أَصَابَهُ لَمَمٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «اخْرُجْ عَدُوَّ الله، أَنا رَسُولُ الله». قَالَ: فَبَرَأَ، فَأَهْدَتْ لَهُ كَبْشَيْنِ وَشَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا يَعْلَى، خُذِ الأَقِطَ وَالسَّمْنَ، وَخُذْ أَحَدَ الكَبْشَيْنِ، وَرُدَّ عَلَيْهَا الآخَرَ». «مسند أحمد» (١٧٥٦٣). قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف؛ المنهال بن عمرو لم يسمع من يعلى بن مرة. =

الجن، ولا أن الجن كانت تتلبس بأحد من الناس.

بل صحَّ عنه ﷺ ما يدل على أن ما يجري للمصروع ليس تسلطاً شيطانيّاً، ولكنه مرض يؤجر الإنسان بالصبر عليه كما يؤجر بالصبر على غيره من الأمراض، فعن عطاء بن أبي رباح قال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**». فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا[1].

= وعن عُثْمَانَ بْنِ أَبِي العَاصِ قَالَ: لَمَّا اسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الطَّائِفِ جَعَلَ يَعْرِضُ لِي شَيْءٌ فِي صَلَاتِي حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ رَحَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**ابْنُ أَبِي العَاصِ**؟»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**مَا جَاءَ بِكَ؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَرَضَ لِي شَيْءٌ فِي صَلَوَاتِي حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي قَالَ: «**ذَاكَ الشَّيْطَانُ ادْنُهْ**»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَجَلَسْتُ عَلَى صُدُورِ قَدَمَيَّ، فَضَرَبَ صَدْرِي بِيَدِهِ، وَتَفَلَ فِي فَمِي وَقَالَ: «**اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ**»، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**الحَقْ بِعَمَلِكَ**». فَقَالَ عُثْمَانُ: فَلَعَمْرِي مَا أَحْسِبُهُ خَالَطَنِي بَعْدُ. «سنن ابن ماجه» (٣٥٤٨)، وفيه محمد بن عبد الله الأنصاري قال أبو داود: تغير تغيراً شديداً، وقد أخرج مسلم الحديث عن عثمان ابن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي. «صحيح مسلم» (٢٢٠٣)، وعنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**أُمَّ قَوْمَكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي شَيْئًا قَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَجَلَّسَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ فِي صَدْرِي بَيْنَ ثَدْيَيَّ. ثُمَّ قَالَ: «**تَحَوَّلْ**»، فَوَضَعَهَا فِي ظَهْرِي بَيْنَ كَتِفَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**أُمَّ قَوْمَكَ. فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الكَبِيرَ، وَإِنَّ فِيهِمُ المَرِيضَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَإِنَّ فِيهِمْ ذَا الحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَحْدَهُ، فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ**». «صحيح مسلم» (٤٦٨)، والإمام مسلم أتقن رواية الحديث وأحسن سياقته، وليس في روايته: «**اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ**»، وتدل روايته على أن كيد الشيطان هو الوسوسة، وليس الصرع والتلبس.

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧٦).

فلو كان الشيطان هو الذي يتلبّسها، ويتكلم على لسانها وقت صرعتها، ويستولي على جسدها وعقلها، لم يكن رسول الله ﷺ ليتركه يصرعها ويتلبسها، ولكان دعا لها بلا شك، لكنه بيَّن لها أن الأفضل لها أن تصبر وأن لا يدعو لها، وإلا فالتخلص من الشيطان والاستعاذة بالله من وسوساته أمر واجب ومندوب، ولا يؤجر المرء على ترك ذلك، وهذه صحابية تصلي مع رسول الله ﷺ وتسمع قراءته، فكيف لا يطرد هذا الشيطان المتلبس، لو كان هو سبب الصرع[1]؟

قال ابن حزم: وأما كلام الشيطان على لسان المصروع فهذا من مخاريق العزامين، ولا يجوز إلا في عقول ضعفاء العجائز، ونحن نسمع المصروع يحرك لسانه بالكلام، فكيف صار لسانه لسان الشيطان، وقل عن هذا التخليط ما شئت. وإنما يلقي الشيطان في النفس يوسوس فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، فهذا هو فعل الشيطان فقط، وأما أن يتكلم على لسان أحد فحمق عتيق وجنون ظاهر، فنعوذ بالله من الخذلان والتصديق بالخرافات[2].

وقال الرازي: إن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه:

الأول: أنَّا لو جوَّزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ

(١) ينظر: مقالة: «من هم الجن والشياطين؟ وما هو تأثيرهم علينا؟».

(٢) «رسائل ابن حزم» (٣/ ٢٢٨).

لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى.

الثاني: أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء؟ ولم لا يخرب دورهم؟ ولم لا يقتل أولادهم؟

الثالث: أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة(١).

ولذا فما يعمله بعض قسس النصارى من ادّعاء إخراج الأرواح الشريرة، وبعض الرقاة من المسلمين من احتفاليات إخراج الجن فأكثرها تلبيس على الناس وخداع للبسطاء.

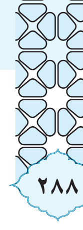
وكذلك لم يثبت وجود علاقة أحدٍ من الصحابة بالجن ولا صحبتهم له، ولذا فكل ما يروى من لقاء الإنس بالجن والزواج بهم فكلها أحاديث غير صحيحة، وما يذكر عن بعض العلماء كالأعمش وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من أخبار زواج الجن بالإنس ونحوه فهي جزء من الثقافة الشعبية، وليست من العلم الشرعي.

٦- وكان فيما أخبر الله به وأخبر به رسوله ﷺ عن الجن ما يبين ضعفهم قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وأخبر ﷺ أن عمر ما سلك فجّاً إلا سلك الشيطان فجّاً غيره، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجاً إِلَّا سَلَكَ فَجاً غَيْرَ**

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٦/ ٣٩٧).



فَجِّكَ»[١]، وأخبر أنه يكفي في حجبهم إغلاق الباب، ويكفي في منعهم ذكر الله ووضع عود على الإناء، فقال ﷺ: «**غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا البَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَاباً، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرِضَ عَلَى إِنَائِهِ عُوداً، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللهِ، فَلْيَفْعَلْ**»[٢].

وأخبر ﷺ أن الشيطان يتعاظم عند سبِّه ولعنه، ويتضاءل عند ذكر الله عليه، فعَنْ أَبِي المَلِيحِ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «**لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»[٣].

ولذا فالتهويل من قدرات الجن وتصرفهم بالأرض ومن عليها، وما نسمعه من أقاصيص تذكر في كتب الحكايات والأخبار غير الموثوقة فهو تراث الثقافة الشعبية وليس حقائق العلم وصادق أخباره.

خلاصات:

١- أُرسل نبينا ﷺ إلى الجن والإنس عامة، ولم يُبعث نبي من البشر إلى الجن إلا هو ﷺ.

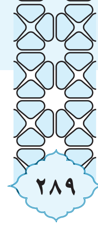
٢- استمعت الجن إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في وادي نخلة فآمنوا به، ثم تعددت لقاءاتهم بالنبي ﷺ بعد ذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠١٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٨٢).



٣- كانت استجابة الجن الذين سمعوا القرآن استجابة إيمان ويقين، ولذا رجعوا دعاة منذرين إلى قومهم.

٤- لم يثبت عنه ﷺ أنه استعان بالجن في أمر من أموره مع الشدائد الكثيرة التي مرت به، مما يدل على بطلان دعاوى الاستعانة بالجن.

٥- جاء النص القرآني قاطعاً بعدم رؤية الجن، فمن ادَّعى رؤيتهم فقد ادَّعى ما نفاه القرآن.

٦- لم يثبت أن أحداً في زمن النبي ﷺ تلبَّسته الجن، أو أن النبي ﷺ أخرج جناً من أحد، وما ورد من ذلك فروايات لا تثبت.

٧- لم يثبت وجود علاقة لأحد من الصحابة بالجن ولا صحبتهم له، ولذا فما يحكى عن علاقة الجن بالإنس وزواجهم منهم ونحو ذلك فحكايات لا تصح.

٨- دلَّت دلائل القرآن والسنة على ضعف الجن، ولذا فالتهويل من قدرات الجن وتصرفهم بالإنس هو من الثقافات الشعبية وليس من حقائق العلم.



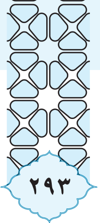




الباب الثالث

الرسول ﷺ وعبادته





الدعاء النبوي(١)

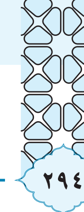


كيف يكون دعاء من هو أعلم الخلق بالله، وأخشاهم لله، وأتقاهم لله؟ كيف تكون مسألته وضراعته ومخافتته ونجواه؟

١- إننا نستشف من أدعية الرسول ﷺ وحاله وهو يدعو أن دعاءه تلذذٌ بالمسألة لله، واستشعارٌ لشرف العبودية له حال الضراعة إليه، وأن الدعاء والضراعة حال قرب من الله يستشعر فيها العبد ربوبية الله وعظمته، ورحمته وكرمه، وغناه وعظيم قدرته ونفوذ مشيئته، يتجلى لنا ذلك من حال النبي ﷺ في دعائه فهو يستفتح الدعاء بجوامع الثناء على الله والتعظيم له حتى تستشعر أن روحه تعرج إلى الملأ الأعلى في سبح قدسي مع مشاعر التعظيم والإجلال لله بحسن الثناء عليه.

٢- إن هذه الفواتح في الدعاء تبين لنا حالة التلذذ بالدعاء، وجميل الثناء بجوامع الثناء والتعظيم لربه الذي يدعوه ويسأله، فمن ثنائه في دعائه: **«اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ**

(١) استفدت من كتاب: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» للشيخ محمد الغزالي رحمه الله.



شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الفَقْرِ»[(١)].

وكان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»[(٢)].

إن هذا الثناء العظيم في فواتح الدعاء وخواتمه يبين أن الدعاء النبوي حالة استغراق في معاني العبودية لله والتعظيم له.

٣- ومن تلذذه بالدعاء الثناء على الله بالامتنان له بعظيم إنعامه ففي دعاء سيد الاستغفار: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي**»[(٣)].

٤- وكما كانت الضراعة في دعائه ومناجاته كانت الضراعة في حاله حين يدعو ربه ومن ذلك: رفع يديه وبسطهما وربما رفعهما حتى يبدو بياض إبطيه، وعندما وقف بعرفة يدعو رفع يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، مبالغة في إظهار الافتقار والذل لله ﷻ.

ومن مشاهد ضراعته وإلحاحه في دعائه مناشدته ربه يوم بدر، ففي ليلة المعركة استقبل ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[(٤)]. فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).

حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك[١].

إن هذا المشهد يبين حالة الانفعال الشديد في الدعاء، إنه دعاء بكل المشاعر، وبكامل الاستغراق في المناجاة الضارعة حتى يسقط رداؤه من منكبيه وهو على هذه الحالة، وحتى يشفق عليه صاحبه، فيلتزمه من خلفه لما يرى من شدة تأثره.

ومن مشاهد الضراعة في دعائه ﷺ، وبراءته من حوله وقوته، ولياذه بحول الله وقوته، كثرةُ دعائه بالثبات على الدين حتى عجبت أمنا أم سلمة من كثرة ما يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». فقال لها: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[٢].

إن هذا الرسول الكريم الذي جاء بالهدى للعالم، وعلَّم البشرية دين ربها، ودلها على الصراط المستقيم بل لا تعرف البشرية هدى وديناً حقّاً إلا ما علمها وهداها إليه، ومع ذلك يُكثر سؤال ربه الثبات على دينه.

إنه مشهد الإعراض عن النظر إلى النفس، وتوجيه النظر بإجلال وتعظيم إلى فضل الله ومنته وكريم عطائه، وأن كل هُدىً أصبناه وطريق حقٍّ سلكناه فهو محض فضل الله علينا بالهداية والتوفيق والإعانة كما كان إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام ثم يدعو ربه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وكما كان يوسف عليه السلام بعد العمر المديد في الدعوة والإحسان يدعو ربه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).

إن رسل الله هم أعلم الخلق بالله، وأعظمهم امتنانا له، وضراعة في دعائهم إذا دعوه ومسألتهم إذا سألوه.

٥- كما نلاحظ شمول الدعاء لكل حال من أحوال حياته، فعندما يضع جنبه لينام يدعو، وعندما يخرج من بيته يدعو، وعندما يدخل المسجد يدعو، وفي صلاته يدعو، وفي خروجه من المسجد، وعندما يريد سفراً، وعندما يدخل بلداً، وعندما يعود من سفره، وهكذا فكل حال من أحواله لها عبوديتها ودعاؤها الذي يناسبها.

كما أنه كان في أدعيته يستوعب حاجات الدنيا والآخرة، فيسأل الله لشأن دنياه كما يسأله لشأن آخرته، وانظر في هذا الدعاء كيف أورد فيه الاستعاذة بالله واللجوء إليه أن يجيره من منغصات الحياة الدنيا ومكدرات صفو العيش فيها: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضلع الدَّيْنِ**[١] **وَغلبة الرِّجَالِ**»[٢]، وكان يستعيذ بالله كثيراً من المأثم والمغرم فيُسألُ عن ذلك فيقول: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»[٣].

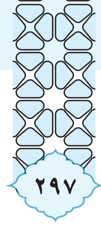
وإذا سافر سأل ربه صحبته في سفره، ووقايته من وعثاء السفر، وما يعرض فيه من أخطار واستودع ربه أهله وماله: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ**[٤]، **وَكَآبَةِ**

(١) ضلَع الدين: أي ثقله، والضلَع: الاعوجاج، أي: يثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء والاعتدال. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٨٣٢)، و«صحيح مسلم» (٥٨٩).

(٤) وَعْثاء السفر: أي شدته ومشقته، وأصله من الوعْث وهو الرمل، والمشي فيه يشتد على صاحبه =



المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ»[١].

بل حتى لحظات القرب الحميمية إلى الزوجة لها دعاؤها: «**بِاسْمِ اللهِ، اللهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا**»[٢]، لقد اتسعت عبودية الدعاء لتشمل مناحي حياته كلها.

ومن دعائه لدينه ودنياه: «**اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»[٣].

وكان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**». ثم يقول له: «**فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ**»[٤].

وهكذا تتسع مساحة الدعاء لتشمل ما يهمه في دنياه وأخراه.

٦- وكان في دعائه يتقصَّد جوامع الدعاء الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدَع ما سوى ذلك، ولذا كان أكثر دعائه: «**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»[٥].

= ويشق. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٠٦).

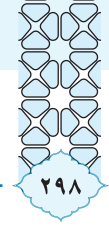
(١) «جامع الترمذي» (٣٤٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤١)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧٢٠).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٩٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٩٠).



وعلَّم عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن تدعو بهذا الدعاء: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْراً**»[(١)].

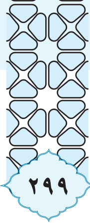
فانظر هل ثمة خير يدعى به لم يحوه هذا الدعاء، وهل ثمة شر يستعاذ منه لم يستدفع بهذا الدعاء النبوي الجامع؟

وقد أخذ الصحابة عنه فقه الدعاء، وحسن المسألة واختيار الجوامع من الدعاء وترك التكلف والاعتداء فيه، سمع سعد بن أبي وقاص ابنه يدعو ويقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال له: يا بني إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإياك أن تكون منهم، إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر[(٢)].

٧- وقد سعد أصحابه بدعواته الطيبة المباركة فقد دعا لهم أحياء وأمواتا، قال عوف بن مالك: صَلَّى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ**

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٨٤٦).

(٢) «سنن أبي داود» (١٤٨٠).



نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ المَيِّتَ[١].

ومن ذلك: دعاؤه لخادمه أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**». قال أنس: فَوَاللهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ المِئَةِ اليَوْمَ[٢].

وسعدت أمّته بدعواته التي كان يدعو بها بضراعة وإلحاح، وشدة مناشدة لربه، فعندما كسفت الشمس خشي أن تكون تلك عقوبة عجلت على أمته فَسُمع في سجوده ينفخ وينادي ربه: «**رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**»[٣].

إن هذه المناشدة اللحوح في استدفاع العذاب عن أمته تبين كيف كانت أمته همه الأكبر وكيف كانت رأفته ورحمته بها، ودعاؤه لها.

وفي موقف آخر تلا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى**». فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨١).

(٣) «سنن أبي داود» (١١٩٤).

رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»[١].

وقد دعا ربه لأمته أن يدفع عنها الجوائح العامة المهلكة في صلاة أطال دعاءها ومناشدة ربه فيها، يقول سعد بن أبي وقاص: أقبل رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ العَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثاً فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»[٢].

ولإن كانت هذه الدعوات لأمته في عمرها الدنيوي فإنه ﷺ قد ادَّخر أغلى دعواته وهي الدعوة المستجابة ليدعو بها لأمته أحوج ما تكون إليها، وذلك يوم القيامة فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ**»[٣]. لقد دعا لأمته في حياته وأكثر وألح، ثم ادخر هذه الدعوة المتحققة الإجابة والتي أعطيها كل نبي ليدعو بها لأمته في يوم الهول والشدة، فما أعظم بركة هذا النبي على أمته، وما أسعد هذه الأمة بنبيها بدعوته ودعائه.

لقد كان دعاء النبي ﷺ ربه دعاء ضراعة وإلحاف، ودعاء تذلل وتلذذ، وكان دعاؤه جوامع الدعاء، التي اتسعت لتشمل خيري الدنيا والآخرة، واتسعت دعواته لتشمل أمته لخير دنياها وأخراها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٨).

خلاصات:

١- كان دعاؤه ﷺ دعاء التذلل والتلذذ بالضراعة لله، والغنى بمسألته.

٢- كانت فواتح دعائه الثناء على الله وتعظيمه، والامتنان له بعظيم إنعامه.

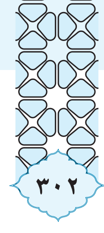
٣- ومن ضراعته خضوعه حال الدعاء برفع يديه، وشدة مناشدته ربه وإلحافه في مسألته.

٤- كان يدعو الله على كل أحواله، كما كان يذكره على كل أحواله.

٥- كانت أدعيته شاملة لحاجات دنياه وآخرته.

٦- سعد أصحابه بدعائه، وسعدت أمته بدعواته، وادَّخر دعوته المجابة شفاعة لأمته أحوج ما تكون إليها.





الاستغفار النبوي

عندما تجمع أحاديث استغفار النبي ﷺ ربه، وأحواله في هذا الاستغفار، ثم تنظر إليها من زوايا متنوعة سوف تلحظ أموراً مدهشة منها:

١- كثرة الاستغفار واللهَج به بحيث يُحصي له أصحابه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**». ولك أن تتساءل فكم استغفر إذن قبل أن يحضر هذا المجلس؟ وكم استغفر بعد أن قام منه؟!

ويخرج على أصحابه يوماً وهم جلوس فيقول لهم: «**مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ، إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللهَ فِيهَا مِئَةَ مَرَّةٍ**»[(١)]. والغداة هي الصباح ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، ففي بكور يومه يستغفر مئة مرة، فكم يكون استغفاره بقية يومه؟!

٢- كما نلاحظ أن النبي ﷺ إذا دعا ربه فإنه يدعو بجوامع الدعاء من خيري الدنيا والآخرة من غير تفصيل في الدعاء، إلا في الاستغفار فإنه يفصِّل فيه ما لا يفصَّل في غيره فيقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي،**

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٢٠٢).

وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١].

ومعلوم أنه لو قيل: اغفر لي كل ما صنعت كان أوجز، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الاستغفار والتضرع، وإظهار العبودية والافتقار، واستحضار الأنواع التي يتوب العبد منها تفصيلاً أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار.

فإن الاستغفار عبودية لله، وافتقار إليه، وتذلل بين يديه، فكلما كثَّرَهُ العبد وطوَّلَه وأعاده وأبداه ونوَّع جُمَلَه؛ كان ذلك أبلغ في عبوديته، وإظهار فقره، وتذلـله، وحاجته، وكان ذلك أقرب له من ربه، وأعظم لثوابه[٢].

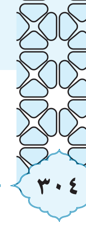
وهذا التفصيل في الاستغفار له دلالته على تأكيد الاعتراف، ودلالته على مزيد التذلل لله والإلحاح في طلب المغفرة، والاستعلان بالتقصير في أداء الحق وما يجب تجاه الرب المنعم المتفضل.

٣- وهنا نتساءل: ممَّ وعمَّ يستغفر النبي ﷺ هذا الاستغفار بهذا الإكثار وهذا التفصيل؟ وما هو الذنب الذي يُذكِّرُه به ربه فيقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ مع أنَّا نعلم من سيرته ﷺ أن حياته صافية كالزجاجة، فلا إثم ولا خطأ ولا خطيئة، فممَّ يستغفر من كانت حياته صافية هذا الصفاء، وأوقاته متواصلة بالعبادة لله والتقرب إليه؟!

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

(٢) «جلاء الأفهام» لابن القيم (٣٤٣).



إن الجواب عن هذا التساؤل هو أن هذا النبي ﷺ هو أعلم الخلق بالله، وأعظمهم له تقوى وخشية، ولكمال معرفته بربه فإنه يعلم أن كل ما يعمله العبد مهما عمل، ومهما توقى واتقى فسيظل قاصراً ومقصراً عما يجب أداؤه للرب الجليل الذي غمر فضله وتتابعت نعمه وتوالى إحسانه.

ولذا فإنه يستغفر استشعاراً للتقصير فيما وجب عليه من أداء هذا الحق.

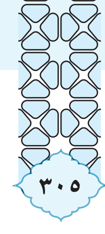
فتراه يستغفر كل غداة مئة مرة، ولك أن تتساءل ما الذي سبق هذا الاستغفار الصباحي من عمل عند النبي ﷺ؟ لقد سبقه قيام الليل، والوتر، وركعتي سنة الفجر، ثم صلاة الفجر، وقرآن الفجر، ثم أذكار الصباح، ثم يعقب كل هذه العبادات المتتابعة بالاستغفار مئة مرة.

إن هذا الاستغفار ليس لخطيئة سلفت أو ذنب مضى، ولكنه استشعار لعظيم حق الله ونعمته وفضله مع التقصير في أداء هذا الحق، فحق الله أعظم من أن يؤديه مخلوق، وحقه أعظم من عبادة عباده، ولذا يلح في الاستغفار.

ويأتي استغفار النبي ﷺ بعد أداء الأعمال الصالحة، فبعد السلام من الصلاة يستغفر ثلاثاً، مع أنه فرغ من عبادة من أعظم العبادات وأفضلها.

وعندما بشر بالفتح جاءته معه البشرى بمغفرة ذنوبه ما تقدم وما تأخر: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

فلما وقع الفتح جاءه الأمر بكثرة الاستغفار: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت



عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يتأول القرآن[١].

فبعد عشرين سنة من الجهد والجهاد والدعوة والبلاغ، وبعدما تحققت الهداية ودخل الناس في دين الله أفواجاً، يلح في الاستغفار زيادة على إلحاحه، ويكثر منه زيادة على إكثاره، وكأنما يقول لربه: ومع كل ما عملت لك يا رب فإني استغفر من تقصيري عن أداء حقك، وشكر فضلك، فاغفر لي تقصيري فيما عملت، فعملي قليل وجهدي قاصر، وحقك علي عظيم، فاغفر عظيم تقصيري في أداء عظيم حقك.

ولما قال ﷺ: «**لَنْ يُدخِلَ أَحَداً الجَنَةَ عَمَلُهُ**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»[٢].

فالعمل مهما وُفِّي وكُمِّل قاصر عن أداء الحق الإلهي العظيم.

والنعم من الله إلى عبده غير متناهية، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، فإذا كان العبد عاجزاً عن إحصاء نعم الله عليه فكيف بشكرها وأداء حق الله فيها، فما بقي إلا الاعتراف بالتقصير الكبير، والاستغفار الكثير، والاستعتاب إلى الله، والاعتراف بالتقصير في عظيم حقه.

ويوضح ذلك جوابه ﷺ للصديق عندما سأله فقال: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال: «**قُل: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤). وقولها: يتأول القرآن: أي يعمل بما أمر به. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨١٦).

إِلَّا أَنْتَ، فَاغفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

فهذا الصديق أفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو الذي يدعى من أبواب الجنة الثمانية كلها، ومع ذلك يعلّمه المصطفى دعاء فيه الاعتراف بظلم النفس، وليس أي ظلم ولكن ظلماً كثيراً، ثم يستجدي ربه ويستغفره بهذا التذلل والاسترحام: «**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**». أي: مغفرة تبتدئني بها وتتفضل بها علي، «**وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

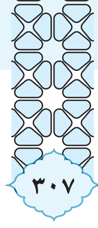
إن هذا المعنى إذا تجلى لنا لفت بصائرنا إلى حاجتنا للاستغفار، وأننا عندما نستغفر فلا يلزم أن نتذكر ذنباً نراه نصب أعيننا، ولكن نتذكر عظيم حق الله علينا، وسابغ إنعامه وفضله، وعظيم تقصيرنا في حق الله، كما علمنا نبينا ﷺ في دعاء سيد الاستغفار: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»(٢).

فلا ينفك العبد آناء ليله ونهاره من حاجة إلى الاستغفار، لأنه لا ينفك آناء ليله ونهاره من تتابع أفضال الله وإنعامه التي يتقاصر عمله مهما عمل عن شكرها وأداء حقها، فكيف إذا حصلت مع ذلك الهفوات والخطايا والذنوب، فالرب يُعطي والعبد يُخطئ، فيبوء العبد لله بإنعامه عليه، ويبوء بخطئه وذنبه.

وعندما نتذوق الاستغفار بهذا المعنى فإنا ننفذ إلى حقيقته، ونؤديه لله بتلذذ وذوق، واستشعار لعظيم الاحتياج إلى تلقي مغفرة الله، والإلحاح

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).



على الله في سؤالها، عسى أن نكون ممن يتلقى ربُّنا استغفارَه بقوله: «**عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ**»[(١)].

خلاصات:

١- كان ﷺ يكثر الاستغفار فيستغفر في كل صباح مئة مرة، ويُعَد له في المجلس سبعين مرة.

٢- كان يُفصِّل في الاستغفار ما لا يفصل في غيره من الدعاء، مبالغة في التذلل والخضوع له.

٣- لم يكن استغفار النبي ﷺ من خطيئةٍ قارفها، أو إثم ارتكبه، ولكنه استغفار المستشعر تقصيره في عظيم حق الله عليه.

٤- لا يلزم حين نستغفر أن نتذكر خطيئة أمام أعيننا نرقبها ونستغفر الله منها، بل نستغفر من تقصيرنا في أداء ما يجب من حق الله علينا.



(١) «مسند أحمد» (٧٩٤٨).

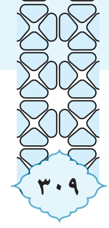
الرَّسُولُ ﷺ وقيام الليل

كيف يكون قيام من أُنزل عليه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؟ وكيف يكون حال من أُنزل عليه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾؟

إن حال النبي ﷺ مع قيام الليل حال عاجبة، عندما نقف معها ونتأملها نشعر أن النبي ﷺ وهو يقوم الليل كأنما تعرج روحه وأشواقه إلى الملأ الأعلى، ويتضح ذلك من:

١- اختيار وقت الاستيقاظ لقيام الليل، فيستيقظ النبي ﷺ في نصف الليل الآخر وقت التنزل الإلهي، وإذا نظرنا إلى هذا الوقت بالنسبة ليوم النبي ﷺ الكامل نلاحظ أن هذا الوقت هو ذروة نشاط النبي ﷺ لأنه مسبوق بأطول فترة نوم ينامها، فهي من أول الليل إلى نصفه، أما بقية فترات نومه فهي أوقات قصيرة في آخر الليل أو القيلولة، وكأنما فترة النوم الطويلة تهيئة لانبعاث لعمل مهم، ونشاط يحتاج إلى استيقاظ كامل فيختار له النبي ﷺ الوقت الذي قد استجم فيه جسده، واستجمع فيه قوته وعافيته ويقظة ذهنه.

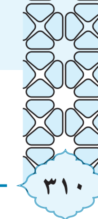
٢- وإذا نظرنا إلى النبي ﷺ حين يستيقظ في نصف الليل نلاحظ أنه يتهيأ للقيام بمجموعة استعدادات تشعرك أنه يتهيأ بها للدخول في عبادة



يستغرق فيها استغراقاً كاملاً، فعندما يستيقظ من النوم يمسح النوم عن وجهه المقدس، ويطيب فمه الطيب بالسواك، ثم ينظر إلى السماء كأنما يتناجى مع نجومها وينظر إلى عظمة صنع الله فيها وهو يقرأ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، حتى يتم عشر الآيات من آخر سورة آل عمران، ثم يقوم ﷺ إلى شَنٍّ[١] معلقة فيتوضأ منها ثم يلبس ﷺ لباسه ويتهيأ للصلاة[٢]، ومن تهيؤه للصلاة الذكر قبلها، تذكر أمنا عائشة أنه كان قبل أن يصلي صلاة الليل يسبح عشراً، ويكبر عشراً، ويهلل عشراً[٣]، ثم يبدأ الليل بركعتين خفيفتين كأنما هي تحضير لطول القيام[٤].

٣- فإذا صلى ﷺ صلاة التهجد صلى صلاة تشعر من وصفها أنه مستغرق فيها كامل الاستغراق، ومن استغراقه فيها أنه يبدأها إذا كبر بأدعية الاستفتاح وبأذكار مفصلة طوال كلها تعظيم لله وثناء عليه وتوسل إليه، فيستفتح استفتاحاً طويلا غير استفتاحه عندما يصلي الصلوات المكتوبة التي يُقصِّر فيها الاستفتاح، فتستشعر أنها نجوى مع الله ﷻ فيها تعبد وتلذذ، ومن استفتاحه في صلاة الليل أن يقول: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ،**

(١) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٥٦٣)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٦١٧).
(٤) «صحيح مسلم» (٧٦٧).



وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[١].

كل هذا التألُّه قبل أن يقرأ الفاتحة، فإذا قرأ الفاتحة قرأ قراءة مترسّلة يقف عند كل آية، ثم قرأ فأطال القراءة كأنما روحه تعرج إلى السماء، لقد كان ﷺ إذا صلى بالناس فهو أخف الناس صلاةً، أما إذا قام إلى صلاة الليل فهو أطول الناس صلاةً، صلى معه حذيفة ليلةً قال: فاستفتح سورة البقرة فقلت يركع عند المئة، فمضى، فقلت يركع عند المئتين، فمضى، فقلت يتم البقرة ثم يركع، فمضى، فاستفتح النساء ثم استفتح آل عمران يقرأ قراءة مترسلة مرتلة، لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا يمر بآية عذاب إلا استعاذ، ولا يمر بآية تسبيح إلا سبح.

ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**». ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيباً مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ[٢].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِماً حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قالوا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).

وقد يتأثر بآية فيقف عندها ويكررها خشوعاً ودعاءً، فعن أبي ذر قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(١)].

ثم يناجي ربه في ركوعه وسجوده مناجاة ضارعة فيها ذل المسألة، والإلحاف في الدعاء، والتلذذ بالنجوى.

وكانت صلاته متقاربة في الطول بين أركانها، فكان قيامه وركوعه وسجوده قريباً من السواء.

٤- أتخيل النبي ﷺ في تلك الحال، وأتخيل سكون ليل المدينة الساكن، وهذا النبي يُقطِّع هذا الليل بقراءة خاشعة، ودعوة ضارعة، وتسبيح قدسي، فأتخيل جبال المدينة كأنما تستمع إليه وتأوَّب معه، أتخيل نجوم السماء تومض في السماء كأنما تنظر إليه، أتخيل النجوى بين آيات الله في كونه بين الأرض وجبالها، والسماء ونجومها، وكأنما يناجي بعضها بعضاً، تقول: انظروا إلى قيام هذا النبي الذي أنزل عليه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، استمعوا إلى ترتيل هذا النبي الذي أنزل عليه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وأتخيل النبي ﷺ في سبح قدسي كأنما ارتفع إلى الملأ الأعلى، فهو ينظر إلى عرش ربه بارزاً، وكأنما سبحات الأنوار الإلهية تغشاه فهو في حال آخر، وفي شأن آخر، وفي استغراق آخر، في استغراق التلذذ بالعبودية لله ﷻ، ولذا فلا عجب أن يقوم فيطول قيامه حتى تفطرت قدماه، وتشقق الأقدام في البيئة الصحراوية الجافة معروف ومألوف، يعرض لأصحاب المهن والأعمال الشاقة، أما النبي ﷺ فكانت قدماه تتفطر من طول القيام في صلاة الليل.

(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٥٠).

فلما قيل له: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**»[١].

يا رَبِّ صَلِّ وَسَلِّم ما أَرَدتَ عَلى ... نَزيلِ عَرشِكَ خَيرِ الرُسلِ كُلِّهِمِ

مُحيِ اللَيالي صَلاةً لا يُقَطِّعُها ... إِلّا بِدَمعٍ مِنَ الإِشفاقِ مُنسَجِمِ

مُسَبِّحاً لَكَ جُنحَ اللَيلِ مُحتَمِلاً ... ضُرّاً مِنَ السُهدِ أَو ضُرّاً مِنَ الوَرَمِ

رَضِيَّةٌ نَفسُهُ لا تَشتَكي سَأَماً ... وَما مَعَ الحُبِّ إِن أَخلَصتَ مِن سَأَمِ[٢]

٥- بقي أن تعلم أن هذا النبي يصلي هذه الصلاة في بيت زويت عنه أمتعة الدنيا ومتاعها، فليس فيه ما يصلي عليه إلا حصير صغير يسمى الخُمرة، لا يتسع إلا لموضع السجود، وربما لم يجد في بيته ما يصلي عليه إلا فراشه الذي تنام عليه زوجته فإذا أراد أن يسجد غمزها فكفت رجليها فإذا قام بسطتهما، وربما خرج رفقاً بزوجته فصلى في المسجد، تقول أمنا عائشة: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقمت وقلت ربما خرج إلى إحدى نسائه وجعلت ألتمسه فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سُبْحَانَكَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا في شأن وأنت في شأن آخر[٣]. ذاك نبينا الذي قال فيه ابن رواحة:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[٤]

٦- وكان ورده المعتاد من القيام أن يقوم ثلث الليل كقيام نبي الله داود

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٢/ ٥٥).

عليه السلام، قال ﷺ: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»(١).

فيقوم منتصف الليل فيصلي إحدى عشرة ركعة إلى أن يبقى نحو سدس الليل فيرجع فينام إلى الفجر، قالت عائشة: مَا الفَى رَسُولَ اللهِ ﷺ السَّحَرُ الأَعْلَى فِي بَيْتِي إِلَّا نَائِماً(٢).

فيجمع في ليله بين الصلاة والنوم، كما قالت عائشة: لا أعلم رسول ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلةً حتى الصباح، ولا صام شهراً قط كاملاً غير رمضان(٣)، وذلك لمراعاة حقوق البدن، والمحافظة على القوة من الإنهاك.

٧- وكان يوقظ أهله لصلاة الليل ويترفّق بهم، فعن علي رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عليه السلام لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئاً، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾»(٤).

٨- وفي آخر عمره ﷺ حَطَمه الناس لكثرة الوفود عليه فبدن جسمه وفقد لياقته، وما عاد يطيق من الصلاة قائماً ما كان يطيق، فصار يصلي قيام الليل قاعداً، قالت عائشة رضي الله عنها: لَمْ يَمُت النَّبِيّ ﷺ حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ صَلَاتِهِ وَهُوَ جَالِسٌ(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٣١)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

(٤) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

(٥) «صحيح مسلم» (٧٣٢).

وقالت: لَمَّا بَدَّنَ رَسُولُ الله ﷺ، وَثَقُلَ، كَانَ أَكْثَرُ صَلَاتِهِ جَالِساً[١].

وكان ذلك قبل وفاته بعام أو عامين، فما ترك ﷺ قيام الليل في حضرٍ ولا سفر ولا صحة ولا مرض، ولذا قالت عَائِشَة: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَدعُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ، أَوْ كَسِلَ، صَلَّى قَاعِداً[٢].

خلاصات:

١- صلاته ﷺ بالليل هي أطول صلاته وأكثرها استغراقاً وترسلاً وتألهاً، أما صلاته بالناس فيوجزها في تمام.

٢- كان يستيقظ للتهجد منتصف الليل، ويصلي نحو ثلث الليل ثم يرجع فينام آخر الليل، وهو قيام نبي الله داود عليه السلام.

٣- وقت استيقاظه للتهجد هو وقت ذروة نشاطه وحيويته لأنه بعد أطول فترة نوم نامها.

٤- كان يتهيأ للقيام باستعدادات تشعرك أنه يتهيأ للدخول إلى الصلاة ليستغرق فيها استغراقا كاملا.

٥- كان يوقظ أهله لصلاة الليل بما يطيقونه فيوقظ زوجته إذا أراد أن يوتر، ويطرق على علي وفاطمة يدعوهم للقيام.

٦- كان ﷺ يصلي لربه هذه الصلاة في بيت زويت عنه أمتعة الدنيا وزهرتها، ومصلاه فيه هو حصير أو فراش نومه مع زوجته.

٧- قام ﷺ حتى تفطّرت قدماه من طول القيام فلما قيل له في ذلك قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟!**».

---

(١) «صحيح مسلم» (٧٣٢).

(٢) «سنن أبي داود» (١٣٠٧).

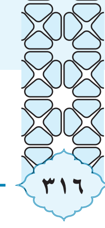
الرَّسُولُ ﷺ والقُرآن

كيف تكون حال الذي أنزل عليه القرآن مع القرآن؟ كيف تكون حال أعلم الخلق بالله مع كلام الله؟

١- عندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع القرآن نجدها حالاً واسعة، وعندما ننظر إلى استغراق النبي ﷺ مع القرآن نجده استغراقاً عميقاً، يتجلى ذلك في تلاوة النبي ﷺ للقرآن، فما ظنك بمن أنزل عليه: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، كيف ستكون تلاوته للقرآن، إنها القراءة المستديمة للقرآن التي تستغرق أوقاته وتستوعب حياته، فكان يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً، حتى لحظات الأنس والقرب من زوجاته نراه يقرأ فيها القرآن، تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن[١]. فإذا كان في لحظة القرب من الزوجة والأنس بها لا ينقطع عن قراءة القرآن، فكيف حاله في سعة يومه وفسحة وقته.

بل حتى في لحظات الفزع والكرب كانت سكينته بالقرآن، ففي حديث

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٧)، و«صحيح مسلم» (٣٠١).



سراقة بن مالك حين اتبع النبي ﷺ وأبا بكر في طريق هجرتهما إلى المدينة وقد استُنفِرَ الطلب للحاق بهم، قال سراقة: فركبت فرسي تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[١] يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فَخَرَرْتُ عَنْهَا[٢].

فإذا كان في هذه الحال المخوفة والفارس خلفهم يطلبهم لم يدع الأنس بالقرآن وتلاوته فكيف بحال السعة وطمأنينة البال؟ وهكذا فلم تكن ساعات الأنس تلهيه، ولا ساعات الفزع تذهله عن قراءة القرآن.

وكان إذا أوى إلى فراشه ختم صحو يقظته واستقبل إغفاءة نومه بقراءة ما تيسر من القرآن قبل أن ينام، فربما قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٣]، وأحيانا سورة «الزمر» و«الإسراء»[٤].

٢- وكان إذا أراد القراءة يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كما أمره الله بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وربما كان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْثِهِ، وَنَفْخِهِ**»[٥].

وكانت قراءة النبي ﷺ للقرآن قراءةً مرتلة، فهو الذي تلقى القرآن من ربه مرتلاً: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، وأُمر بتلاوته مرتلاً: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وكان صوته بالقرآن أعذب صوت، وتلاوته أجمل تلاوة، قال البراء بن

(١) ساخت: غاصت في الأرض. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٤٠٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٤٠٥).

(٥) «مسند أحمد» (١٦٧٣٩)، و«سنن أبي داود» (٧٧٥). هَمْزُهُ: المُوتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الكِبْرُ.

عازب: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي العِشَاءِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً مِنْهُ[١].

وكان ﷺ إذا قرأ القرآن قرأه قراءةً مترسلة مرتلة حتى تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[٢]، وتقول أم سلمة: كانت قراءة النبي ﷺ مداً يمد الرحمن، ويمد الرحيم، وكانت قراءته آية آية يقف على رؤوس الآي[٣].

وكان ﷺ يتغنى بالقرآن ويرجع صوته به أحياناً كما رجع يوم الفتح وهو يدخل مكة في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وحكى عبد الله بن مُغَفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ترجيعه آآآ ثلاث مرات[٤].

وكان يقول: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»[٥]، وقال: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ، مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»[٦].

وكل هذا يبين لنا أنه وهو يقرأ القرآن يقرأه بتلذذ واستغراق، فكل آية يعيش معها، تتجلى له كل معانيها، وتفتح له كل مغاليقها، فيعيش معها بغاية التفاعل والتلذذ والاستغراق، وكأنما يترشف معانيها ترشفاً، حتى يتروى منها، ولذلك لما صلى معه حذيفة صلاة الليل وصف قراءته القرآن فقال: فقرأ قراءة مترسلة إذا مر بآية فيها تسبيح لله تتجلى له فيها عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ سبح،

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٣٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٠١).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

(٥) «سنن أبي داود» (١٤٦٨).

(٦) «صحيح البخاري» (٥٠٢٣)، و«صحيح مسلم» (٧٩٢).

وإذا مر بآية فيها رحمة تشوف إليها فوقف وسأل، وإذا مر بآية فيها عذاب فَرِق منها فوقف واستعاذ[١]. إنها القراءة المتفاعلة مع القرآن المستغرقة مع معانيه، المعظِّمة لآياته، كأنما يستشعر وهو يقرأ القرآن كلام الله حين تكلم به إليه، وتَنَزُّل جبرائيل حين تنزَّل به عليه.

٣- وكان ﷺ يعلم أصحابه قراءة التذوق والترتيل التي تتشرب النفس معناها، وترتوي لذتها.

ولذا نهى ﷺ أصحاب الهمة والنشاط من الشباب عن قراءة القرآن في ليلة؛ كما في خبر عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال له: «**اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**». قال: قُلْتُ: إني أجد قوة، قال: «**فَاقْرَأْهُ فِي عِشْرِينَ لَيْلَةً**». قال: قُلْتُ: إني أجد قوة، قال: «**فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ**»[٢].

وعن شقيق بن سلمة أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود فقال: إِنِّي قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ فَقَالَ عَبْدُ الله: هَذّاً كَهَذِّ الشِّعْرِ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ. قَالَ: فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ، سُورَتَيْنِ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ[٣].

لقد فقه ابن مسعود القراءة النبوية ووعاها، ولذا أنكر على الرجل الذي قال له أنه قرأ المفصل كله في ركعة؛ لأن ذلك لا يكون إلا بهَذٍّ سريعٍ كهَذِّ الشعر، وبيَّنَ له هدي النبي ﷺ في قراءته وترسله فيها.

٤- أما قراءة القرآن التي يطيلها ويستغرق معها كامل الاستغراق فكان يدخرها لتهجده في صلاة الليل.

---

(١) «صحيح مسلم» (٧٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٧٥)، و«صحيح مسلم» (٨٢٢).

فكان ﷺ إذا قام في صلاة الليل قرأ تلك القراءة المترسلة الخاشعة، وتلك القراءة الطويلة التي يطيلها لكمال تلذذه بها، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِماً حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قالوا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ[١]. لأن للنبي ﷺ حالاً مع القرآن غير حال غيره، فإذا قرأ القرآن تجلت له كل تلك المعاني العظيمة فقام وأطال القيام وترسل في القراءة بترتيل وتلذذ.

٥- وكان لرمضان خصوصية بالقرآن، ففيه أنزل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، فكان اللقاء الأول مع روح القدس والتلقِّي الأول للقرآن في غار حراء في شهر رمضان، ثم صار هذا الموسم الكريم موعداً لتجديد الذكرى بمدارسة القرآن مع جبرائيل عليه السلام، وكان ﷺ يجد لهذه المدارسة القرآنية مع جبرائيل نشوة وأريحية غامرة يشعر بها الصحابة حوله، قال ابن عباس: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ[٢]، فكانت هذه الأريحية والكرم المتضاعف من أثر مدارسة القرآن مع جبرائيل عليه السلام.

٦- وكما كان يتعبد بتلاوة القرآن كان يتعبد باستماعه والإنصات إليه، مر ﷺ في الليل في أحد سكك المدينة ببيت فيه امرأة تقرأ القرآن فسمع قراءتها وهي تقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وإذا بنبيك ﷺ يقف

(١) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

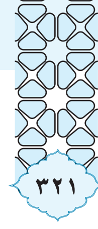
منصتاً ثم يتفاعل ويتجاوب فيقول: «**نَعَمْ، نَعَمْ، قَدْ جَاءَنِي**»[١]. كأنما خطاب الآية توجه إليه تلك الساعة، يخفق لها قلبه، ويتجاوب معها وجدانه.

وقال مرة لابن مسعود: «**اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ**». قال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». فجعل ابن مسعود يقرأ القرآن ونبيك ﷺ يستمع إليه فاستفتح سورة النساء حتى إذا بلغ قول الله ﷻ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا**﴾، قال النبي ﷺ: «**حَسْبُكَ الآنَ**». قال ابن مسعود: فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[٢].

ومرَّ على أبي موسى الأشعري وهو يقرأ في الليل فوقف يستمع لقراءته، فلما لقيه من الغد قال له: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». قال أبو موسى: يَا رَسُولَ الله لو علمت مكانك لحبرته لك تحبيرا[٣].

ومن مقاماته مع القرآن قيامه بتعليمه لأمته وتلقينه لأصحابه، فهو ﷺ الذي فتق أفواه الخلق بالقرآن، وإليه تنتهي روايات التلقي للقرآن على تباعد الأزمان وتفرق الأوطان، قال ابن مسعود أخذت من فيِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة من فيه إلى فيَّ[٤]، ومر أبو طلحة وهو ﷺ يقرئ أهل الصفة القرآن وقد بدا عليهم أثر الجهد والجوع فأمر امرأته أم سليم فصنعت طعاماً لرسول الله ﷺ فدعى إليه من كانوا معه فبورك فيه وكفاهم[٥].

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٥٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٧٩٣).
(٤) «مسند أحمد» (٤٣٣٠).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).



وكما كان القرآن يُقرأ أول ما يُقرأ تلقياً منه، فكذلك كان يُكتب أول ما يُكتب بين يديه، فكان إذا نزلت عليه آية دعا زيد بن ثابت أو غيره من كتاب الوحي فأمره بكتابتها، وبين لهم مكانها من سورتها، قال عثمان رضي الله عنه: كان رسول ﷺ تتنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «**ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»[(١)].

٧- وكان ﷺ إذا وقف يصلي في الليل يُسمع لصدره أزيز[(٢)] كأزيز المرجل من البكاء.

قال عبد الله بن الشخيّر: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ[(٣)]، ذاك البكاء المكتوم، الذي تحسه ولا تسمعه، ليس له نشيج أو ضجيج، ولكن أزيز مكتوم داخل الصدر، هكذا كان النبي ﷺ مع القرآن تلاوة بتلذذ، وترتيل باستغراق وتأثر.

٨- أما المشهد الأعظم للنبي ﷺ مع القرآن فهو العيش بالقرآن، فعن سعد بن هشام بن عامر أنه قدم المدينة فأتى عائشة يسألها عن مسائل فقال: يا أم المؤمنين انبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن، قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال: فهممت أن أقوم فلا أسأل أحداً عن شيءٍ حتى أموت[(٤)]، أي: أن هذا الجواب الجامع سيكفيه عن كل مسألة بعدها.

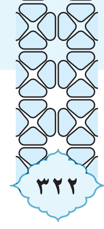
---

(١) «مسند أحمد» (٤٩٨)، و«سنن أبي داود» (٧٨٦).

(٢) أَيْ خَنين مِنَ الخَوْفِ، وَهُوَ صَوْتُ البُكَاءِ. وَقِيلَ هُوَ أَنْ يَجِيش جوفُه ويَغْلي بِالبُكَاءِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٥).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٤٦).



قال ابن رجب: يعني أنه ﷺ كان يتأدب بآدابه، ويتخلق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمه القرآن كان فيه سخطه، وجاء في رواية عنها: كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه[١].

خلاصات:

١- كانت تلاوة النبي ﷺ للقرآن تلاوة مستديمة يصحبها في ساعات الصفاء وحالة الكرب.

٢- كانت قراءته القرآن قراءة مرتلة يقف على رؤوس الآيات، وكان صوته بالقرآن أجمل صوت، وتلاوته أعذب تلاوة.

٣- كان ورد النبي ﷺ في صلاته من قيام الليل هو أطول تلاوته وأكثرها استغراقاً.

٤- كان يتعبد باستماع القرآن كما يتعبد بتلاوته.

٥- كان بكاؤه عند تلاوة القرآن وسماعه ذرف الدمع وأزيز الصدر.

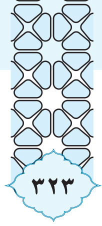
٦- كان معتنياً بتعليم الأمة القرآن، وعنه تلقاه أصحابه وإليه تنتهي وعنده تلتقي روايات القراءة والإقراء.

٧- كما قُرِئَ القرآن أول ما قُرِئَ تلقيّاً منه، فقد كُتِبَ القرآن أول ما كُتِبَ بإملائه وترتيبه، وبين يديه.

٨- كانت التلاوة ممارسة عملية في حياته، فكان خُلُقه القرآن.



(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٨).



الرَّسُولُ ﷺ والجمعة

١- كان للنبي ﷺ حفاوة بيوم الجمعة وتعظيم له، فكان يذكر فضل الله به على أمته وهدايتهم له، وتميزهم به على غيرهم من الأمم، فقال ﷺ: **«أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ»**[١].

ويذكر ما فيه من الخير، وما قدر الله فيه من أحداث الكون فيقول: **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»**[٢].

وهو عيد الأسبوع؛ فله بهاؤه وزينته، واجتماعه وهيئته، ولذا نهى عن صيامه فقال: **«إِنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ»**[٣]، وقال: **«لَا يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَّا يَوْماً قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ»**[٤]. وهو بهذا يشبه يوم

(١) «صحيح مسلم» (٨٥٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٤).

(٣) «مسند أحمد» (٨١٤٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٩٨٥)، و«صحيح مسلم» (١١٤٤).

العيد الذي يحرم صيامه، وذلك أن تخصيصه بالصيام يضعف الإنسان عما فيه من الشعائر، ولا يناسب صيامه مع حال الزينة والاجتماع فيه.

٢- وكان ﷺ يعظم هذا اليوم ويخصه بعبادات فيه دون غيره من الأيام؛ فمن ذلك أنه كان يقرأ في فجر الجمعة سورتي «**السجدة**» و«**الإنسان**»؛ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون في ذلك اليوم، فإنهما اشتملتا على ذكر خلق آدم، وذكر المعاد وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وفيهما تذكير بأحوال الآخرة، وحال أهل الجنة ونعيمهم، وحال أهل النار وعذابهم، ففيهما موعظة وذكرى.

وأَمر بالتهيؤ لصلاة الجمعة والاستعداد لحضورها بالنظافة وجمال الملبس وطيب الرائحة، وحسن الأدب في المسجد.

فأمر بالاغتسال لحضورها فقال: «**الغُسْلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ**»[(١)]، وعن طَاوُس قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ذَكَرُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اغْتَسِلُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَاغْسِلُوا رُؤُوسَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا جُنُباً، وَأَصِيبُوا مِنَ الطِّيبِ**». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا الغُسْلُ فَنَعَمْ، وَأَمَّا الطِّيبُ فَلَا أَدْرِي[(٢)].

وعن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر يوم الجمعة: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ؟**»[(٣)].

وكان ﷺ يلبس ليوم الجمعة أجمل ثيابه، وهذا من الحفاوة بالشعيرة وباجتماع الناس لها، ويدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما رَأَى عُطَارِداً يَبِيعُ حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَأَيْتُ

(١) «صحيح البخاري» (٨٥٨)، و«صحيح مسلم» (٨٤٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٤٨).
(٣) «سنن أبي داود» (١٠٧٨).

عُطَارِداً يَبِيعُ حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَلَوِ اشْتَرَيْتَهَا فَلَبِسْتَهَا لِلْوُفُودِ وَلِلْعِيدِ وَلِلْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا يَلْبَسُ الحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ**»(١).

وإنما قال عمر: لو اشتريتها فلبستها للوفود وللعيد وللجمعة؛ لِما علم من عادته ﷺ في التجمل باللباس للعيد والجمعة.

٣- ومن كمال الاحتفاء بيوم الجمعة التطيب له بما يجد الإنسان من الطيب حتى يكون لاجتماع الناس في المسجد عبق ورائحة زكية، ولذا حث ﷺ على التطيب لشهود الجمعة فقال: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»(٢)، وقال ﷺ: «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ المَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً**»(٣).

ومِن ثَمَّ كان الصحابة بعد أن وسع الله عليهم يُبخِّرون المسجد بروائح البخور الزكية يوم الجمعة قبل الصلاة، فعن نعيم بن عبد الله المُجْمِر أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر أن يبخر مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار، وكان نُعيم بن عبد الله هو الذي يتولَّى ذلك فيهيئ الجمر للبخور ويبخر به المسجد فسُمِّي: نُعيم المُجْمِر(٤).

---

(١) «مسند أحمد» (٦٤٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٤٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٢٢٧)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ١٤٢١).

٤- ومن آداب يوم الجمعة التي أكد عليها ﷺ وأمر أصحابه بها: السكينة حين السعي إليها، والنهي عن أذية الناس بتخطي رقابهم، والإنصات للخطيب حين يخطب فلا يعبث ولا يتكلم مع أحد، وقد جمع هذه الآداب في قوله ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ حَتَّى يَأْتِيَ المَسْجِدَ فَيَرْكَعَ إِنْ بَدَا لَهُ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَداً، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»(١).

وفي هذه الآداب من النظافة، وحسن الهيئة، وطيب الرائحة، وأدب المعاشرة، تعظيمٌ للشعيرة ولليوم المبارك، كما أنها تربية للناس على آداب السلوك في المجامع العامة.

وقد كان ذلك في بيئة فقيرة صحراوية لم تكن تتعاهد ذلك أو توليه هذه العناية، فكان في هذا الأدب النبوي تأهيلٌ للأمة لرعاية الذوق العام في الهيئة والتعامل.

٥- وكان أهل المدينة يقصدون مسجد النبي ﷺ ويشهدون معه الجمعة، فيأتون من نواحي المدينة المتفرقة عاليتها وسافلتها فكان يوم الجمعة يوم اجتماع أهل المدينة من أحيائهم المتفرقة المتباعدة ليلتقوا بالنبي ﷺ ويستمعوا إليه، ويَلْقى بعضهم بعضاً، فهي الجمعة الجامعة.

فإذا اجتمع الناس وزالت الشمس خرج ﷺ بعد الزوال مباشرة فإذا دخل المسجد سلم عليهم، ثم يصعد المنبر ويستقبل الناس بوجهه ويسلم

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٠٥٥).

عليهم ثم يجلس، فيأخذ بلال في الأذان، فإذا فرغ قام ﷺ فخطب خطبتين يجلس بينهما جلسة خفيفة.

وكان منبره ثلاث درجات، يقف على الثانية ويجلس على الثالثة، وكان غربي المسجد وهو مكان المنبر اليوم.

وكان قبل اتخاذ المنبر يخطب مستنداً إلى جذع في قبلة المسجد، فلما وضع المنبر وقام عليه أول مرة حن الجذع حنيناً كصوت العِشار[(١)] حتى سمع صوتَه أهلُ المسجد، فنزل ﷺ وضمه فسُمِع صوتُه كالصبي الذي يسكَّت حتى سكت، فقَالَ ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَرَكْتُهَا لَحَنَّتْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[(٢)].

وكان ﷺ إذا خطب أقبل على الصحابة بوجهه وأقبلوا إليه بوجوههم، وكان يأمرهم بالدنو منه والإنصات له، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه: أنصت، فقد لغا، وإذا مس الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له[(٣)].

وكان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[(٤)] أو قوس[(٥)]، واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[(٦)]، كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه

(١) العِشار: جمع عُشَراء وهي الناقة الحامل التي مضت لها عشرة أشهر. ولا يزال ذلك اسمها إلى أن تلد، مثّل صوت الجذع بحنين العشار عند فراق أولادها. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢١٧).

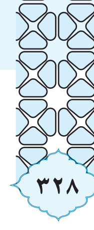
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٨٤).

(٣) «مسند أحمد» (٧٣٠)، و«صحيح البخاري» (٩٣٤)، و«صحيح مسلم» (٨٥١).

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).

(٦) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).



إذا مشى[١] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[٢].

٦- وكان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ**»[٣].

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله[٤]، وقالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا من رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٥].

وذلك لما في سورة ﴿قٓ﴾ من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

وكانت خُطَبه في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

فيملأ القلوب إيماناً بالله وتعظيماً وإجلالاً له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء[٦].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).

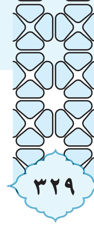
(٢) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٢٠).

(٣) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٥) «صحيح مسلم» (٨٧٣).

(٦) ينظر تفصيل ما يتعلق بخطب النبي ﷺ في فصل: «**الرسول ﷺ خطيباً**».



٧- فإذا فرغ من خطبته الثانية أقام بلال الصلاة فصلى ﷺ بالناس، وكان يقرأ في الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وتارةً بسورة «**الجمعة**» لما تضمَّنته من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها، وترك العمل العائق عنها. ويقرأ في الثانية بسورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ تحذيراً للأمة من النفاق المُرْدي، وتحذيراً لهم أن يشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكره، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بدَّ، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالةٍ يطلبون الإقالة ويتمنَّون الرَّجعة فلا يُجابون إليها[١].

وكان إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين سنتها، فعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته[٢].

وأمر من صلى الجمعة أن يصلي بعدها أربع ركعات فقال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الجُمُعَةَ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ**»[٣].

وجمع بعض العلماء بينها أن من صلاها في المسجد صلاها أربعاً، ومن صلاها في بيته صلاها ركعتين[٤].

٨- وكان ﷺ يبادر إلى صلاة الجمعة في أول وقتها فينصرف الناس منها يتتبعون الظل. قال سلمة بن الأكوع: كنا نُجمع مع رسول الله ﷺ

(١) «زاد المعاد» (١/ ٥٢٩-٥٣٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٨٨٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٨٨١).
(٤) «زاد المعاد» (١/ ٥٥٢).

إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفيء[١]، أي: نتتبعه لقلته حيث لم يمتد بعد. وفي رواية: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ وليس للحيطان ظل يستظل به[٢]. أي: ليس ظلاً واسعاً يُستظل به، وإنما ظل قليل، ولذا فهم يتتبعونه.

٩- وفي يوم الجمعة ينشغل ﷺ وينشغل الناس معه بالاستعداد للصلاة وشهود الجمعة، ولذا يتغير نظام اليوم عن بقية الأيام بسبب ذلك، ومن ذلك: تأخيرهم للغداء وهو الطعام الذي يؤكل غُدوة في أول النهار فيؤخرونه بعد الجمعة لانشغالهم قبلها بالاستعداد لها والسعي إليها، وكذا يؤخرون القيلولة وهي النوم قبل الظهر فيجعلونها بعد الجمعة لانشغالهم قبلها. قال سهل بن سعد: ما كنا نقيل ولا نتغدى في عهد رسول الله ﷺ إلا بعد الجمعة[٣]، أي أنهم ينشغلون عن الغداء والقيلولة بالتهيؤ للجمعة، ثم يتداركون طعامهم ونومهم وراحتهم بعدها، وقال جابر: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ثم نرجع إلى نواضحنا فنريحها[٤]، أي أنهم يريحون جمالهم التي يستقون عليها بعد صلاة الجمعة لأنهم سيتغدون وينامون بعد صلاة الجمعة.

١٠- ومما ذكره ﷺ من فضائل يوم الجمعة أن فيه ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله شيئاً من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «**فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأشار بيده يقللها[٥].

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٤١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٨٦٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٥٩).
(٤) «صحيح مسلم» (٨٥٨).
(٥) «صحيح البخاري» (٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٨٥٢).

وقد اختُلِف في تحديد وقتها، وأقرب الأقوال في ذلك قولان:

الأول: أنها في صلاة الجمعة في مواطن الدعاء منها كالسجود ودبر الصلاة، لحديث: «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأفضل الصلاة يوم الجمعة صلاة الجمعة، ولحديث أبي موسى قال عن ساعة الجمعة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ، إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ**»[(١)].

الثاني: أنها في آخر ساعة من يوم الجمعة، لحديث: «**إِنَّ فِي الجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ ﷻ فِيهَا خَيْراً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ بَعْدَ العَصْرِ**»[(٢)].

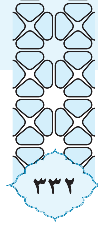
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يُصَلِّي فَيَسْأَلُ اللهَ فِيهَا شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ فَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِتِلْكَ السَّاعَةِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِهَا، وَلَا تَضِنَّنَّ بِهَا عَلَيَّ. قَالَ: هِيَ بَعْدَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، قُلْتُ: فَكَيْفَ تَكُونُ بَعْدَ العَصْرِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي**». وَتِلْكَ السَّاعَةُ لَا يُصَلَّى فِيهَا؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**»؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ[(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٥٣).

(٢) «مسند أحمد» (٧٨٠٣).

(٣) «الموطأ» (٣٦٤)، و«سنن أبي داود» (١٠٤٦)، و«جامع الترمذي» (٤٩١).



وهذا قول أكثر السلف، ولذا كانوا يتفرغون عصر الجمعة للذكر والدعاء وانتظار الصلاة.

ولم أقف في الأحاديث على ما يدل أن النبي ﷺ كان يخص عشية الجمعة بعمل خاص، ولا أن نمط حياته يتغير آخر يوم الجمعة عن بقية الأيام، ولم أجد فيما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على ذلك، والله أعلم.

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ حفاوة بيوم الجمعة وتعظيم له، فكان يذكر فضل الله به على أمته وهدايتهم له، وتميزهم به على غيرهم من الأمم.

٢- ليوم الجمعة بهاؤه وزينته، واجتماعه، وهيئته، فهو عيد الأسبوع، ولذا نهى ﷺ عن إفراده بالصوم.

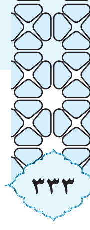
٣- كان ﷺ يعظم هذا اليوم ويخصه بعبادات فيه دون غيره من الأيام.

٤- أَمر ﷺ بالتهيؤ لصلاة الجمعة والاستعداد لحضورها بالنظافة، وجمال الملبس، وطيب الرائحة، وحسن الأدب في المسجد.

٥- أمر ﷺ أمته بالسكينة حين السعي إلى الجمعة، والإنصات للخطيب حين يخطب، ونهى عن أذية الناس بتخطي رقابهم.

٦- كان أهل المدينة يقصدون المسجد النبوي من نواحي المدينة المتفرقة، فكان يوم الجمعة يوم اجتماعهم ليلتقوا بالنبي ﷺ ويستمعوا إليه، ويَلْقى بعضهم بعضاً.

٧- كان من عادته ﷺ إذا خطب أن يعتمد على عصا أو قوس على عادة العرب.



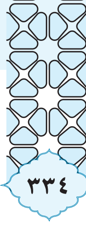
٨- كانت خُطَبه ﷺ في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، والجزاء الأخروي.

٩- كان ﷺ يبادر إلى صلاة الجمعة في أول وقتها فينصرف الناس منها يتتبعون الظل.

١٠- كان نظام اليوم في الجمعة يتفاوت عن بقية الأيام، فيؤخرون الغداء والقيلولة لانشغالهم بالاستعداد للصلاة وشهود الجمعة، ثم يستدركونها بعد الصلاة.

١١- مما ذكره ﷺ من فضائل يوم الجمعة أن فيه ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله شيئاً من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه.





الرَّسُولُ ﷺ ورمضان

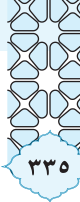


شهر رمضان هو موعد اللقاء الأول مع تنزل القرآن، واللقاء الأول مع روح القدس يوم نزلت أول آيات القرآن على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء.

وكل ما حوله ظلمة وسكون، فليس هناك حركة ولا نأمة، أتخيَّل النبي ﷺ في هذا الغار وهو يسمع صوت نَفَسه، وتردد زفيره وشهيقِهِ المتتابع، لا يسمع شيئاً آخر.

في ذاك السكون الرهيب المهيب، والنبي ﷺ في هذا الغار الشاهق الذي لا يُتوقع مرور أحد حوله، أو مجيء أحد إليه، وإنما هو السكون والصمت المطبق، ونبيك ﷺ في سكينة التأمل واستغراقه كأنما يستمع إلى الصمت وينظر إلى السكون، إذ فَجَأه الحق، وجاءه جبرائيل عليه السلام.

ثم كانت المفاجأة الثانية أنْ أمَره بالقراءة وهو الأمي الذي ما قرأ يوماً مكتوباً ولا كتب مقروءاً، فقال له: اقرأ، فأجاب النبي ﷺ بالجواب التلقائي الذي لا يمكن أن يجيب بغيره: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». ما أنا بالذي يقرأ، قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:**



اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»[1].

كانت هذه الليلة التي تنزَّل فيها أول الوحي، وأول آيات القرآن على قلب محمد ﷺ مبشرة البشرية بالنور والضياء، وبرسالة هي رحمة للعالمين، وسعادة للبشر أجمعين.

وَنـودِيَ اِقـرَأ تَعالـى اللهُ قائِلُهـا ... لَـم تَتَّصِـل قَبلَ مَـن قيلَت لَـهُ بِفَمِ

هُنـاكَ أَذَّنَ لِلرَحمَـنِ فَامتَـلأَتْ ... أَسـماعُ مَكَّـةَ مِـن قُدسِـيَّةِ النَغَمِ[2]

وكان هذا في شهر رمضان، ولذا عرَّف الله ﷻ شهر رمضان بأنه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

فهو الموسم الأول لنزول أول آيات القرآن، وهذه إشادة بأن هذا الشهر هو وعاء هذا الخير العظيم وهو نزول القرآن، فإن البشرية لم تسعد بحدثٍ في طول تاريخها منذ أهبط آدم إلى الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مثل سعادتها بنزول القرآن في رمضان.

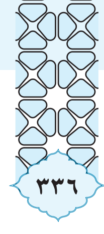
وما إن استوعب النبي ﷺ الحدث، وعرف أن هذا رسولٌ من عند الله حتى صار يتشوَّق لهذا اللقاء، وينتظر جبرائيل ويتحرى لقاءه، وقال ﷺ لجبرائيل بعد ذلك: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا». فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[3]، فنزول جبرائيل إنما هو بأمرٍ من الله.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢١٨).



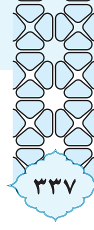
١- ولذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ رمضان مناسبة اللقاء بين جبرائيل ومحمد عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ لتدارس القرآن، وفي كل رمضان يزداد القدر الذي يتدارسانه، واستمر هذا اللقاء إلى شهر رمضان من السنة العاشرة، وفيها دارسه جبرائيل القرآن مرتين(١)، بعد ثلاث وعشرين سنة، فعرف النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ من تكرار المدارسة في هذا الشهر أن القرآن قد اكتمل نزوله فما نزل بعد ذلك إلا آيات معدودة، وما دام أن القرآن قد اكتمل نزوله فهي إشارة إلى أن مهمة النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ على الأرض قد اكتملت وعليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

يُحدثنا ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن هذا اللقاء الرمضاني القرآني، بين روح القدس ونبينا صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وكيف يكون تأثر النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بهذا اللقاء الذي يجدد ذكرى اللقاء الأول، فيقول: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ما سُئل شيئاً إلا أعطاه(٢).

إن ابن عباس يصور لنا في هذا الحديث النشوة التي يعيشها النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في رمضان حين تتجدد ذكرى اللقاء الأول بجبرائيل عَلَيْهِالسَّلَامُ وتتم مدارسة القرآن بينهما في هذا الشهر، وهذه النشوة النفسية كانت تغمر قلب النبي وتظهر في أريحية نفسه وطيبها، وقد وصف ابن عباس أحد مظاهر حالة النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ هذه، وهي تَضاعفُ جوده، فجود النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ليس طارئاً في رمضان فهو أجود الناس ولكنه جود متضاعف لصلة النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في رمضان

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).



بالملأ الأعلى وهي مدارسة كلام الله المنزل عليه مع من نزل به أول مرة.

وأما تشبيه ابن عباس لجود النبي ﷺ بـالرِّيحِ المُرْسَلَةِ ـ وهي الريح التي تحمل المطر ـ فأكثر من يفهمه هم العرب الذين يعيشون في تلك البلاد القاحلة الصحراوية، فهم يعلمون أن الريح إذا جاءت تحمل المطر فإذا أمطرت أنبتت الأرض، وشبعت سائمة البادية، واغتنوا، وكثر الماء عندهم فنزلوا في أماكنهم، وسمنت ماشيتهم فباعوها وربحوا، وباعوا السمن والأقط وتكون سنة الربيع عندهم هي سنة الثراء واليُسر، وإذا نزل المطر ارتفع منسوب المياه عند الفلاحين وجمَّت آبارهم وارتفع الماء وسهل عليهم تحصيله، وما عادوا يستخرجون الماء بكلفة ومؤونة فأينعت ثمارهم وأعطت زروعهم وكثر الخير عندهم، وإذا نزل المطر أنبتت الأرض فسارت القوافل وكثرت تجارة التجار، وأصبحوا يُصدِّرون ويستوردون؛ فيعم الغنى عند التجَّار وعند البادية وعند الفلاحين.. إذن هو عطاء عام غامر وفير يغتني به الناس كلهم، ولذلك شبَّه ابن عباس جود النبي ﷺ بجود الغيث على أهل البادية والحاضرة وهذا من أروع التشبيه لجود النبي ﷺ.

ويا لله إذا كان هذا جود الرسول فكيف بجود المُرسِل؟ وإذا كان هذا جود المخلوق فكيف بجود الخالق؟!

٢- ومن تهيئته لرمضان استقباله بالصيام في شهر شعبان قالت عائشة: كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إِلَّا فِي شَعْبَانَ[1]، وما كان رسول الله ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان كان يصومه كله ويصومه إلا قليلا، قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْراً

(١) «صحيح البخاري» (١٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١١٦٤).

أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ[١]، وقالت ﵂: كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: قَدْ صَامَ وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: قَدْ أَفْطَرَ، وَلَمْ أَرَهُ صَائِماً مِنْ شَهْرٍ قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِهِ مِنْ شَعْبَانَ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلاً[٢].

وهذا الصيام في شعبان من التهيئة لصيام رمضان ولذا شبهه العلماء بسنة الراتبة قبل صلاة الفريضة.

ومن ذلك: تبشير أصحابه برمضان وذكر فضائله؛ مثل قوله ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ»**[٣]، وقوله ﷺ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[٤]، وقوله: **«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[٥]. وقوله: **«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[٦].

فكان رمضان شهر التطهير من كل ما تقدم من الذنوب لكثرة أسباب المغفرة فيه، فمن صامه غفر له، ومن قامه غفر له، ومن قام ليلة القدر غفر له، فلا يحرم المغفرة فيه إلا معرض عنها، ولذا قال جبرائيل للنبي ﷺ: **«رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ»**. فقال ﷺ: **«آمِينَ»**[٧].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٧٠)، و«صحيح مسلم» (١١٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٥٦).

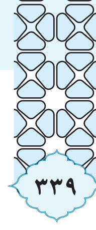
(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٥٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٧).

(٦) «صحيح البخاري» (١٩٠١)، و«صحيح مسلم» (٧٦٠).

(٧) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠٢٢).



٣- وفي رمضان يتطلَّب النبي ﷺ ليلة القدر في العشر التي يتحراها فيها.

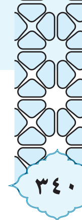
يقول أبو سلمة بن عبد الرحمن: انْطَلَقْتُ إِلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ فَقُلْتُ أَلاَ تَخْرُجُ بِنَا إِلَى النَّخْلِ نَتَحَدَّثْ، فَخَرَجَ. فَقَالَ: قُلْتُ: حَدِّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ. قَالَ أبو سعيد: اعْتَكَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ، وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فلما انتهت العشر الأول وتهيَّأ النبي ليخرج من معتكفه أَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، قال أبو سعيد: فاعتكف رسول الله ﷺ العشر الوسطى، فلما انتهت العشر الوسطى وتهيَّأ الناس للخروج قَامَ النَّبِيّ ﷺ خَطِيباً صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «**إِنَّ جبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ**». يقول أبو سعيد: وكنا ننظر إلى السماء ليس فيها سحاب، فاعتكف النبي العشر الأواخر، قال: فلما كانت ليلة إحدى وعشرين، غشيت المدينة سحابة فأمطرت، وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، فلما أمطرت وكَفَ[1] السقف، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الفجر والأرض مبتلَّة، فلما انصرف النبي ﷺ من صلاة الفجر، نظرت إلى وجهه فَرَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ[2] تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ[3].

وعندما ننظر إلى حياة النبي ﷺ في العشر الأواخر من رمضان نجدها استنفاراً في طاعة الله ﷻ، واحتشاداً للعبادة وتفرغاً لها.

(١) وكف: أي تقاطر. ينظر: «عمدة القاري» (١١/ ١٣٥).

(٢) الأرنبة: طرف الأنف. ينظر: «النهاية» (١/ ٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٨١٣)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).



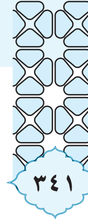
روي عنه ﷺ أنه كان يخلط رمضان بقيام ونوم فإذا دخل العشر الأواخر أحيا ليله، وجعل الليل مفرغا كلَّه للعبادة، من مدارسة القرآن مع جبريل، والتهجد، والمناجاة في السحر، فيكون في الليل كله حياً، ومن أجمل وأجمع وصف لحال النبي ﷺ في عشر رمضان ما اختصرته لنا أمنا عائشة عندما وصفت برنامجه اليومي في ليالي رمضان قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَرَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ(١).

لقد كان شأن النبي ﷺ المعتاد أن يقوم ثلث الليل ثم ينام سدسه، ولكنه في العشر يحيي الليل كله بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء والمناجاة إلى أن يوافيه وقت السحور إن كان سيتسحر وإلا واصل قيامه ودعاءه وذكره إلى الفجر وكأنما يَضِنُّ بهذا الوقت أن يصرف في غير القيام.

٤- وكان ﷺ يخصُّ العشر الأواخر من رمضان بعبادات لا يفعلها في غيرها ومنها الاعتكاف، وهو الانقطاع عن شواغل الدنيا والتفرغ للخلوة بالله والتعبد له في بيت من بيوته، وكان النبي ﷺ يعتكف في مسجده في الزاوية الشرقية الجنوبية؛ لأنها هي التي تفتح على بيته، ويرفع له حصير يحجبه عن الناس، ومرة اعتكف في قبة تركية، واعتكاف النبي ﷺ في المسجد معناه الانقطاع عن خلطة الناس، فالصائم يدع الطعام والشراب والمعاشرة الزوجية، والمعتكف يدع مع ذلك فضول خلطة الناس ليتفرغ للخلوة بربه.

وكان اعتكاف النبي ﷺ في المسجد، وليس في كهف ولا مغارة ولا صحراء، لأن رسالة النبي ﷺ تفاعل مع الحياة وليست اعتزالاً للحياة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾.

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).



٥- ومن العبادات التي كان النبي ﷺ يفعلها في العشر مواصلة الصيام، فكان ﷺ يواصل اليومين والثلاثة بدون إفطار ولا سحور، فعجب الصحابة من هذا الانقطاع عن الطعام، وتفرغ النبي عن الأكل للعبادة، فقالوا: يا رسول الله نريد أن نواصل مثلك، قال: «**لَا، لَسْتُمْ مِثْلِي؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ**»(١)، وهذه خصوصية للنبي ﷺ لأن حال اليقين التي كان فيها النبي ﷺ لا يشركه فيها أحد، فهو الذي قد خُرقت له السبع الطباق، ورُفع إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام عند سدرة المنتهى، وكلَّمه ربه في الملأ الأعلى، ورأى الجنة رأي عين، ورأى النار رأي عين، ولذلك فأشواقه ﷺ وتلذذه بالعبادة ليس كغيره، ولذلك يكتفي عن الأكل والشرب بالاستغراق في العبادة.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنْ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنْ الزَّادِ

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي

إِذَا شَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا ... رُوْحُ القُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ(٢)

٦- ومع استغراق النبي ﷺ في عشر رمضان في العبادة وانقطاعه لها إلا أنه كان متواصلاً بالبر والإيناس مع أهله غير منقطع عنهم، تقول عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ، فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ البَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ(٣).

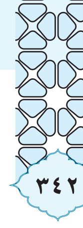
ويقيني أن تسريح النبي لشعره ما كان فقط احتياجه هو، وإنما كان يُلبي

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).

(٢) «ديوان المعاني» للعسكري (١/ ٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧).



فيه حاجة مشاعر زوجته؛ لأن المرأة وهي تُسرِّح شعر زوجها تسعد بذلك، فمن أجمل لحظات القرب هذه اللحظة، فأراد النبي ﷺ أن يُسعد زوجته فيُخرج إليها رأسه لترجله، ولك أن تتخيل شعور عائشة وهي تُسرِّح شعره وتبادله الحديث مع أنه في حال اعتكاف، والنبي ﷺ بهذا الفعل يجمع بين عبادتين في وقت واحد؛ الاعتكاف، والإحسان إلى الأهل والخيرية معهم.

ومن ذلك: أنه كان يقبّل نساءه وهو صائم فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ إِحْدَى نِسَائِهِ، وَهُوَ صَائِمٌ[١]. وعَنْها رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَلَكِنَّهُ أَمْلَكُكُمْ لِإِرْبِهِ[٢]. وعَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ وَهُوَ صَائِمٌ[٣]. وهذا التقبيل أثناء الصيام رسالة حب وإسعاد يشعر الزوجة بمكانتها وحظوتها.

وكان زوجاته يجتمعن عنده في الليل وهو معتكف، فما جعل ﷺ الاعتكاف انقطاعاً عن الحياة، فتأتي إليه زوجاته في الليل مع أنه ممنوع من المباشرة، ولكن هناك حاجة نفسية بين الزوجين وهي الحديث والتخاطب والمؤانسة؛ فيجتمعن عنده ويتحدثن إليه ثم يذهبن واحدة إثر أخرى.

وفي إحدى الليالي ولعلها كانت ليلة صفية –رضي الله عنها– أطالت الجلسة عنده حتى ذهبت كل نساء النبي ﷺ فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها وكان بيتها

(١) «صحيح البخاري» (١٩٢٨)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٢٧)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).
(٣) «صحيح مسلم» (١١٠٧).

خارج المسجد قامَ مَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ يماشيها ويؤانسها في الطريق إلى أن تصل إلى بيتها، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ مَرَّ بِهِمَا رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ أسرعا لما رأيا النبي ﷺ ومعه امرأة، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**». قَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا. يعني هل يمكن أن نظن بك سوءاً؟! فقالَ ﷺ الرحيم بأمته: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا**»[(١)].

إنه مشهد قد يستغله الشيطان فيقذف الشر وسيئَ الظن في قلب هذا المسلم الخيِّر، فأراد النبي ﷺ أن يُطهر قلوبهما حتى لا يتسلل إليها كيد الشيطان ووسوسته.

فيا ترى ما الذي يجعل النبي ﷺ يخرج من معتكفه حتى يوصل زوجته إلى بيتها ويشعر أنه لا زال معتكفاً، وأن اعتكافه لم ينقطع؟

إن إيصال زوجته إلى بيتها ومؤانستها في الطريق في ظلام الليل هي عبادة أخرى مع الاعتكاف، فإذا كان هذا هو ود النبي مع أهله وإيناسه لهم وخيريته معهم مع كمال استغراقه تلك الأيام في العبادة فما ظنك بحاله مع أهله في سعة الوقت وأنس الحياة؟!

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

٧- ومع اجتهاده ﷺ في العبادة في رمضان إلا أنه كان يحتاط لأمته أن تقتدي به فيما يشق عليها لو كلّفت به، فكان يواصل فأرادوا أن يواصلوا

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٥).

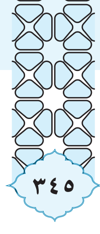
فنهاهم وقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ»(١).

ولما رأى حرصهم على الوِصَالِ، وَاصَلَ بِهِمْ يَوْماً، ثُمَّ يَوْماً، ثُمَّ رَأَوُا الهِلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ». كَالتَّنْكِيلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا(٢)، وصلى مرةً في معتكفه فصلى أناس بصلاته فلما كان الليلة الثانية كثروا، فلما كان الليلة الثالثة كثروا حتى ضاق بهم المسجد فلم يخرج ولم يصل ثم قال لهم: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُمُ اللَّيْلَةَ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»(٣).

٨- ومن هديه في رمضان إيقاظ أهله للصلاة مع أنه كان يوقظهم أثناء العام ليصلوا ما يطيقون، لكنه في رمضان يؤكد ذلك بحضهم على المشاركة في القيام واغتنام الليالي الفاضلة، قالت عائشة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ(٤)، وقال عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يُطِيقُ الصَّلَاةَ(٥).

ويتحرى في ذلك تحقيق أمر الله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولذا نقلت زوجاته لنا غالب هديه في رمضان لأنهن كن يشاركنه فيه.

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٣)، و«صحيح مسلم» (١١٠٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٦٥)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٧٦١).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).
(٥) «المعجم الأوسط» للطبراني (٧٤٢٥).



خلاصات:

١- كان شهر رمضان موعد اللقاء الأول مع تنزل الوحي ونزول القرآن ولذا ارتبط رمضان بالقرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٢- وكما كان رمضان شهر نزول القرآن كان شهر المدارسة السنوية للقرآن مع جبرائيل عليه السلام.

٣- كان ﷺ يعيش في شهر رمضان نشوة واغتباطاً بعظيم فضل الله، ويلاحظ ذلك في تضاعف جوده ﷺ فيه.

٤- كان ﷺ يتحرّى ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان فيحيي ليله، ويوقظ أهله، ويشد مئزره.

٥- كان ﷺ يعتكف في العشر الأخير في المسجد وينقطع للقيام والقرآن، ويواصل الصيام وينهى غيره عن الوصال.

٦- كان ﷺ يحشد في شهر رمضان أعمال الخير، ففيه الصيام والقرآن والإنفاق والاعتكاف والقيام والوصال.

٧- ومع هذا الاستغراق العظيم في العبادة ما كان ينقطع عن أهله، بل يجمع مع هذه العبادات عبادة أخرى وهي مؤانسة الأهل والحديث إليهم.



الرَّسُولُ ﷺ والعِيد

قَدِمَ ﷺ المدينة وكان لهم يوما عيد يلعبون فيهما هما يوم النيروز والمهرجان. والنيروز: أول برج الحمل وهو أول السنة الشمسية، والمهرجان: أول يوم الميزان، وهما يومان معتدلان يستوي فيهما الليل والنهار. وكانت أعياداً وثنية، فجاء ﷺ وأبدلهما بهما يومين شريفين عظيمين مرتبطين بشعيرتين هما من أركان الإسلام، فعيد الفطر فرح بإكمال العدَّة وإتمام صوم شهر رمضان، وعيد الأضحى فرح بإكمال شعائر الحج للحجاج، وأعمال العشر لغيرهم، وليس لأهل الإسلام أعياد دينية غير هذين اليومين.

ولذا كان للعيد مع النبي ﷺ شعائر ومظاهر تدل على الفرح بفضل الله، وتعظيمه والامتنان له، وذلك في الاجتماع الحاشد، والمظهر الجميل، والفرح المعلن، ومن ذلك:

١- فكان ﷺ يلبس للخروج إلى العيدين أجمل ثيابه وكان له حلةٌ جميلة يلبسها للعيدين والجمعة، ومرةً يلبس بُردين أخضرين[١]، ومرةً بُرداً أحمر[٢].

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٨٨).

وكان يأكل قبل خروجه لعيد الفطر تمراتٍ، ويأكلهن وتراً[١]، وأما في عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته[٢].

وكان يغتسل للعيدين، ويدل على ذلك ثبوته عن الصحابة[٣]، ولأنه مشهد عام كمشهد الجمعة.

ويتطيب لخروجه، ويدل عليه ثبوته عن بعض الصحابة[٤]، ولثبوت الأمر به لمشهد الجمعة.

وفي هذا تعظيم للشعيرة، وتجاوب مع ما في الفطرة السوية من حب الزينة والجمال، وحسن المظهر في المجامع العامة.

٢- ومكان مصلى العيد والاستسقاء في عهد النبي ﷺ، هو موضع مسجد الغمامة الآن، ويبعد اليوم عن المسجد النبوي نحو خمسمئة مترٍ في الجهة الجنوبية الغربية منه.

ولم يكن المصلى في حياة النبي ﷺ مسجداً، بل كان فضاءً خارج المدينة لا بناء فيه، والمسجد اليوم إنما هو في بعضه، وهو المحل الذي كان يقوم فيه النبي ﷺ، والظاهر أن بناءه الأول كان في زمن عمر بن عبد العزيز.

فكان النبي ﷺ يخرج بالناس، فيصلي بهم صلاة العيد في هذا الفضاء؛ لأن مسجد النبي ﷺ لا يتسع لأهل المدينة إذا اجتمعوا كلهم في صلاة العيد، فإن صلاة العيد يهبط إليها أهل العوالي والنواحي المتباعدة عن

(١) «صحيح البخاري» (٩٥٣).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٩٨٤).

(٣) «البدر المنير» لابن الملقن (٥/ ٤١).

(٤) «البدر المنير» (٥/ ٤٥).

الحرم، ومعهم النساء حيث أكد ﷺ عليهن الخروج إلى صلاة العيد، قالت أم عطية رضي الله عنها: أُمرنا أن نُخرج الحيض يوم العيدين وذوات الخدور، فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأةٌ: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلبابٌ! قال: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[(١)].

وهذا الاجتماع الحاشد حيث يجتمع أهل النواحي المتباعدة في مكان فضاء يستوعبهم رجالا ونساء هو نوع من تعميق الانتماء إلى الجماعة وتقوية لحمتها، فبعد الاجتماع اليومي في الأحياء لصلاة الجماعة، والاجتماع الأسبوعي في الناحية لصلاة الجمعة، يأتي هذا الاجتماع السنوي الحاشد ليجمع من لم يجتمعوا لتفرق نواحيهم وتباعدها، ولذا أمر ﷺ النساء أن يخرجن لصلاة العيد وقال: «**يَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ**». فهو اجتماع جماعة المسلمين الجامع لهم.

٣- فإذا خرج ﷺ حُملت العنَزة[(٢)] بين يديه حتى تنصب أمامه؛ لأنه يصلي في الفضاء إلى غير سترة، فتكون سترة له، وهذه العنَزة كانت للزبير رضي الله عنه، أعطاها إياه النجاشي، فوهبها للنبي ﷺ فكان يخرج بها بين يديه يوم العيد[(٣)].

ويظهر من فعل الصحابة أنه ﷺ كان يَجْهر ويكثر من التكبير في الطريق إلى صلاة العيد[(٤)]، امتثالا وإشهاراً لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٤)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).
(٢) العنزة: هي الرمح القصير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٠٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٧٣)، و«صحيح مسلم» (٥٠١).
(٤) «صحيح البخاري» (٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).

فإذا وصل إلى المصلى بدأ بالصلاة قبل الخطبة من غير أذان ولا إقامة[١] فيصلي ركعتين، يكبر في الأولى سبع تكبيراتٍ متواليةٍ بتكبيرة الافتتاح[٢]، يسكت بين كل تكبيرتين سكتةً يسيرةً.

فإذا أتم التكبير أخذ في القراءة، فقرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ بعدها: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ في إحدى الركعتين، وفي الأخرى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[٣].

وربما قرأ فيهما: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[٤].

فإذا فرغ من القراءة كبر وركع، ثم إذا أكمل الركعة وقام من السجود كبر خمساً متواليةً، فإذا أكمل التكبير أخذ في القراءة.

٤ - فإذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس، والناس جلوسٌ على صفوفهم، ولم يكن هناك منبرٌ يرقى عليه، وإنما كان يخطبهم قائماً على الأرض، وكان يفتتح خطبته بالحمد لله، ويكثر التكبير في أضعاف الخطبة، ويعظ الناس ويذكرهم.

قال أبو سعيدٍ الخدري: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى المُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاَةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثاً قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ[٥].

---

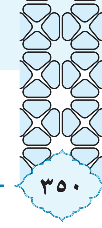
(١) «سنن أبي داود» (١١٤٦).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٩١).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٧٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٩٥٦).



وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصلى قبل الخطبة ثم خطب فرأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن فذكرهن ووعظهن، وأمرهن بالصدقة، وبلالٌ قائلٌ بثوبه(١)، فجعلت المرأة تلقى الخاتم والخرص وَالشَّيْءَ(٢).

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذانٍ ولا إقامةٍ، ثم قام متوكئاً على بلالٍ، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن، فقال: «**تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**». فقامت امرأةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ(٣) سَفْعَاءُ(٤) الخَدَّيْنِ، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**». قال: فجعلن يتصدّقن من حليهن، يلقين في ثوب بلالٍ من أقرطتهن وخواتمهن(٥).

ورخص صلى الله عليه وآله وسلم لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة، وأن يذهب، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يجتزئوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة(٦).

وهذا من تيسير الشعائر على الناس لأن اجتماعهم للصلاة من النواحي

---

(١) أي: فاتح ثوبه للأخذ فيه، وفي الرواية الأخرى: «وبلال باسط ثوبه»، معناه أنه بسطه ليجمع الصدقة فيه. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٦/ ٤٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٣١)، و«صحيح مسلم» (٨٨٤). والخِرْصُ: الحلقة الصغيرة من الحلي، وهو من حلي الأذُن. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢).

(٣) سطَة النساء: أي ليست من علية النساء، ويدل عليه قوله: «سفعاء الخدين». ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٤).

(٤) السُّفْعَةُ: نَوْعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالكَثِيرِ. وَقِيلَ: هُوَ سَوَادٌ مَعَ لَوْنٍ آخَرَ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٨٨٥).

(٦) «سنن أبي داود» (١٠٧٠).

المتباعدة ثم انشغالهم بأعمال يوم العيد قد يعوق بعضهم عن الجلوس الطويل، أو الرجوع لصلاة الجمعة فكان ذلك من يسر التشريع وتيسير الشعيرة.

وكان ﷺ يخالف الطريق يوم العيد، فيذهب في طريقٍ، ويرجع في آخر[١]، فقيل: لينال بركته من في الطريقين، ولأن في ذلك إيناس لأهل الأحياء والدور الذين هم في طريقه ذهاباً وإياباً[٢].

وقد ذهبت تلك الطرق كلها، وصار المصلى بارزاً، وما بينه وبين المسجد النبوي ساحة واسعة.

٥- والعيد موسم الفضل والرحمة الإلهية؛ وبهما يكون الفرح ويظهر السرور، وشَرْعُ النبي ﷺ وتقريره إظهار الفرح وإعلان السرور في الأعياد، قال أنس رضي الله عنه: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا: يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الفِطْرِ**»[٣].

ففيه دليل على أن إظهار السرور في العيدين مندوب، وأن ذلك من الشريعة التي شرعها الله لعباده؛ إذ في إبدال عيد الجاهلية بالعيدين المذكورين دلالة على أنه يفعل في العيدين المشروعين ما يفعله أهل الجاهلية في أعيادهم من اللعب مما ليس بمحظور؛ لأن النبي ﷺ إنما خالفهم في تعيين الوقتين.

ومما يؤكد ذلك أنه ﷺ كان ينهى عن صيام العيدين، فعن عمر رضي الله عنه

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٤٧٢).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٥٥٦).

أنه خطب يوم النحر فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ العِيدَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيَوْمٌ تَأْكُلُونَ مِنْ نُسُكِكُمْ[١].

وذلك أن حال الصيام لا توافق حال الفرح بالعيد والتمتع بنعمة الله وما أباح لعباده وتفضل به عليهم، ولذا قال ﷺ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**»[٢].

ويبين هذا أيضاً خبر عائشة رضى الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بدفين بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش، وتسجى بثوبه، وحول وجهه إلى الجدار، وجاء أبو بكر فانتهرهما، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فكشف النبي وجهه، وأقبل على أبي بكر، وقال: «**دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عيداً، وَهذَا عيدُنَا**»[٣].

ومن مشاهد السرور بالعيد بين يدي النبي ﷺ ما فعله الحبشة، حيث اجتمعوا في المسجد يرقصون بالدَّرَق[٤] والحراب، واجتمع معهم الصبيان حتى علت أصواتهم، فسمعهم النبي ﷺ فنظر إليهم، ثم قال لعائشة: «**يَا حُمَيْرَاءُ! أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِمْ؟**». قالت: نعم، فأقامها ﷺ وراءه خدها على خده يسترها، وهي تنظر إليهم، والرسول ﷺ يغريهم، ويقول: «**دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٥٧١)، و«صحيح مسلم» (١١٣٧).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٤١٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).

(٤) الدَّرَق: جمع دَرقة، وَهِي الترس الَّذِي يتَّخذ من الجُلُود. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٦٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

فهذه مشاهد الفرح بالعيد ومظاهر السرور والبهجة تقام بين يدي النبي ﷺ فيقرها ويحتفي بها، ولذا قال العلماء: إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين.

قال قيس بن سعد رضي الله عنه: ما كان شيء على عهد رسول الله ﷺ إلا وقد رأيته، إلا شيء واحد، فإن رسول الله ﷺ كان يُقَلَّس[(١)] له يوم الفطر[(٢)].

وعن عياض الأشعري أنه شهد عيدا بالأنبار فقال: ما لي لا أراكم تقلسون، كانوا في زمان رسول الله ﷺ يفعلونه. في رواية: مَا لِيَ لَا أَرَاهُمْ يُقْلِسُونَ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَفْعَلُ أَوْ يَصْنَعُ[(٣)].

ونلاحظ أن إظهار الفرح والتفاعل مع بهجة العيد كان فعلاً عفوياً يفعله كل قوم حسب ثقافتهم وموروثهم التقليدي، فالحبشة احتفلوا على طريقة قومهم الأحباش بالدرق والحراب والرقص في المسجد.

والجاريتان عند عائشة غنتا بتراث قومهم من الدفوف والغناء وأنشدوا قصائدهم في الجاهلية أيام بعاث[(٤)].

ولكل قوم وزمان وسائلهم وطرائقهم في اللعب واللهو التي تستوعبها مساحة الإباحة الواسعة في الدين.

إن في ديننا فسحة، إن نبينا بُعِثَ بالحنيفية السمحة.

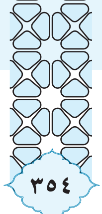
---

(١) التقليس: اللعب واللهو اللذان ليسا بمكروهين. ينظر: «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٤/ ١٣١).

(٢) «مسند أحمد» (١٥٤٧٩).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٣٠٢). وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).



خلاصات:

١- شرع ﷺ للمسلمين عيدين عظيمين عيد الفطر وعيد الأضحى مرتبطين بشعيرتين هما من أركان الإسلام.

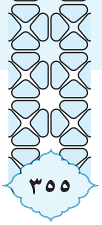
٢- كان ﷺ يلبس للعيد أحسن لباسه، ويغتسل له ويتطيب.

٣- كان ﷺ يصلي العيد في المصلى وهو فضاء خارج المدينة ليسع أهل المدينة رجالاً ونساء إذا اجتمعوا فيه.

٤- كان يأمر بإظهار الفرح في العيد، ولذا حرم صومه.

٥- ومما يشرع في العيد إظهار الفرح باللهو المباح المناسب، ولكل فئة وعمر ما يناسبهم، فكان الحبش يرقصون بطريقتهم الحبشية، والجواري في المدينة بطريقتهم العربية.





الرَّسُولُ ﷺ والحَجّ (١)

حجَّ النبي ﷺ بعد الهجرة حَجةً واحدة هي حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة، فإن الحج فرض في السنة التاسعة، ولكن النبي ﷺ لم يحج تلك السنة لأسباب منها كثرة الوفود القادمة إليه في المدينة، فحبس نفسه لهم وأرسل أبا بكر ليقيم للناس حجهم.

فلما كانت سنة عشر أعلم الناس أنه سيحج سنته تلك، فقدم المدينة بشرٌ كثير كلهم يريد أن يحج مع رسول الله ﷺ، ولحقه أناس في الطريق، ووافته وفود في مكة فاجتمع إليه جموع لم تجتمع من قبل ولا بعد، ويظهر أنه لم يتكرر مثل هذا العدد بعد ذلك إلا لما تيسرت وسائل المواصلات في القرن الماضي.

وقد حفظ الصحابة للأمة تفاصيل أحواله في حجه واستقصوها ورووها، حتى إن من يجمع رواياته يتضح له المشهد كاملا كأنه حج معه ﷺ.

ولن نقتص في هذا الفصل سياق حجته، فقد أُلِّفت عنها كتب كثيرة جمعت ما أمكن الجمع، واستقصت ما بلغ الاستقصاء(٢)، ولكنا سنقف

---

(١) باختصار من كتاب: «صفة حجة النبي ﷺ، كأنك معه» للمؤلف.

(٢) ومنها: «حجة الوداع» لأبي محمد بن حزم، و«صفوة القرى في صفة حجة المصطفى»، للمحب =

مع النبي ﷺ في مشاهد من حجته نتروى من معانيها ودلالاتها وعظمة مشاهدها، فمن ذلك:

أولاً: عظمة عبوديته لله، وتعظيمه له، وتذلـله بين يديه، فهو أعلم الخلق بالله وأعظمهم له خشية، فقد أحرم وركب راحلته على رحل رث وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وهو يقول: «**لَبَّيْكَ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ**»(١).

وكان يُلِظُّ بالتلبية ويأمر أصحابه برفع أصواتهم بها: «**لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ**»(٢).

وتجاوب الصحابة مع تلبية النبي ﷺ فلم يصلوا الرَّوْحاء(٣) حتى بُحَّت حلوقهم.

وفي عرفة بعد أن صلى الظهر والعصر في أول وقت الظهر وقف على راحلته عند الجبل(٤) في حال من الضراعة والمسكنة لله، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، حتى رؤي بياض إبطيه، باسطاً كفيه كاستطعام المسكين، منكسراً لربه ﷻ، خاضعاً خاشعاً متذلّلاً له، مستغرقاً في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يَلْهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ

= الطبري، و«حجة الوداع» لمحمد زكريا الكاندهلوي، و«صفة حجة النبي ﷺ كما رواها جابر» للألباني، و«صفة حجة النبي ﷺ» لعصام موسى هادي، و«الرسول ﷺ حاجا ومعتمراً» د. ناصر ابن مسفر الزهراني، و«صفة حجة النبي ﷺ، كأنك معه» للمؤلف.

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٤٩)، و«صحيح مسلم» (١١٨٤).

(٣) موقع في الطريق إلى مكة تبعد عن المدينة (٧٠ كم). ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص١٦٤).

(٤) هو جبل إلال المعروف الآن بجبل الرحمة، وقد وقف على راحلته أسفل الجبل ولم يصعده.

فيها بدعاء، حتى إنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها.

وكان ﷺ لهجاً بالثناء على الله تهليلاً وتحميداً وتلبية: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ، لبيكَ إلهَ الحَقِّ لَبَّيْكَ**»[(١)]. وكأنما جاشت أشواق الرسول ﷺ، واستشرف قرب الأجل، فسُمع عشية ذلك اليوم وهو يزيد في تلبيته: «**لَبَّيْكَ، لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ**»[(٢)].

وتقضَّت ساعات النهار، ورسولُ الله ﷺ على حاله تلك، خشوع وخضوع، ولهج بالدعاء والذكر.

وفي المزدلفة لما تنفَّس الصبحُ وأضاءت خيوط الفجر الأولى قام ﷺ مسارعاً إلى صلاة الفجر، فصلَّاها في غاية البكور في أول الوقت، حتى يقول قائل: قد طلع الفجر. ويقول قائل: لم يطلع الفجر؛ لشدة بكوره بها، وذلك ليتسع الوقت بعدها للذكر، وما يستقبل من المناسك، فلما قضى صلاته ركب راحلته، فرقى جبل قُزَح، وهو أَكَمَةٌ مشرفة على المسجد، ولعله صنع ذلك ليكون مشرفاً للناس يرونه كلهم، فاستقبل القبلة، ورفع يديه الشريفتين، فحمد الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده ولبَّاه، عملاً بقول مولاه: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وكان يقول: «**لبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ**». ويدعو ربه ويذكره على حال من الضراعة والخضوع، حتى أوشكت الشمس أن تطلع[(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٢٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٢٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

وفي مِنىً بعدما رمى جمرة العقبة لهج بالتكبير وضج الناس معه حتى ارتجت منى بالتكبير(١)، ثم لما انتصف النهارُ في اليوم الحادي عشر وزالت الشمس توجَّه ﷺ إلى الجمرات ماشياً، فبدأ بالجمرة الصغرى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر الله مع كل حصاة، ثم تقدَّم حتى أَسْهَلَ؛ ليبعد عن زحام الناس، فرفع يديه واستقبل القبلة، يكبِّر الله ويسبِّحه ويحمده، ودعا وتضرَّع طويلاً، ثم قصد الجمرة الوسطى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة، كما صنع عند الصغرى، ثم أخذ ذات الشمال، واستقبل القبلة، ورفع يديه ذاكراً وداعياً ومتضرِّعاً، وأطال الوقوف، وكان وقوفه عند الجمرتين قريباً من قراءة سورة البقرة، وكان وقوفه عند الجمرة الثانية أطول من الجمرة الأولى، ثم مضى إلى جمرة العقبة فاستقبلها، فرماها، ولم يقف عندها.

وهكذا إذا تأملت مشاهد حجه فإذا هي مشاهد عبودية لله وخضوع له، وضراعة إليه يؤديها ﷺ وهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، بغاية الاستغراق في العبودية لله وتعظيمه وحسن مسألته.

ثانياً: كان رسولُ الله ﷺ يقطع هذه الفَيافي الفِساحَ، وكأنما جبالها ووِهادها وآكامها وأوديتها تروِي له خبرها، وتحدِّثه بمَن مرَّ بها، فتراءت لرسول الله ﷺ أطياف الأنبياء عليهم السلام الذين ساروا يَؤُمُّون هذا البيت قبله، كأنما يراهم أمامه، ويرافقهم في مسيره.

فلما مر بثَنِيَّة هَرْشى قال: «**أيُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟**». قالوا: ثَنِيَّة هَرْشَى. قال: «**كَأَنِّي**

(١) المروي في هذا عن عمر موقوفاً عليه، ويقيننا أن عمر فعله تأسِّياً بالنبي ﷺ، وأن الناس فعلوه مع عمر لأنهم فعلوه من قبل مع النبي ﷺ. أثر عمر: «صحيح البخاري» معلقاً (٢/ ٢٠).

أَنظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ(١)**، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ**(٢)**، وَهُوَ يُلَبِّي**»(٣).

ولما مر بوادي الأزرق قال: «**أيُّ وادٍ هَذَا؟**». قالوا: وادي الأزرق. قال: «**كأنِّي أَنظُرُ إلى مُوسَى عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُوم بخُلْبَة، وَاضِعاً إصبَعَيْهِ في أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ**(٤) **إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ، مَارّاً بِهَذَا الوَادِي**»(٥).

ولما مر بوادي عُسْفانَ قال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ! أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**». قال: وادي عُسْفان. قال: «**لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَى بَكَرَاتٍ**(٦) **حُمْرٍ، خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهُمُ العَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهمُ النِّمَارُ**(٧)**، يُلَبُّونَ، يَحجُّونَ البيتَ العَتِيقَ**»(٨).

إنها شَعِيرة ضاربة في عمق الزمن، تتابع فيها أنبياءُ الله ورسلُه عليهم السلام، وسيتبعهم فيه عيسى ابنُ مريم عليه السلام في آخر الزمان، كما قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجاً أَوْ مُعْتَمِراً، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**»(٩).

وإن المسلم وهو يسير هذا المَسِير يستشعر أنه ذو نسب في الهداية عريق؛ إنه مسير سار فيه أنبياءُ الله ورسلُه عليهم السلام، وها هو يقتفي أثرهم ويسير في مسيرهم.

---

(١) أي: مجتمعة الخلق شديدة. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٧٥).

(٢) خُلْبَة: هو الليف، ويطلق على الحبل المتخذ منه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٤) الجُؤَار: رَفْع الصَّوت والاسْتِغاثة. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٣٢).

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٦) بَكَراتٍ: جمع بَكْرة، وهي: النوق الفتيَّة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٤٩).

(٧) النِّمَار: جمع نَمرة، وهي ثياب صوف مخططة، كأنها أُخِذت مِنْ لون النَّمِر؛ لما فيها من السواد والبياض. ينظر: «النهاية» (٥/ ١١٨).

(٨) «مسند أحمد» (٢٠٦٧).

(٩) «صحيح مسلم» (١٢٥٢).

ثالثاً: سار ﷺ في طريقه معلّماً وهادياً، يُعلِّم الناسَ مناسكهم، ويبصِّرهم بأمور حجِّهم، ويجيبهم على أسئلتهم.

سمع رجلاً يلبِّي ويقول: لبَّيك عن شُبْرمَةَ. فأرسلَ إليه فدعاه، فقال: «**وَمَنْ شُبْرُمَةُ؟**». قال: أخٌ لي، أو قريبٌ لي. قال: «**هَلْ حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟**». قال: لا. قال: «**فَاجْعَلْ هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ**»[١].

ورأى رجلاً حافياً يسوق بَدَنةً مقلَّدةً نَعْلاً، وقد جهده المشيُ، فقال: «**ارْكَبْهَا**». فقال: إنها بَدَنةٌ! فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: إنها بَدَنةٌ! فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: إنها بَدَنةٌ! فقال في الرابعة: «**وَيْلَكَ! ارْكَبْهَا. وَيْلَكَ! ارْكَبْهَا**». قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: فلقد رأيتُه راكبها يسايرُ النبيَّ ﷺ، والنعلُ في عنقها[٢].

وكان ﷺ يمر بالرجال يمشون، فيأمرهم بركوب هديهم الذي ساقوه معهم.

وفي أمره ﷺ ذلك نقض ومخالفة لما كانوا عليه في الجاهلية من إكرام بُدْنِهم بترك ركوبها، كالبَحِيْرَة والسَّائِبَة والوَصِيْلَة والحام[٣].

ورأى في طوافه رجلاً قد ربط يده إلى رجل آخر بسير أو بخيط يقوده به، فقطعه النبي ﷺ بيده، ثم قال: «**قُدْهُ بِيَدِهِ**». قال يا رسول الله إنه نذر، إنا نذرنا لنقترنن حتى نأتي الكعبة، وكان من عادات الجاهلية الاقتران في

(١) «سنن أبي داود» (١٨١١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٢٢).

(٣) هي من عادات الجاهلية الوثنية حيث يحمون ظهور بعض الإبل في حالات خاصة ويحرمون ركوبها، ثم يسيبونها فلا تركب ولا يحمل عليها.

الحج، فقال ﷺ: «**أَطْلِقَا أَنْفُسَكُمَا وَحُجَّا؛ لَيْسَ هَذَا نَذْراً، إِنَّمَا النَّذْرُ مَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، إِنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»(١).

وخطب الناس يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم القَرّ وهو الحادي عشر، وكرر في خطبته تعظيم الدماء والأموال والأعراض، واستشهد الناس على بلاغ الرسالة، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ ـ أَوْ بِزِمَامِهِ ـ قَالَ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا**». فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ**». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا**». فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ**». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ**»(٢).

لقد كان ﷺ هادياً في سفره، وطوافه وسعيه، وفي المشاعر حال أداء مناسكه، وكان يحرض الناس على الأخذ عنه فيقول: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»(٣).

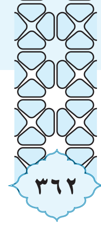
رابعاً: تواضعه ﷺ، فقد سار بين الناس تحيط به القلوب، وترمُقُه المُقَلُ، وتُفَدِّيه المُهَجُ، فهو معهم كواحد منهم، لم توطَّأ له المراكب، ولم تتقدَّمه المواكب، ولم تُشق له الطُّرقات، ولم تُنصب له السُّرادقات، وإنما سار بين الناس، ليس له شارة تميِّزه عنهم، إلا بهاء النبوة وجلال الرسالة، يسير معهم وفي غِمارِهم، يقول أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كنتُ رَديف أبي طلحة على

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٧٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢٩٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٩٥٢٤).



راحلته، وإن ركبته لتكاد تمَسُّ ركبةَ رسول الله ﷺ، وهو يقول: «**لبَّيكَ حجّةً وعُمرةً**»[(١)].

وكان الناس حوله، يحيطون به كما تحيط الهالة بالقمر، قال جابر رضي الله عنه: نظرتُ مَدَّ بصري بين يدي رسول الله ﷺ من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك[(٢)].

وكان ﷺ قريباً من الناس، والناس قريبون منه، يهابه كلُّ أحد، ويدنو منه كلُّ أحد؛ يسعهم بالخلق العظيم الذي جبله عليه ربه، فحدَّث أبو جُحَيفة رضي الله عنه عن مشهد من مشاهده مع النبي ﷺ أيامه تلك، حينما كان النبي ﷺ نازلاً بالأبطح وكان أبو جُحَيفة يومها غلاماً في نحو العاشرة من عمره، فقال: خرج رسولُ الله ﷺ بالهاجرة، وعليه حلة حمراء مُشمِّراً، كأني أنظر إلى بَرِيق ساقيه، فصلَّى بالناس ركعتين، فلما قضى صلاته قام الناس إليه، فجعلوا يأخذون بيديه فيمسحون بها وجوههم، فأخذتُ بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحةً من المسك[(٣)].

يالله لهذه النفس الرضيّة يصل إليه كل الناس حتى يصل إليه فتى في العاشرة فيأخذ بيده ويضعها على وجهه فيحس بردها ويستنشق عطرها.

وحينما دفع ﷺ من عرفة إلى مزدلفة سار في حَطْمَة الناس وغِمارِهم، ليس له طريق خاصٌّ، ولا موكب خاصٌّ، وإنما هو ﷺ مع الناس، وهو إمام الناس، لا يُدفع أحدٌ أمامه، ولا يُصَدُّ أحدٌ من ورائه، وقد رفع يمينه

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٣) «مسند أحمد» (١٨٧٦٧).

المباركة، باسطاً بطن كفه إلى السماء، يشير إليهم قائلاً: «**أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بالسَّكِينةِ والوَقارِ، فإنَّ البِرَّ ليس بإِيجَافِ الخَيْلِ والإِبِلِ**»[١]. وإذا سمع حَطْمَةَ الناس خلفه وتدافعهم وضربهم الإبل يميناً وشمالاً التفت إليهم، وأشار بسَوْطه قائلاً: «**رُويداً أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُم السَّكِينةَ؛ فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ**»[٢]. أي: السرعة. وكان يقول ذلك وهو أول مَن فعله؛ فقد شَنَقَ راحلته وكَبَحَ زمامها، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِهِ[٣] من شدة كَبْحِهِ لزمامها، فإذا أتى مرتفعاً أرخى لها حتى تصعد.

وعندما رمى جمرة العقبة رمى في غمرة الناس كما قال قدامة بن عبد الله الكِلَابي رضي الله عنه: رأيتُ رسولَ الله ﷺ رمَى جمرة العقبة يوم النحر على ناقةٍ صَهْباءَ، بلا زَجْرٍ، ولا طَرْدٍ، ولا: إِلَيْكَ إِلَيْكَ[٤].

وفي اليوم الحادي عشر خطب الناس في منى، قال رافع بن عمرو المزني رضي الله عنه يصف ذاك المشهد: أقبلت مع أبي وأنا غلام في حجة الوداع، فإذا رسولُ الله ﷺ يخطب الناسَ على بغلة شهباء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يعبِّر عنه، والناس بين جالس وقائم، فجلس أبي وتخللت الرِّكاب، حتى أتيتُ البغلة، فأخذتُ بركابه، ووضعتُ يدي على ركبته، فمسحتُ الساق حتى بلغتُ بها القدم، ثم أدخلتُ كفي بين النعل والقدم، فيخيل إليَّ الساعةَ أني أجد برد قدمه على كفي[٥].

---

(١) «سنن أبي داود» (١٩٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٦٧١).

(٣) مورك الرحل: قطعة جلد يتورَّك عليها الراكب، تُجعل في مقدم الرحل، تشبه المخدة الصغيرة. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٧٦).

(٤) «مسند أحمد» (١٥٤١٠).

(٥) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

ولئن عجب رافع بن عمرو من برد قدم النبي ﷺ، فإننا نعجب من برد خلقه، وطيب نفسه، إنها النفس الرضيّة والخلق العظيم، أن يمضي ﷺ في خطبته، ويدع الغلام يمسح قدمه، ويدخل يده تحت شراك نعله، وهو ماضٍ في شأنه، معلِّم بحاله ومقاله.

خامساً: تيسيره في أداء المناسك، فقد كان ﷺ سمحاً في إقامة المناسك، وهو المبعوث بالحنيفية السمحة، ميسِّراً للناس رفيقاً بهم، فمن ذلك أنه رخَّص للرعاة أن يرموا يوم النحر، ثم يدعوا يوماً، ثم يرموا من الغد، ورخَّص للعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يبيت بمكة لأجل سقايته، ولم يحفظ عنه في حجته أنه أوجب دماً على أحد، برغم كثرة الجموع معه، وكونهم حدثاء عهد بالإسلام، يؤدون حجهم أول مرة، وإنما كان هِجِّيرَاهُ[1] للناس: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ؛ قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْكُمُ الحَرَجَ**»[2]. مصدِّقاً قول ربه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وعندما جاءه عروة بن مُضَرِّس الطائي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، جئتك من جبلي طيء[3]، أتعبت نفسي، وأنصبت راحلتي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال ﷺ: «**مَن شَهِدَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ** ـ يعني: صلاة الفجر ـ **بِجَمْعٍ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نُفِيضَ مِنْهُ، وَقَدْ أَفَاضَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ عَرَفَاتٍ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَى تَفَثَهُ**»[4].

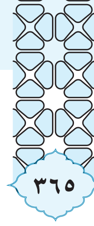
---

(١) الهِجِّيرُ: الدَّأبُ والعَادَةُ والدَّيْدَنُ. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٤٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٢١)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٧).

(٣) جبلي طيء: هما جبلا: أجا وسلمى في منطقة حائل شمال المملكة العربية السعودية، وهي منازل قبيلة طيء. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص١٧).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٠٧).



وبعد أن رمى جمرة العقبة ثار الناس إليه يسألونه عن أحكام المناسك، فجاءه رجل فقال: حلقت قبل أن أرمي؟ فقال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: حلقت قبل أن أذبح؟ فقال: «**اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: طفت قبل أن أرمي؟ قال: «**لَا حَرَجَ**». فما سئل عن شيء إلا قال: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**»[(١)].

وجاءت الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في كذا، أفتنا في كذا، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمُ الحَرَجَ، إِلَّا رَجُلاً اقْتَرَضَ مِنْ عِرْضِ مُسْلِمٍ، وَهُوَ ظَالِمٌ، فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ**». قالوا: يا رسول الله نتداوى؟ قال: «**نَعَمْ تَدَاوُوا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ**». قالو: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**الهَرَمُ**». قالوا: ما خير ما أعطي الناس؟ يا رسول الله، قال: «**خُلُقٌ حَسَنٌ**»[(٢)].

سادساً: وداعه للناس، فقد كان يتهيأ للحاق بالرفيق الأعلى وجاءته دلائل قرب أجله حين تنزّلت عليه سورة النصر، ثم دارسه جبريل في تلك السنة القرآن مرتين ولذا كان خطابه للناس خطاب مُودِّع فعندما خطب الناس قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[(٣)].

وعن جبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِالخَيْفِ مِنْ مِنىً فَقَالَ:

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٧).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٠٦٢).

«**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[(١)].

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**». قالوا: نعم بلَّغ رسولُ الله. فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: «**اللَّهمَّ اشْهَدْ، اللَّهمَّ اشْهَدْ، اللَّهمَّ اشْهَدْ**»[(٢)].

وجعل يتطاول ليُسْمِعَ الناسَ، ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ**». يُطوِّل في صوته. وينادِي: «**يا أُمَّتَاهُ! هَلْ بَلَّغْتُكُمْ؟**». حتى قال صبيٌّ في الموقِف لأمه: يا أُمَّهْ، ما له يدعو أمه؟ فقالت له: يا بني، إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أُمَّتَهُ[(٣)]. وودَّع ﷺ الناس، فسُمِّيت: حجة الوداع.

واستشعر الناس أنها موعظة مودع، فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله، ماذا تعهد إلينا؟ قال: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[(٤)].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الوَدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ[(٥)]، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وقال: «**أَلَا إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، **قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:** «**اللهُمَّ**

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨).

(٤) «جامع الترمذي» (٦١٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٤٠٢)، و«صحيح مسلم» (٦٦).

اشْهَدْ، ثَلَاثاً، وَيْلَكُمْ أَوْ: وَيْحَكُمُ انْظُرُوا، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[١].

وفي طريق رجوعه إلى المدينة نزل في غدير خم، فصلَّى الظهر، ثم قام في الناس خطيباً، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم وعظ وذكَّر، فقال: «**أيها الناسُ، هل بلَّغتُ**». قالوا: نعم. قال: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**».

ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَاسُ، فَإِنَمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي** ﷻ **فَأُجِيبَهُ**»[٢].

وهذا كله من تهيئة الناس وإعدادهم لخبر وفاته والذي وقع بعد ثلاثة أشهر، لتستعد الأمة لتلقِّي الحدث، وتتحمل المسؤولية ممن أداها، والرسالة ممن بلغها.

خلاصات:

١- حجّ النبي ﷺ بعد الهجرة حجة واحدة، هي حجة الوداع، وقد نقلت إلينا، تفاصيلها حتى كأنما نصحبه فيها.

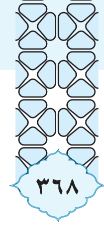
٢- من مشاهد حجته عظمة عبوديته لله، وتعظيمه له، وتذلـله بين يديه، ولهجه بذكره.

٣- كان ﷺ، يقطع الطريق إلى مكة، وأطياف الأنبياء الذي سبقوه في هذا الطريق تتراءى له، فوصفهم كأنه ينظر إليهم.

٤- سار ﷺ في طريقه هادياً، ومعلماً، يعلم الجاهل، ويجيب السائل، ويصوب الخاطئ، وكرر الخُطَب في الوصاة، واستشهد على البلاغ.

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٨).



٥- كان حجه ﷺ مشهداً من مشاهد تواضعه، وقربه من الناس، فلم يكن له موكب ولا مسار، ولا كانت الناس تطرد أمامه، ولا تصد خلفه، وإنما كان يسير في غمار الناس كواحد منهم.

٦- وفي حجه مشهد من يسره وتيسيره، فكان لهجاً بقوله: «**لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ**». ولم ينقل عنه أنه أوجب دماً على أحدٍ مع كثرة الجموع معه.

٧- في حجته هذه ودَّع الناس، وقال: «**لَعَلِّي لَا الْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**». وكان في هذا تهيئة للأمة لتلقي خبر وفاته، ولتستعد لحمل الرسالة والابتعاث بما بعث به نبيها ﷺ.

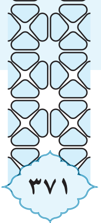




الباب الرابع

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعالم المشاعر





الرسول ﷺ وعافيته النفسية



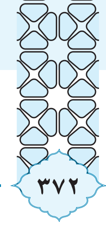
عند التعرف على شخصية النبي ﷺ ستعرف أنه كان يتمتع بصحة بدنية وعافية نفسية، وأنه كان يعيش توازناً واستواء نفسياً كاملاً، يظهر في أقواله وأفعاله وتعامله مع الناس والأحداث.

ومن مظاهر عافيته النفسية:

١- حالة البِشْر كانت تطفح على صفحة وجهه المقدَّس، وهي أول ما يراه من يلقاه، فقد كان أكثر الناس تبسماً، يُقْرأُ البشر والبشرى في وجهه، ويَشْعر من يراه أنه يرى إنساناً سعيداً تسري السعادة منه إلى من حوله، فكان لقاؤه بشرى وسعادة لأصحابه، وكأنَّ كل من جالسه أخذ معه إسعاداً من سعادته، وبُشرى من بِشره.

٢- ومن عافيته النفسية دوام فأله فقد كان يعجبه الفأل وينهى عن التشاؤم[١] وبرغم الشدائد التي مر بها وعايشها فلا يمكن أن ترى حالا منها مهما اشتدت أوصلته إلى حالة اليأس والقنوط، بل كان في أشد المواقف يمد بصره إلى أمل يرقبه، وفأل يستبشر به.

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٢٤).



كان أشد ما مر به عندما عاد من الطائف بعد أن ردوا عليه دعوته أقبح الرد ليعود إلى مكة متوقعاً جرأة قومه عليه، وأذاهم له، فتنزل عليه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم جبلي مكة ويدفنهم تحت أحجارها، فجاء جوابه سريعاً حاسماً: «**لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[1].

إنه الفأل وجميل الأمل الذي يتجاوز كفر الآباء ويتلمس الفأل وينتظره في صلاح الأبناء، لقد كانت آماله على موعد مع الأجيال القادمة أن ينقذها الله به من الشرك وإن لجّ آباؤهم في كفرهم وغلوائهم.

٣- ومن عافيته النفسية بعده عن الشكوك وسوء الظن بالناس ولذا لا تجده يتعامل مع الناس بتوجس وريبة وإنما يحملهم على أحسن المحامل، ويتعامل معهم بحسن الظن من غير انخداع أو اغترار، حتى قال عنه المنافقون: ﴿**هُوَ أُذُنٌ**﴾ أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه، وأنه سليم القلب سريع الاغترار، فرد الله عليهم بقوله: ﴿**قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ**﴾، أي: يصدق المؤمنين وهم أهل للثقة بهم والتصديق لقولهم.

وحسن الظن بالناس والبعد عن الشكوك والتوجس دليل عافية نفسية واستقامة سلوكية.

كما أن سوء الظن بالناس وكثرة التوجس منهم، والإسراع إلى اتهامهم لا يكون إلا من عاهات نفسية وسلوك معوج.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

إِذا ساءَ فِعلُ المَرءِ ساءَت ظُنونُهُ   وَصَدَّقَ ما يَعتادُهُ مِن تَوَهُّمِ[١]

٤- ومن عافيته ﷺ النفسية قدرته على التجاوز والصفح بحيث تراه يتعامل مع أعدائه بعد العفو عنهم بصفاء ونقاء، حتى لتكاد تظن أنه يتعامل مع شخص آخر غير صاحب السابقة، فكأنَّ خالد بن الوليد بعد إسلامه شخص آخر غير خالد بن الوليد الذي كان قائد فرسان المشركين في أحد، وهو الذي أحدثت كرته على المسلمين يومها تلك المصيبة العظيمة فقتل من قتل، وأصيب من أصيب.

وكأن أبا سفيان بعد الفتح شخص آخر غير أبي سفيان الذي وقف يوم أحد يقول: أُعل هبل، إنكم ستجدون مُثْلة، لم آمر بها ولم تسؤني. وغير أبي سفيان الذي قاد جيش الأحزاب وحاصر المدينة حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

بل إنك لا تجد في تاريخ أعدائه ومن آذوه ثم أسلموا أنه ذَكَر لهم أو ذكَّرهم بما سبق منهم من عداوة وإيذاء، وإنما استأنف معهم العلاقة، وأولاهم الثقة وأسند لهم المهمات.

إن هذه القدرة على التجاوز والعفو النقي لا تكون إلا مع لياقة نفسية كاملة.

٥- ومن دلائل عافيته النفسية تعامله الطبيعي مع المشاعر والانفعالات باستواء واعتدال بلا كبت ولا طيش، فيحزن إذا حزن بما يوجب الحزن، فلا يكبت هذا الشعور ولا يتنكر له، وإنما يظهر أثر الحزن عليه فيعرف في

(١) «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص٦٠).

وجه، وتذرف له دموعه، ويعترف به ويعلنه فيقول: «**يَحْزَنُ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا**»(١).

ولكن لا يتحول ذلك الحزن إلى أحزان متواصلة أو كآبة دائمة، وإنما يعيش الحالة ويستجيب لها، ثم يعبرها إلى حالات الحياة المتجددة.

وكذلك الفرح فتراه يتجاوب مع المسرات، ويظهر أثر السرور في وجهه المبارك، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر(٢)، وكان أصحابه يعرفون ذلك منه، ولكن انفعالات الفرح لا يمكن أن تتجاوز إلى طيش وخفة.

ويغضب فتعرف الكراهية في وجهه، وربما احمر وجهه غضبا كأنه الصبغ الأحمر(٣) وكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من تلونه واحمراره(٤)، ولكن هذا الانفعال الفطري لا يتجاوز إلى بغي، ولا ينفس عن غضبه ببطش أو طيش.

إن هذا الاستواء في إظهار المشاعر فلا تكبت ولا يتنكر لها، ولا يتمادى معها فتتجاوز مداها، وتتداعى إلى مبالغة في التأثير، أو استدامة للأثر، وكل ذلك من مظاهر عافيته النفسية.

٦- ومن مظاهر عافيته النفسية أنه ﷺ برغم ضخامة المسؤولية وجلائل الأعمال التي يتحملها والشدائد التي يواجهها إلا أنك لا تلحظ في حياته توتراً أو قلقاً، ولا أنه في عجلة من أمره، ولكن تتجلى في حياته السكينة والطمأنينة والرفق في شأنه كله حتى ليظن كل من أقبل عليه أنه قد

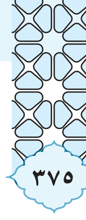
---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٨٥).



فرغ له فلا شأن له سواه، ولا تنظر إليه في حال أو عمل إلا ظننت أن هذا عمله الذي لا عمل له بعده، فلا توتر ولا انفعال، وإنما السكينة والرفق والطمأنينة وهدوء البال.

وإن هذا الكمال البشري والاستواء النفسي من نعيم العيش وطيب الحياة، وهو من مواضع القدوة ومجالات التأسِّي به صلوات الله وسلامه عليه.

خلاصات:

كان ﷺ معافى في بدنه وفي نفسه ومشاعره، ومن عافيته النفسية:

١- البشر الدائم، والابتسام لكل من يلقاه، وتفاؤله الدائم.

٢- بُعده عن الشكوك وسيء الظنون، وكثرة التوجس.

٣- قدرته على الصفح والتجاوز، واستئناف العلاقة بعيداً عن سوابق العداء.

٤- تعبيره عن مشاعره باستواء واعتدال فرحاً وحزناً وغضباً، فلا يكبت المشاعر ولا يتمادى معها، فتجاوز مداها وقدرها.

٥- حالة السكينة والاطمئنان التي كان يعيشها فلا تراه برغم ضخامة الأعمال وتتابعها في حال توتر أو قلق.



الرَّسُولُ ﷺ والمزاح

المزاح هو الذي يرفع عن الحياة صرامتها، فيلطف جديتها، ويجعلها حياة مأنوسة مبهجة، كما أنه من أسباب التواد والتواصل والألفة، لما يحدثه من التفاعل المفرح، وإدخال السرور على النفوس.

وسوف نجد أن حياة النبي ﷺ كانت مأنوسة بالمزاح، لكنه ذاك المزاح الجميل الذي لا يجرح ولا يُحرج، ولا يؤلم ولا يحزن، ولكن يُفرح ويُؤنس.

وكان مزاحه ﷺ راقياً لطيفاً ليس فيه فحش ولا كذب ولا أذى، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقّاً**». قَالُوا: إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقاً**»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقّاً**»(٢)

نجد المزاح في حياة النبي ﷺ منوعاً، فهناك مزاح يصدر منه لأصحابه، وهناك ممازحةٌ تصدر من أصحابه إليه، وهناك ممازحة تجري بين يديه، ويتفاعل هو معها، ومن ذلك:

(١) «مسند أحمد» (٨٤٨١).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٣٤٤٣).

١- مزاحه ﷺ مع أصحابه، ومنهم زاهر وكان أعرابيّاً يأتي ببضاعة الأعراب ويبيعها في المدينة كالسمن والأقط، وكان يحب النبي ويهدي له، وكان ﷺ يحبه ويجهزه إذا أراد أن يخرج ويقول: «**إِنَّ زَاهِراً بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرَتُهُ**». فدخل ﷺ السوق مرة وإذا هو جالس يعرض بضاعته فأتاه النبي ﷺ من خلفه وهو لا يبصره واحتضنه فجعل يقول: من هذا؟ من هذا؟ أرسلني؟ حتى عرف ساعد النبي ﷺ ورمقه فجعل يلصق ظهره بصدر النبي ﷺ حتى ينال مس الجسد المبارك، وجعل النبي ﷺ ينادي عليه يقول: «**مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ؟ مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ؟**». وكان هذا الأعرابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دميم الخلقة، فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله إذن تجدني كاسداً، وإذا بالنبي ﷺ يلاطفه ويؤنسه ويقول: «**لَكِنَّكَ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ؛ أَنْتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ**»(١).

يا الله كم من أفواج الفرح التي دخلت إلى قلب زاهر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، من هذه الممازحة الجميلة، وكم من البشائر تلقاها زاهر والنبي ﷺ يقول له: «**أَنْتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ**». فانظر كيف تحول المزاح اللطيف إلى بشرى عظيمة من النبي ﷺ.

وكان ﷺ يلاطف أنساً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادمه فيقول له: «**أَنَسُ يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**»(٢). وهذا نوع من الممازحة التي تناسب أنساً في سنه سن الصبا، وتؤنسه وتبهجه.

وجاءته امرأة فقالَ لها: «**مَنْ زَوْجُكِ؟**». فَسَمَّتْهُ لَهُ فقالَ: «**الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ؟**». فَرَجَعت فَجعلت تنظر إِلَى زَوجهَا فقالَ: مَا لَك؟ قالت: قالَ رسول الله ﷺ: «**زَوْجُكِ فُلَانٌ؟**». قلت: نعم. قَالَ: «**الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ**

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٦٤٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٨٢٨).

بَيَاض؟». قال: أَو لَيْسَ البيَاض فِي عَيْني أَكثر من السوَاد[١]، وكأني بزوجها يقول لها ذلك ضاحكا، وهي تتجاوب معه ضاحكة عاجبة، فكم من السرور يدخل قلب هذه المرأة من ملاطفة النبي ﷺ هذه لها، وكم من البهجة ستدخل قلب زوجها أن آنس النبي ﷺ زوجته ولاطفها.

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ**». قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإِبلَ إِلَّا النُّوقُ**»[٢].

٢- بل كان للأطفال الصغار نصيبهم من ممازحة النبي ﷺ فقد دخل على أم سليم وعندها ابن لها فطيم في نحو الثالثة من عمره فرآه النبي ﷺ حزيناً فسأل أم سليم: «**مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ خَاثِرَ النَّفْسِ**[٣]؟». قالت: مات نُغَيْرُه، أي الطائر الذي كان يلعب به، فأقبل النبي ﷺ على الطفل وجعل يلاطفه ويمازحه ويقول له: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[٤].

وكان يمازح ابنه الحسن وهو طفل فيخرج له لسانه فإذا رأى الصبي حمرة لسان النبي ﷺ ضحك له[٥].

وكان يمازح ربيبته زينب بنت أم سلمة وهي طفلة في حجره، فيقول لها: «**يَا زُوَيْنِبُ، يَا زُوَيْنِبُ**». ملاطفة وتمليحا.

---

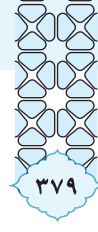
(١) «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (٢/ ٧٩٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٩٨).

(٣) أي: ثَقيل النَّفْس غَيْرُ طَيِّب وَلاَ نَشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٤) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).

(٥) «مسند أحمد» (١٦٨٤٨).



٣- وكما كان النبي ﷺ يمازح أصحابه كان يتقبل الممازحة منهم فكان أحد الصحابة يقال له عبد الله ويلقبونه عبد الله حمار، وكان يضاحك النبي ﷺ[١]، وكان إذا رأى شيئاً طريفاً يباع يتشهاه للنبي ﷺ، فرأى مرة أعرابيا معه عكة[٢] عسل، فتشهاها للنبي ﷺ وشراها من الأعرابي بالأجل، وأتى بها إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله هذه هدية أهديها إليك. فقبلها النبي بقبول حسن ولاطف عبد الله رضي الله عنه، فلما جاء الأعرابي يطلبه الثمن انطلق به إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله إن العسل الذي أعطيتك إياه عسل هذا الأعرابي فأعطه ثمنه. فضحك النبي ﷺ وقال: «**أَلَيْسَ هَدِيَّةً مِنْكَ؟**». قال: بلى، ولكن أعطه الثمن أنت يا رسول الله فليس عندي ما أعطيه، فضحك النبي ﷺ[٣]، وتقبَّل هذه الملاطفة وتفاعل معها برحابة وود.

وأحياناً تقع الممازحة في مجلس النبي ﷺ فيجرأ الأعراب على ممازحة النبي ﷺ لأن النبي ﷺ آنسهم وأفسح لهم في قلبه كما أفسح لهم في مجلسه، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يحدث عن الجنة ونعيمها وفي المجلس أعرابي يستمع له فقال: «**إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ[٤]، فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**». فقال

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).

(٢) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٣) «مسند أبي يعلى» (١٢٧).

(٤) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٧).

الأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيّاً أَوْ أَنْصَارِيّاً، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأصحابه[١].

٤- ويكون المزاح من أهله معه فيتقبله منهم، ويتفاعل معه، فقد صلى بالليل وصلت معه زوجته سودة، فأطال الصلاة، فلما كان من الغد أتت إليه وقالت: صَلَّيْتُ خَلْفَكَ البَارِحَةَ فَرَكَعْتَ بِي حَتَّى أَمْسَكْتُ بِأَنْفِي مَخَافَةَ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ. فَضَحِكَ، وَكَانَتْ تُضْحِكُهُ الأَحْيَانَ بِالشَّيْءِ[٢].

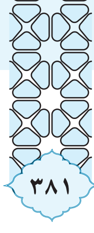
وأحياناً يحصل المزاح بين أهله بحضرته ﷺ، ومن ذلك: أنه كان جالساً بين زوجته عائشة وسودة وقد جعلت كل منهما قدمه في حجرها وكانت عائشة قد أعدت طعاماً يسمى: الخزيرة[٣]، فأحضرت عائشة صحفة الطعام ووضعتها بينها وبين سَوْدة وقالت لسَوْدة: كلي، قالت سودة: لا أشتهيه، قالت: والله لتأكلن، قالت: والله لا آكل، وكان بين سودة وعائشة ملاطفة، فقالت عائشة: والله إن لم تأكلي لألطخن به وجهك. قالت: والله لا آكل، فأخذت عائشة كفاً منه وألقته على وجه سودة، فرفع النبي ﷺ قدمه عن حجر سَوْدة، كأنما يعطيها إشارة البدء لترد على عائشة فأخذت سودة غرفة بيدها وألقتها على وجه عائشة[٤]، وضج المجلس بالضحك، ولك أن تتخيل المشهد، هذه الخزيرة تسيل على وجه سودة، وتسيل على وجه عائشة، وكلهم يضحكون ورسول الله ﷺ يضحك معهم، إنه المزاح في البيت النبوي حيث تشرق البسمات وترن الضحكات.

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٤٨).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ٤٤).

(٣) الخزيرة: حِساء يُتخذ من اللبن والدقيق. ينظر: «زاد المعاد» (١/ ١٤٢).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٨).



إن المزاح يبهج الحياة ويلطفها، فيبادر إليه ويتلقَّاه اللطفاء المتواضعون، ويتحاشاه أهل الكبرياء الذين يرون أنه ينقص هيبتهم وكبرياءهم، أما النبي ﷺ فكان يلاطف ويؤنس، ويرفع الكلفة، ويبهج من حوله بالمزاح اللطيف الذي لا فحش فيه ولا إيذاء ولا إحراج، ولكن إيناس وملاطفة وإبهاج.

ولقد أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ هذا الفقه فأعطوا نفوسهم حظها من اللهو الجميل؛ الذي يؤنس النفوس، ويعيد إليها حيويتها ونشاطها.

فهذا ابن عمر في حجة حجها بعدما كبر وكان معه أصحابه، فكان أحظاهم عنده شاب يُهازله ويُحدِّثه في شأن النساء.

وكان علي رضي الله عنه يقول: أجموا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان[(١)].

وقال بَكْر بْن عَبْدِ الله: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَبَادَحُونَ[(٢)] بِالبِطِّيخِ، فَإِذَا كَانَتِ الحقائِق كَانُوا هُمُ الرجال[(٣)].

خلاصات:

١- كانت حياته ﷺ مأنوسة بالمزاح الجميل.

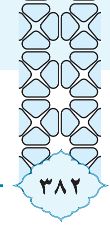
٢- كان مزاحه ﷺ راقياً لطيفاً ليس فيه فحش ولا كذب ولا أذى.

٣-كان ﷺ يؤانس أهله وأبناءه وخدمه بالمزاح الجميل الذي يشيع البهجة ويحكم الألفة.

(١) «مكارم الأخلاق» للخرائطي (٧١٩).

(٢) يَتَبَادَحُون: أي يَتَرَامَوْن. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ١١٤).

(٣) «الأدب المفرد» (٢٦٦).

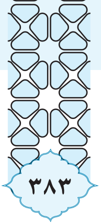


٤- كان ﷺ يمازح أصحابه ويتلقَّى الممازحة منهم ويتفاعل مع تمازحهم.

٥- في مساحة المزاح في حياته ﷺ تلطفٌ وتواضعٌ وتباعدٌ عن طريقة المتكبرين والجبارين.

٦- ولقد أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ هذا الفقه فأعطوا نفوسهم حظها من المزاح الجميل؛ الذي يؤنس النفوس، ويعيد إليها حيويتها ونشاطها.





الرَّسُولُ ﷺ واللهو

عندما تنظر إلى ضخامة مسؤوليات النبي ﷺ واتصاله بعالم الغيب، ورؤيته مشاهد الآخرة رأي عين فربما ظننت أن حياةً كهذه لن تكون إلا حياة جادة صارمة يلاحق فيها اللحظات أن تفلت في غير جدٍّ واجتهاد، ولكنك إذا نظرت إلى حياته وجدت غاية التفهُّم لرغائب النفوس، وإفساح مساحة المتعة والأنس باللهو الجميل؛ الذي يروِّح النفوس ويُعيد لها نشاطها وحيويتها، ويتطامن إلى نفوس الشببة وما فيها من تطلع لذلك فيشاركهم أُنسهم، ويفتح آفاق الحياة إلى السعة التي جاء بها إلى البشرية.

ها هو ﷺ مع زوجته يوم عيد وإذا به يسمع صوت ضجيج في المسجد، فنظر من ستر حجرته، فإذا الأحباش في المدينة قد جاؤوا إلى المسجد ومعهم الحراب والدَّرَق[1] وجعلوا يرقصون ويهزجون في ساحة المسجد، فرجع ﷺ من فوره إلى زوجته يعرض عليها النظر إلى هذا الاحتفال والأنس، فجاءت معه، ووقف لها، ووقفت وراءه، خدها على خده، وذقنها على كتفه، ورداؤه على رأسه يسترها، وكل من حوله في هذا الاحتفال يرونه وزوجته معه

(١) الدَّرَق: جمع دَرَقة، وَهِي الترس الَّذِي يتَّخذ من الجُلُود. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٦٧).

يسترها بردائه، وهو ينظر إلى هؤلاء الراقصين في المسجد ويرسل كلمات التشجيع والتحفيز والإيناس لفريق اللعب هذا فيقول: «**دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**»[١]، ولك أن تتخيَّل هؤلاء الذين يلعبون ويشعرون بسرور النبي ﷺ بلعبهم، ويسمعون تشجيعه لهم، لا أدري إلى أي مساحة يتسع سرورهم، ولا أي أفق يصل إليه حماسهم؟!

أتخيلهم يقفزون على الأرض وكأنهم يطيرون في السماء، وجعلوا يهزجون بلغتهم الحبشية، فاستعان ﷺ بالترجمة الفورية ممن يُحسن لغتهم فقالوا له: يقولون محمد عبد صالح.

وبينما هم في احتفالهم وحماسهم فوجئوا بعمر بن الخطاب يدخل عليهم مُغْضَباً، ويهوي بيده إلى الحصباء يرميهم بها ويقول: مَهْ، أفي مسجد رسول الله ﷺ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**مَهْلاً يَا ابْنَ الخَطَّابِ**». ثم وجَّه الخِطَابَ إليهم: «**أَمْنَاً بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[٢].

وعن قيس بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يُقَلَّسُ له يوم الفطر[٣].

وعن عياض الأشعري أنه شهد عيداً بالأنبار فقال: مَا لِي لَا أَرَاكُمْ تُقَلِّسُونَ كَمَا كَانَ يُقَلَّسُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ[٤]. والتَّقْلِيسُ هو الرقص في الغناء[٥] كما كانت الحبش تفعل يوم العيد. إن الحنيفية السمحة هي

---

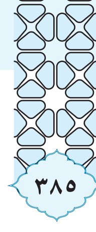
(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٥١).

(٣) «مسند أحمد» (١٥٤٧٩).

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٣٠٢). وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٥).

(٥) ينظر: «لسان العرب» (٦/ ١٨٠).



التي جاء بها متوافقةٌ مع فِطَر الناس ورغائبهم وما جُبلت عليه نفوسهم، وقد جاءت بالسعة ولم تجئ بالضيق ولا بالتضييق، ولذا انطلقت النفوس بين يديه على سجيَّتها، ومارست أنسها بكامل لياقتها، وأمدها هو بحمايته وتشجيعه: «**أَمْناً بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا**».

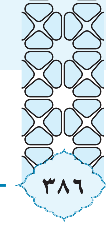
وكان يتعاطى هذا الأنس مع أهله وينشر سروره عليهم، قالت عائشة: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ جَالِساً فَسَمِعْنَا لَغَطاً وَصَوْتَ صِبْيَانٍ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تَزْفِنُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ تَعَالَيْ فَانْظُرِي**». فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ المَنْكِبِ إِلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ لِي: «**أَمَا شَبِعْتِ؟! أَمَا شَبِعْتِ؟!**». قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ لَا لِأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ عُمَرُ، قَالَتْ: فَارْفَضَّ[1] النَّاسُ عَنْهَا: قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ**». قَالَتْ: فَرَجَعْتُ[2].

فانظر إلى هذه الأمَة؛ تمارس لهوها مع الأطفال، وتضاحكهم وترقص لهم قرب بيت النبي ﷺ حيث يصل صوتها إليه في بيته، ولم تشعر أن هذا يمكن أن يُنكر عليها أو تُلام عليه، فكيف لو علمت أنه خرج بزوجته ليسرها بهذا المشهد الترويحي.

وإنك لتعجب من جرأة الإماء والنساء في إعلان لهوهم واحتفالهم بين يديه ﷺ، ومن هذه المساحة الرحبة التي يفسحها؛ لتنطلق نفوسهم على سجيَّتها وبعفويتها وكامل لياقتها، فما جاء ليخنق البهجة ويقتل المسرات، ولكن ليوسِّع لها وهو يقول: إن في ديننا سعة.

(١) فَارْفَضَّ النَّاسُ: أي تفرَّقوا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٦٩١).



وعاد ﷺ مرة من غزوة فجاءته جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ نَذَرْتُ إِنْ رَدَّكَ اللهُ سَالِماً أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ وَأَتَغَنَّى، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي وَإِلَّا فَلَا**». فَجَعَلَتْ تَضْرِبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَأَلْقَتِ الدُّفَّ، ثُمَّ قَعَدَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ**»[(١)].

لقد حضرت وكان الدف معها، وما أحضرته معها إلا وهي تعلم أنه سيحتفي بفرحها، وسيطلق لمشاعرها العنان حتى تُعبِّر عن أفراحها بعودته إليها، ولذا بدأت تضرب بالدف على رأسه وهو يشاركها سرورها وأنسها بتقريره لها، وإعطائها الفرصة لتعيش احتفال الفرح الذي يغمرها، ولك أن تتخيل المشهد والرسول الذي أُلقيت عليه المهابة جالس والأمَة تضرب بالدف على رأسه وأصحابه حوله، أيّ نفس رَضيَّة هذه النفس التي تستوعب رغبات الناس، وتعطيهم مساحة الحركة الواسعة حتى تجرؤ أمَة أن تضرب بالدف على رأسه، وتقيم احتفالية لهو وسرور في مجلسه!

إن هذا الهدي النبوي ينقلنا للسماحة التي جاء بها ﷺ: «**إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**». والسعة التي أفسحها لنا: «**لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً**»[(٢)].

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ فِي حِجْرِي جَارِيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَزَوَّجْتُهَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ عُرْسِهَا، فَلَمْ يَسْمَعْ غِنَاءً وَلَا لَعِباً، فَقَالَ:

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٩٠).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

«**يَا عَائِشَةُ! هَلْ غَنَّيْتُمْ عَلَيْهَا؟ أَوَلَا تُغَنُّونَ عَلَيْهَا؟**» ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذا الحَي مِنَ الأَنْصَارِ يُحبُونَ الغِنَاءَ**»[١].

وفي رواية: أَنْكَحَتْ عَائِشَةُ ذَاتَ قَرَابَةٍ لَهَا مِنَ الأَنْصَارِ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَهْدَيْتُمُ الفَتَاةَ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يُغَنِّي**». قَالَتْ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ، فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ: أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ**»[٢].

وعن الرُّبَيِّع بِنْتُ مُعَوِّذٍ قالت: جاءَ النَّبيُّ ﷺ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا، يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ: «**دَعِي هَذِهِ، وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ**»[٣].

فساعات السرور يُعلن فيها الفرح، ومن مظاهر إعلانه مظاهر اللهو الجماعي المؤنس حيث تكبر الفرحة بمشاركة السرور والفرح، ويحصل التفاعل بأهازيج الأفراح ولهوها.

وكان يتفهّم لهو الفتيان والفتيات ويتفاعل معه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تلعب بالبنات[٤] وهي عند رسول الله ﷺ قالت: وكانت تأتيني صواحبي يلعبن معي فكن يَنْقَمِعْنَ[٥] من رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يسربهن إليَّ فيلعبن معي[٦].

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٥٨٧٥).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٩٠٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).

(٤) البنات: أي اللعب المصورة دمى للأطفال.

(٥) انْقَمع: أَيْ رَدّ بَصَرُهُ ورَجع. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٠٩).

(٦) «صحيح مسلم» (٢٤٤٠).

وفي يوم عيد دعت عائشة صويحباتها ليشاركنها لهو العيد وأنسه فجئن إليها بدفوفهن، وجعلن يغنين في بيتها بأشعار من أشعار الجاهلية من قصائد الأوس والخزرج في يوم بعاث، فدخل النبي ﷺ وهذه الاحتفالية الغنائية على أشدها فرأت الجواري من أنسه بلهوهن ما جعلهن يسترسلن في غنائهن، ثم اضطجع على سريره وحوَّل وجهه للجدار حتى لا يحرجهن بالنظر إليهن، وكأنه بهذا يقول بلسان الحال: استمتعن بلهوكن، وكن كما أنتن، فاستمر الغناء وضرب الدفوف حتى سمعه أبو بكر وهو في المسجد فدخل مُغْضَباً يوبخ ابنته عائشة قائلاً: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فالتفت إليه رسول الله ﷺ وقال: «**دَعْهُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ**»[١].

إنه يوم فرح وهذه الاحتفالية الغنائية تفاعل مع الفرح وتعبير عنه، وللأفراح نشوتها وحيويتها.

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى قُرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، فِي عُرْسٍ، وَإِذَا جَوَارٍ يُغَنِّينَ، فَقُلْتُ: أَنْتُمَا صَاحِبَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، يُفْعَلُ هَذَا عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: اجْلِسْ إِنْ شِئْتَ فَاسْمَعْ مَعَنَا، وَإِنْ شِئْتَ اذْهَبْ، قَدْ رُخِّصَ لَنَا فِي اللَّهْوِ عِنْدَ الْعُرْسِ[٢].

وعَن أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: قُلْتُ لِخَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ: هَلْ كَانَ الغِنَاءُ يَكُونُ فِي العُرُسَاتِ؟

قَالَ: قَدْ كَانَ ذَاكَ، وَلَا يَحْضُرُ بِمَا يَحْضُرُ بِهِ اليَوْمَ مِنَ السَّفَهِ، دَعَانَا أَخْوَالُنَا بَنُو نَبِيطٍ فِي مَدْعَاةٍ لَهُمْ، فَشَهِدَ المَدْعَاةَ، حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَإِذَا جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ:

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).
(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٣٨٣).

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَطْنِ جِلِّقَ هَلْ تُونِسُ دُونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ

فَبَكَى حَسَّانُ وَهُوَ مَكْفُوفٌ وَجَعَلَ يُومِئُ إِلَيْهِمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنْ زِيدَا، فَلَا أَدْرِي مَاذَا يُعْجِبُهُ مِنْ أَنْ يُبْكِيَا أَبَاهُ[١].

ولعل عبد الرحمن أراد أن تغنيا حتى يستثير أباه على نشوة الطرب لأن بكاءه بكاء شجي لا بكاء حزن، وهو بكاء يُسري عن النفس وينفس عنها.

ونلاحظ هنا أن أبيات الغناء هي من شعر الجاهلية مما تقاولت به الأوس والخزرج في حروبها حينها، وأن آلات اللهو هي أيضاً من تراث الجاهلية ووسائل اللهو فيها، فاللهو واللعب والفن ليس له دين ولا وطن، وليس ثمة ـ فيما أحسب ـ ما نسميه فنّاً إسلاميّاً، ولكنه فن إنساني، فيه المباح وهو الأصل، وفيه المحرَّم وهو ما خالطه فحش أو ميسر أو كان شعاراً دينياً محرماً، فإذا حُرِّمَ اللهو فلما يشوبه من المحرَّمات، فإذا طرحت عاد إلى أصله وهو الإباحة.

ولكل زمان وسائله في اللهو وطريقته في التلهّي، وهذه الوسائل التي كانت تمارس بين يدي النبي ﷺ كانت وسائل جاهلية، ولكنها بقيت في مساحة المباح.

ولذا فإن وسائل الترفيه والتسلية المعاصرة تأخذ حكمها؛ كالألعاب الضوئية، وحركات السيرك، وأنواع اللهو الأخرى ما لم يخالطها شيء من المحرمات فتحرم لوجود هذا المحرم فيها؛ كالقمار والفحش ونحو ذلك.

---

(١) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص:٤٢٢).

وكما كان الغناء في مناسبات الفرح والسرور كانت الأهازيج والحداء في مواضع الجَهْد والكد، بما ينشط النفوس ويزيل الملل والإجهاد، فعند بناء المسجد كانت الأهازيج:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يظل فيها راكعاً وساجدا

ومن يرى عند التراب حائدا

وفي حفر الخندق كانت الأهازيج:

لَاهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

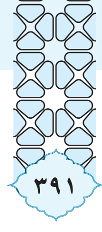
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وفي السفر كان للنبي ﷺ حادٍ[١] حسن الصوت إذا حدا أطرب فأسرعت الإبل من نشوتها بسماعه، فقال له ﷺ: «**يَا أَنْجَشَةُ! رُوَيْدَكَ، رِفْقاً بِالقَوارِيرِ**». أي أن حداءك يجعل الإبل تسرع في مشيها فترجف بالنساء في هودجهن، فارفق في حدائك حتى ترفق الإبل في سيرها.

فكان الأنس واللهو في سعة الحياة يزيد الأنس، ويعلن الفرح، ويخفف الإجهاد والرهق، إن في ديننا سعة، إن نبينا بعث بالحنيفية السمحة.

(١) الحادي هو الذي يسوق الإبل ويغني لها. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٦٨).



خلاصات:

١- كان ﷺ مع ضخامة مسؤولياته، وجدية حياته، متفهماً لرغائب النفوس، وإفساح مساحة المتعة واللهو الجميل.

٢- كان ﷺ يشرك أهله في المتعة، ويشاركهم اللهو، ويعيش معهم سرورهم به.

٣- كان يُرغِّب باللهو في مناسبات السرور والفرح كالزواج والأعياد؛ لأن فيه إشهاراً للفرحة، واحتفاءً بالنعمة.

٤- كان يُعلِّم الأمة أن متعة اللهو من فسحة الدين وسعته التي جاء بها: **«العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ؛ لتَعْلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»**[١].

٥- كان اللهو الموجود زمن النبي ﷺ هو نفسُه الذي كان لديهم قبل الإسلام، ولهو الحبشة هو لهوهم قبل أن يسلموا، فأقرهم عليه.

٦- كانت آلات اللهو الموجودة في زمنهم هي آلات اللهو الموجودة من قبل كالدف والطبل والمِزْهَر[٢]، ولكل بيئة وعصر وسائلُ لهوها وآلاته.

٧- ليست أدوات اللهو توقيفية أو تعبدية يلتزم بها، بل هي مثل بقية وسائل الحياة تتغير وتتطور بتطور الحياة وتغيرها.



(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤٩)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

(٢) المزهر: هو العُودُ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ فِي الغِناء. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٢٥).

بسمات الرسول ﷺ

كان ﷺ متطلق الأسارير، مشرق المحيَّا، ضحوكاً بساماً، وفي بسمات الرسول ﷺ معالم منها:

١- أن النبي ﷺ كان أكثر الناس تبسماً، فالأصل في وجه النبي ﷺ استطلاقه وإشراقه بالابتسام، حتى قال عبد الله بن الحارث: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ(١). فهذا الأصل في حال النبي ﷺ وهذه اللمحة الدائمة لوجه رسول الله ﷺ مع كل من يلقاه حتى لتظن أن الصحابة لا يتخيلون النبي ﷺ إذا تخيلوه ولا يتذكرونه إذا تذكروه إلا مشرق الوجه مبتسماً.

٢- كانت ابتسامة النبي ﷺ حيَّة مشعة، ولم تكن منطفئة باهتة، وإنما ابتسامة حيَّة متألقة تشعر من يلقاه بالخصوصية بها، بحيث يشعر من يتبسم له النبي ﷺ كأنما خزن هذه الابتسامة له وحده، ولذلك قال جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، وما لقيني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي(٢)، لقد ظن جرير رضي الله عنه أن هذا شيء

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٤١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).

خاص به، مع أنه كان شأناً عاماً لرسول الله ﷺ مع كل مَن يلقاه.

٣- وكما كان كثير التبسم، كان يرغّب في الابتسامة وطلاقة الوجه فيقول: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(١)]، ويقول: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[(٢)]، وذلك لما للتلقي الباسم من إيناس النفوس، وتأليف القلوب، وإزالة الوحشة والشحناء.

٤- وكان تبسمه ترحاباً وإيناساً لكل مَن يلقاه أو يتلقَّاه، فعندما قدم عليه خالد بن الوليد مسلماً تلقَّاه بوجه طلق مبتسم، قال خالد: فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ: «**تَعَالَ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[(٣)].

٥- وكان ضحكه ﷺ تبسماً مشرقاً، ولم يكن يضحك مستجمعاً بقهقهة وعلو صوت، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ما رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعاً قَطُّ ضَاحِكاً، حتَّى أرَى منه لَهَوَاتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ[(٤)]، فكان تبسمه وضحكه مع وقارٍ وحشمة، ولذا فغاية ما يوصف به ضحك النبي ﷺ أن يقول الراوي: فضحك حتى بدت نواجذه[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٢٦).

(٢) «جامع الترمذي» (١٩٥٦).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٨٩٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٠٨٧). ونواجذ: جمع ناجذ وهو آخر الأضراس، ولكل إنسان أربع نواجذ، وتطلق النواجذ أيضا على الأنياب والأضراس. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٧٤).



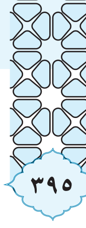
وكان النبي ﷺ يُفعّل الابتسامة في الحياة فعند المعاتبة يعاتب بابتسام، رأى النبي ﷺ أبا بكر وهو يضرب غلاماً له أضل بعيراً، وكان هذا في الطريق لحجة الوداع، وأبو بكر محرم فجعل النبي ﷺ يضحك، ولم يوجه الخطاب لأبي بكر مباشرة وإنما يعنيه به ولا يوجهه إليه فيقول: «**انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْمُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ؟**»(١). يقولها وهو يضحك، وكان هذا القدر من العتاب اللطيف الباسم هو الذي يليق بأبي بكر الرقيق الشفاف.

وأرسل أنساً رضي الله عنه في حاجة فذهب أنس، فمر في الطريق بصبيان يلعبون فوقف يلعب معهم ونسي حاجة النبي ﷺ، يقول أنس رضي الله عنه وهو يصف حاله أثناء اللعب: فبينا أنا ألعب إذا إنسان يمسكني من خلفي فرفعت رأسي فإذا رسول الله ﷺ يضحك ويقول: «**أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَرْسَلْتُكَ؟**»(٢). إن الرسول يقول ذلك وهو يعلم أنه لم يذهب، لكن طرح العتاب في هيئة سؤال فيه ملاطفة، ثم التصغير والتدليل حين ناداه: «**أُنَيْسُ**»، مع ابتسامة مشرقة مؤنسة تذهب عنه رهبة الخوف، فأَنِسَ أَنسٌ برسول الله ﷺ وقال: أنا ذاهب يا رسول الله الآن. وكان هذا القدر كافياً في عتاب أنس، وهو سؤال بابتسام.

بل إنه ﷺ يتلقَّى جفاء الجفاة وغلظ طبعهم بابتسام، فقد كان النبي ﷺ يوماً على وشك الدخول إلى بيته وقد اشتمل ببرد نجراني غليظ الحاشية ردّه على عاتقه، فجاء أعرابي من خلفه فأمسك بطرف ردائه ثم جذبه إليه حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنق النبي ﷺ، وكاد النبي

(١) «سنن أبي داود» (١٨١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).



أن يقع إلى خلفه، ثم قال الأعرابي: أعطني مما أعطاك الله، فلم يُسْتفَز النبي ﷺ بجهل هذا الأعرابي وجفائه، وإنما التفت إليه وهو يضحك وأمر له بعطاء[1]، فغمرت ابتسامة هذا النبي الكريم جهل هذا الأعرابي وجفاءه، واسترضاه بعطاء.

بل حتى الغضب له ابتسامته التي تعبر عنه يقول كعب بن مالك وهو يصف لقاءه بالنبي ﷺ بعد تخلفه عن غزوة تبوك: فلما جلست إليه تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال: «**مَا خَلَّفَكَ؟**»[2]، يا الله حتى الغضب لا يحجب إشراق الابتسامة على محياه المبارك!

ولم يطفئ المرض وهج ابتسامته، فكان مؤنساً بسّاماً وهو يعاني آلام المرض، قالت عائشة رضي الله عنها: رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جِنَازَةٍ بِالبَقِيعِ وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعاً فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ، فَقَالَ: «**بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ، وَارَأْسَاهْ**». ثُمَّ قَالَ: «**وَالله مَا ضَرَّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ، ثُمَّ دَفَنْتُكِ**». قُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ وَالله لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ بِوَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ[3]، فلم يحجب المرض ابتسامته، ولم يطفئ الألم إشراقها.

أما إذا ابتسم ابتسامة الفرح والسرور فإن وجهه يتطلق ويستنير حتى كأنه فلقة قمر، يقول كعب بن مالك وهو يصف قدومه على النبي ﷺ بعد أن

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٤٦٥).

نزلت توبة الله عليه قال: فلما سلمت عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»[(١)]، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

وكان يتفاعل مع المواقف الطريفة من أصحابه بالضحك الباسم المؤنس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ يَنْتِفُ شَعَرَهُ وَيَدْعُو وَيْلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكَ؟**». فَقَالَ: هَلَكْتُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَمَا أَهْلَكَكَ؟**». قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِيناً؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**اجْلِسْ**». فَجَلَسَ، فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِعَرَقٍ[(٢)] فِيهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعاً مِنْ تَمرٍ فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**». قَالَ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: «**خُذْ هَذَا فَأَطْعِمْهُ عَنْكَ سِتِّينَ مِسْكِيناً**». فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ الله؟ فَوَالله مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: «**اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ، كُلْهُ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ، وَصُمْ يَوْماً مَكَانَهُ، وَاسْتَغْفِرِ اللهَ**»[(٣)].

وفي ضحك النبي ﷺ إيناس لهذا الرجل وعجب من حاله فقد جاء فزعاً يدعو ويله ويقول: يا رسول الله هلكت، فلما وجد السعة واليسر عند

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٢) العرق: المكتل أو الزنبيل. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢١٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٨٣٤)، و«صحيح مسلم» (١١١١).

رسول الله ﷺ رغب في التمر أن يطعمه أهله، وكان في ضحك النبي ﷺ ما يطمئنه ويؤنسه، ولذا رجع إلى قومه يقول: وجدت عند رسول الله اليسر والسعة.

بقي أن نعرف أن آخر نظرة نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ كان النظر إلى إشراق ابتسامته وذلك في اليوم الذي توفي فيه يقول أنس: رفع النبي ﷺ ستر حجرته يوم الاثنين ونحن نصلي صلاة الفجر، فما فجأنا إلا وجه رسول الله ﷺ ينظر إلينا يضحك فكدنا أن نفتتن في صلاتنا من الفرح، فما رأينا منظراً كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ كأن وجهه ورقة مصحف[1].

كانت هذه آخر بسمات الرسول وأجملها وأثمنها، إنها ابتسامة الفرح والرضى بأمته وبحالهم التي رآهم عليها، ثم توفي النبي ﷺ بعدها بسويعات ضحوة ذلك اليوم، وبقيت عيون الصحابة تخزن آخر نظرة نظروها إلى النبي ﷺ، وهي رؤيتهم له وهو ينظر إليهم مبتسماً.

خلاصات:

١- كان ﷺ أكثر الناس تبسُّماً.

٢- كانت ابتسامته حيَّة مشعة، يَشْعر من يتلقَّاه بها بالخصوصية كأنه ما تلقى بها غيره.

٣- وكما كان كثير التبسُّم كان يرغب أمته في الابتسام لبعضهم: **«وتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»**.

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

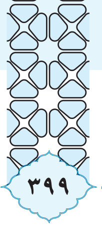
٤- كان ضحكه تبسُّماً، وما استجمع ضاحكاً حتى ترى لهواته.

٥- كان يُفَعِّل الابتسامة في نواحي الحياة؛ فيبتسم معاتباً، ويبتسم مغضباً، ويبتسم فرحاً.

٦- لم تنطفئ ابتسامته وأنسه حتى في وجعه وألم مرضه.

٧- كانت الابتسامة المشرقة هي آخر مشهد رآه فيه أصحابه قبيل وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.



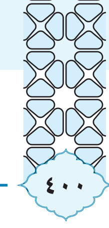


الرَّسُولُ ﷺ والشَّجَاعَة



الشجاعة هي قوة القلب عند النوازل والثبات في مواقف الاضطراب، والعزيمة وقت التردد، وقوة النفس ومضاؤها عند الفزع والخوف، فالشجاعة صفة مشتركة في جميع الأنبياء عليهم السلام، وهي من أهم خصال القيادة، وكمال الشخصية، وقد كان ﷺ في الذروة من كمال الشجاعة، وما الظن بمن كانت قوته بالله، ومدده من الله، وتوكله على الله؟ وكيف سيكون قلبه ورباطة جأشه، وهو الذي يتلقَّى الوحي من ربه، ويرى من عوالم عظمته وقدرته ما لم يطلع عليه غيره؟ وكيف ستكون نظرته إلى قوة البشر الواهنة وقد رأى جبرائيل عليه السلام على هيئته التي خلقه الله عليها، قد سد أفق السماء، وعلم عاقبة من تكبروا على الله ورسله وكفروا برسالاته؟ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ولذا كان من أعظم الخلق شجاعة ومضاءً وثباتا.

فهي شجاعة فريدة تجمع القوة النفسية، واليقين الإيماني.



ومن مظاهر شجاعته ﷺ:

أولاً: انتدابه للدعوة أولَ ما دَعا، والدنيا كلها مطبقة على الوثنية، غارقة في الشرك، فيقف ﷺ هذا الموقف وليس معه أحد، هو في صف وحده، والبشرية كلها في صف تجاهه، فيقف لها بثبات وقوة، وينادي فجاج مكة وهو على الصفا حتى اجتمعوا إليه، فيواجههم بدعوته بثبات وقوة، ووضوح وجلاء، ويسمعهم النداء الذي لم يسمعوه من قبل هم ولا آباؤهم الأولون(١)، إن هذه المواجهة لا تكون إلا من قلب جريء ثابت، وشجاعة فائقة.

ومن ذلك: ذهابه إلى الطائف وحده ليس معه إلا مولاه زيد بن حارثة ليعرض دعوته على عَبَدةِ اللات، فيقول لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم تحَمَّل عنادهم وسيئ ردهم، وعاد إلى قريش وهو يعلم جراءتهم عليه، وتقصدهم أذاه وما يكرهه(٢)، وكل ذلك بثبات وجرأة، ومضاء لما هو متوجه إليه.

وكذا ثباته في الغار، حين أطافت به قريش تتطلب دمه، ودم صاحبه، ونظر أبو بكر إلى أقدامهم عند الغار فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه رآنا، فقال ﷺ بسكينة وثبات: «**لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا. يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!**»(٣).

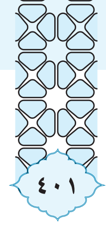
إنها لحظة يخفق فيها القلب، ويزيغ البصر، ويحدق الخطر، ولكن كان في سكينة النبي ﷺ ورباطة جأشه وقوة قلبه ما سكب الطمأنينة في قلب الصديق، وأزاح غيوم القلق عن نفسه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٦٦٣).



ثانياً: ثباته عند الفزع، ويظهر في مشاهد كثيرة، منها:

١- في طريقه من مكة إلى المدينة مهاجراً كان الرصد أمامه والطلب خلفه، وقد نَذِرَت به القبائل وتطلبته فما ذُعِر ولا فزِع، وأخبر عن حاله ممن تطلبه وطارده حتى وصل إليه، فعن سُراقةَ بن مالكٍ قال وهو يحكي قصة طلبه النبي ﷺ في طريق الهجرة: رَكِبْتُ فَرَسِي أتبعهم، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ[١] سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي، إِلَّا أَنْ قَالَ: «**أَخْفِ عَنَّا**». فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ[٢].

فأعجب من هذا الثبات حيث يسير ﷺ ولا يلتفت، ويستمر في قراءة ورده من القرآن، وقد نذرت به القبائل تطلبه، وجعلت قريش فيه الدية لمن ظفر به، ومع ذلك كان في غاية الثبات والسكينة في هذه اللحظة الخطرة.

٢- وفي حالات الفزع المفاجئ يتلقَّى ﷺ الفزع بثبات، ويقتحم مواضع الفزع ومواقع الخطر، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ،

(١) عثان: أَيْ دُخَان. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا**». وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْراً**». أَوْ: «**إِنَّهُ لَبَحْرٌ**[١]»[٢].

وهذا حال الشجعان حيث بادر إلى جهة الصوت، وسبق الناس إلى حيث الفزع ليواجه الخطر ويستبرئ الخبر، ثم كفى الناس مؤنة الذهاب، وبيَّن لهم أنه ليس ثمّ فزع ولا ارتياع.

٣- وكان في ثباته وقوة قلبه وبريق عينيه ما يطير الشجاعة من قلب الشجاع إذا واجهه، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ[٣] بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللهُ**». فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ. فَخَلَّى سَبِيلَهُ[٤].

إن هذا الرجل كان شجاعاً جريئاً، ولذا استطاع بقوة قلبه أن يتخلل جيش المسلمين حتى وصل إلى النبي ﷺ ثم وقف مشهرا سيفه ومتهدداً،

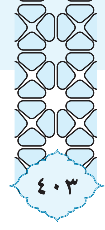
---

(١) قال الأصمعي: يقال للفرس بحر إذا كان واسع الجري، أو لأن جريه لا ينفذ كما لا ينفذ البحر. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٧).

(٣) خصفة: هو ابن فهر بن مالك، أي محارب منسوب لهذه القبيلة. «فتح الباري» (٧/ ٤١٧).

(٤) «مسند أحمد» (١٤٩٢٩).



فطارت شجاعته وانخلع قلبه بكلمة النبي ﷺ الواثقة: «الله». وأحسب أن نظرات النبي ﷺ الثابتة والثاقبة خلعت قلب هذا الفارس المسلح، وبدل أن يُفزِعَ النبي ﷺ فَزِعَ هو، وسقط السيف من يده، فاستمسك بمكارم أخلاق النبي ﷺ، وبدلاً من أن يهدده صار يتوسل إليه، فقال: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ. فكان ﷺ كذلك.

٤- ومن ذلك: لَمَّا بلغ رَسُولَ الله ﷺ خبرُ نقض بني قريظة العهد في معركة الأحزاب، فبَعَثَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ، وَسَعْدَ بْن عُبَادَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقاً فَالحَنُوا لِي لَحْناً أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**». فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، وَقَالُوا: لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ، فأَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالقَارَّةُ، أَيْ أنهم غدروا كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالقَارَّةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ[1]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ**»[2].

---

(١) عن عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ رَهْطٌ مِنْ عَضَلٍ وَالقَارَّةِ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فِينَا إِسْلَاماً، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَراً مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَنَا فِي الدِّينِ، وَيُقْرِئُونَنَا القُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الإِسْلَامِ. فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ نَفَراً سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا عَلَى الرَّجِيعِ، مَاءٍ لِهُذَيْلٍ بِنَاحِيَةِ الحِجَازِ، فَلَمْ يَرُعْ القَوْمَ، وَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، إِلَّا الرِّجَالُ بِأَيْدِيهِمْ السُّيُوفُ، قَدْ غَشُوهُمْ، وقتلوهم. «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٦٩)، و«فتح الباري» (٧/ ٣٨٠).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢١).



لقد كان يوم الأحزاب يوم شدة وكرب، وكان جيش الأحزاب يحاصر المدينة بعشرة آلاف، والمسلمون في غاية الجهد والرهق، وفي هذه الشدة يأتي خبر نقض بني قريظة العهد، ليتضاعف الرهق ويحدق الخطر بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم، ومع هذه الشدة الشديدة فإن النبي ﷺ كان في غاية الثبات، يستقبل الخبر مكبّراً مبشّراً، يبث السكينة والثبات في قلوب المؤمنين معه، حتى تحققت لهم البشرى بالنصر ودارت الدائرة على بني قريظة وباؤوا بحوبة غدرهم.

ثالثاً: شجاعته في المعارك:

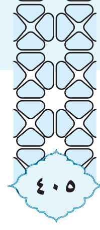
١- عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً[(١)].

٢- وفي معركة أُحُد عندما انكشف جيش المسلمين، وتفرَّق الناس بعد الهزيمة، وقال بعضهم: قُتل رسول الله، فكان أول من عرف رسولَ الله ﷺ كعبُ بن مالك قال: عرفته بعينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين هذا رسول الله[(٢)].

لقد عرف كعب النبيَّ ﷺ ببريق عينيه تحت المغفر، وإشعاعُ العين وبريقها في هذه الشدة دليل ثبات وقوة، فإن الخائف يزيغ بصره، وتنطفئ عيناه، أما النبي ﷺ فكانت عيناه تزهران في هذا الموقف العصيب وكأنهما لسانان ناطقان.

(١) «مسند أحمد» (٦٥٤).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).



ففي هذه المعركة أصيب النبي ﷺ إصابات شديدة فكسرت رَباعيته[(١)]، وهشمت البيضة[(٢)] على رأسه، وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وشج جبينه ونزف الدم على وجهه، وكل هذه الإصابات لا تكون إلا لمن انغمس في مواقف الخطر، وتقدم في صفوف المواجهة، وقصد الأبطال وتصدى لهم.

٣- وفي معركة حنين حين انهزم الناس ثبت ﷺ ولم يبق معه إلا عدد قليل[(٣)].

قال رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بن عازب: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ الله ﷺ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ، وَحُسَّرٌ[(٤)] إِلَى هَذَا الحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ برشْق مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ[(٥)]، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ القَوْمُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَأَبُو سُفْيَانَ ابْنُ الحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». قَالَ البَرَاءُ: كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ[(٦)].

وقَالَ العَبَّاس بن عبد المطلب: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ،

---

(١) الرَّبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

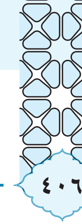
(٢) هشمت البيضة على رأسه: الهشم: الكسر، والبيضة: الخوذة. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٦٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٤) حُسَّرٌ: والحُسَّرُ جَمْعُ حَاسِرٍ وَهُوَ الَّذِي لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٣).

(٥) رِجْلٌ مِنْ جَرادٍ: الرِّجْلُ بِالكَسْرِ: الجَرَاد الكَثِيرُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٠٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).



فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ، فَلَمَّا التقى المُسْلِمُونَ وَالكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ الله ﷺ[1].

فكان ﷺ هو الثابت حين فر الناس، وهو المُقدِمُ حين انهزموا، وجعل يركض بغلته يقتحم بها ومن معه يمسكون بها حتى لا تسرع به فيفوتهم، فلما لم تسعفه ترجل عنها، وأعلن عن نفسه: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**».

وهذا غاية الشجاعة والإقدام أن يثبت مع أن جيشه قد انهزموا عنه، فثبت واقتحم وجعل يناديهم حتى ثابوا إليه.

رابعاً: ومع فرط هذه الشجاعة فلم يقتل ﷺ بيده إلا شخصاً واحداً وهـو أُبَيّ بن خَلَف.

وذلك أَنَّ أُبَيَّ بْنُ خَلَفٍ قَالَ: وَالله لَأَقْتُلَنَّ مُحَمَّداً، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ**». فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ فقال له: إِنَّهُ لَمَّا قِيلَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مَا قُلْتَ قَالَ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ**». فَأَفْزَعَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: أُنْشِدُكَ بِالله أَسَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ قَوْلاً إِلَّا كَانَ حَقاً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ مَعَ المُشْرِكِينَ فَجَعَلَ يَلْتَمِسُ غَفْلَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِيَحْمِلَ عَلَيْهِ، فَيَحُولُ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ

(١) «صحيح مسلم» (١٧٧٥).

بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**خَلُّوا عَنْهُ**». فَأَخَذَ الحَرْبَةَ، فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الشعر من ظهر البعير، ثم استقبله فطعنه بها طعنة تردى بها عن فرسه مراراً[١]، وطعنه بِهَا فِي تَرْقُوَتِهِ تَحْتَ تَسْبِغَةِ البَيْضَةِ[٢]، وَفَوْقَ الدِّرْعِ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ كَبِيرُ دَمٍ، وَاحْتَقَنَ الدَّمُ فِي جَوْفِهِ، فَجَعَلَ يَخُورُ كَمَا يَخُورُ الثَّوْرُ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ وَهُوَ يَخُورُ وَقَالُوا: مَا هَذَا فَوَاللهِ مَا بِكَ إِلَّا خَدْشٌ، فَقَالَ: وَاللهِ لو بصق عليَّ لقتلني، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ: أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَاللهِ لَوْ كَانَ الَّذِي بِي بِأَهْلِ ذِي المَجَازِ لَقَتَلَهُمْ. قَالَ: فَمَا لَبِثَ إِلَّا يَوْماً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ إِلَى النَّارِ[٣].

وهنا يرد التساؤل الذي يثار أحياناً وهو: إذا كان لرسول ﷺ هذه الشجاعة المفرطة فكيف لم يقتل فيما روي إلا رجلاً واحداً؟

والجواب: أن هذه خصلة يجب أن تذكر في فضائله وكمالاته ﷺ، فإنه مع فرط شجاعته ما قتل أحداً إلا أُبيَّ بن خلف الذي أتى ليقتله؛ لأن الشجاع عادة يكون عنده إقدام وانتقام وتلذذ بالقتل والبطش، أما النبي ﷺ فإن شجاعته قوة وثبات وإقدام لا يشوبها بغي ولا انتقام، ولذا قالت عَائِشَةَ رضي الله عنها: مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا[٤].

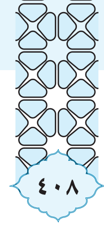
---

(١) «سيرة ابن اسحاق» (ص:٣٣١).

(٢) تسبغة: شيء مِنْ حَلَق الدُّرُوع والزَّرَد يُعلَّق بالخُوذَة دَائِراً مَعَهَا لِيَسْتُرَ الرّقبة وجيب الدّرع. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٣٧).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٥٧٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).



وقَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ خَادِماً وَلَا امْرَأَةً قَطُّ[١].

ثم إن شجاعة القائد ليست كشجاعة الجندي، فعندما يوصف القائد بالشجاعة فشجاعته هي في قدرته على الثبات، وعدم اضطرابه في مواقف الاضطراب، وقدرته على بث الشجاعة في قلوب جيشه، أما شجاعة الجندي فهي في إقدامه على خصمه الذي يقاتله، وشجاعة الجندي مستمدة من شجاعة قائده.

والشجاعة القيادية ثابتة عن النبي ﷺ، ولذا قال البراء عندما سئل: أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَفِرَّ[٢]، فتخيل قائداً معه اثنا عشر ألفاً ثم تقع هذه الهزيمة ويفرون، فالمتوقع أن يذهب معهم، بينما النبي ﷺ ثبت، وعندما لم تسعفه البغلة التي هو عليها ترجَّل عنها، وجعل يُعرِّفُ بنفسه، ويقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**»[٣]، حتى عادوا إليه، واجتمعوا حوله، وقاتلوا بين يديه، وبذا تغيَّرت موازين المعركة ونتيجتها.

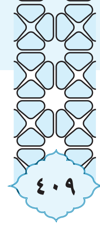
وفي أُحد بعدما وقعت المصيبة وأصابهم القرح خرج ﷺ بمن شهد المعركة معه يتبع قريشاً إلى حمراء الأسد، ويتطلبهم لجولة ثانية فلما بلغ ذلك قريشا ذعروا وعجلوا بالرجوع إلى مكة، وقويت عزائم المسلمين وارتفعت معنوياتهم بذلك، ولا يكون ذلك إلا من نفس شجاعة لم تطفئها مصيبة المعركة الأولى ولم توهن عزيمتها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).



خلاصات:

١- الشجاعة هي قوة القلب عند النوازل، والثبات عند الفزع، والإقدام وقت التردد والحيرة، وكان رسول الله ﷺ كذلك، وأكثر من ذلك.

٢- من شجاعته ثباته في مواقف الفزع، وسكينته، ورباطة جأشه.

٣- ومن شجاعته انتدابه للدعوة حين وقف في صف وحده أمام البشرية كلها، يدعوها إلى التوحيد، وهي غارقة في الشرك.

٤- ومن شجاعته شجاعته في المعارك، وانغماسه فيها، حتى إن أشجع الناس من يكون قريباً منه.

٥- مع فرط شجاعته فلم يكن مسرفاً في القتل، ولا متلذذاً بالبطش، وما قتل بيده إلا رجلاً واحداً، هو أُبي بن خلف، حين قصد قتله.

٦- شجاعة القائد هي في ثباته وإقدامه، وقدرته على بث الشجاعة في جنده، ولا تقارن بشجاعة الجندي المقاتل، الذي شجاعته في التغلب على خصمه، وقد كانت شجاعة النبي ﷺ هي شجاعة القائد الجريء بثبات الذي تسري شجاعته إلى أتباعه ثباتاً وإقداماً.



الرَّسُولُ ﷺ والبُكَاءُ

البكاء تجاوباً مع ما يثيره من حزن وأنس وحسرة، فطرة بشرية فطر الله عليها الخلق، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وفيه تنفيس عن موجدة النفس، وتسكين للمصيبة وإخراجٌ لأحزان القلب.

وعندما يحصل من الإنسان في مناسبة فإنه يدل على كمال بشري واستواء فطري وتوازن في المشاعر والانفعالات.

وكذا تذرف عبرات الرسول في مواقف البكاء التي يكون التجاوب معها كمالا فطريا، وحياة مشاعرية، ويكون التنكر لها جفاء وغلظة.

يبكي النبي ﷺ في مواقف التأثر، ويكون بكاؤه دلالة على كماله البشري واستوائه النفسي، وما تحمله نفسه الكريمة من مشاعر الرحمة وعواطف الشفقة.

١- وكان النبي ﷺ يُظهر بكاءه في مواضعه، ويتجاوب مع الآلام والأحزان المؤثرة إذا أثارت البكاء، ولم يكن يكابر أحزانه، ولا يستتر ببكائه، ولذا يتعجب أصحابه من بكائه ويتساءلون: حتى أنت يا رسول الله؟

وكان ذلك في بيئة ترى بكاء الرجل ورقّة قلبه ضعفاً، وكانوا يكابرون

مشاعر الرقة وبكاء الرحمة ويتنكرون لها ولا يظهرونها، ويرون البكاء من الأحزان شأن النساء، ولا يزال هناك من يرث هذه الخصلة الجاهلية ويردد: لم يخلق الدمع لعيون الرجال.

سبحان الله؛ أما بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه من الحزن، وبكى سيد ولد آدم عندما فجع ببنيه وبناته؟ أليس الذي خلق فسوى هو الذي أضحك وأبكى؟

ولذا فإن نبينا ﷺ عندما يبكي فإنما يعيد البشرية إلى استوائها الفطري وتوازنها النفسي، ولما سأله أصحابه عن بكائه على فقد الأبناء قال: «**إِنَّهَا رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[(١)].

٢- أما بكاؤه ﷺ إذا بكى فهو ذرف الدمع بلا ضجيج ولا عويل ولا صخب، وإنما السكينة والخشوع.

ولما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء فبلغ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا**﴾، قال: «**حَسْبُكَ**»[(٢)].

إنه الاعتدال في الانفعال فكما كان ضحكه تبسُّماً كان بكاؤه ذرفاً، فإذا عيناه تذرفان، فلم يشعر ابن مسعود ببكائه حتى التفت إليه.

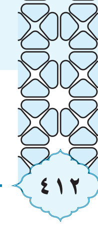
٣- وأما مثيرات بكائه فإنه يبكي في مواقف الخشية والتعظيم لله، حينما يترسل بقراءة القرآن في صلاته فيسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[(٣)]، إنه ذاك البكاء الذي يضج في الصدر تحسه ولا تسمعه فلا يصحبه نشيج وعويل ولكن السكينة والخشوع.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٥٠).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).



وكما كان يبكي وهو يرتل القرآن، كان يبكي وهو يستمع إليه، كما بكى وهو يستمع قراءة ابن مسعود.

٤- ومن مواقف بكائه بكاءُ الشفقةِ على أمته والحرص عليها، ومن ذلك: أنه تَلَا قَوْلَ الله ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي، أُمَّتِي**». وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»[(١)].

وعندما كسفت الشمس خشي أن يكون ذلك طليعة عذاب على أمته؛ فسمع في سجوده يبكي وينفخ ويناشد ربه: «**رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**»[(٢)].

لقد كان يبكي وهو يستدفع العذاب عن أمته شفقة عليها، لقد كانت أمته حاضرة في شعوره ومشاعره فيهيج بكاءً وهو يناشد ربه من أجلها، ويهيج بكاءً وهو يستدفع العذاب عنها وصدق الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن ذلك: بكاؤه لما نزل العتاب الإلهي على أخذ فداء الأسرى في بدر فإنه ﷺ استشار أصحابه بعد معركة بدر في أمر الأسرى فأشار عمر

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٩٤).

بقتلهم وأشار أبو بكر بأخذ الفداء منهم رجاء إسلامهم، فهوِيَ النبي ﷺ رأي أبي بكر واختار الفداء فدخل عليهما عمر وَإِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ، فَقَال: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبَكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الفِدَاءِ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» ـ لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ ـ وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أخذتم مِنَ الفِدَاءِ، ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الغَنَائِمُ[١].

٥ ـ ومن مواقف بكائه بكاء الرحمة يظهر ذلك في رحمته لابنه وهو يموت، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً[٢] لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ الله ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ**». ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ

(١) «مسند أحمد» (٢٠٨).

(٢) الظِّئْر: المُرْضِعَةُ غيرَ ولَدِها. ويقعُ عَلَى الذَّكَر والأُنْثَى، وأبو سيف هو أبو إبراهيم من الرضاعة. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٥٤).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ**»[١].

ويظهر ذلك في رقة مشاعره ﷺ مع أصحابه فقد دخل على سعد بن عبادة يعوده وهو مريض، فَلَمَّا دَخلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**قَدْ قَضى؟**». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ **أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**». وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَضْرِبُ فِيهِ بِالعَصَا، وَيَرْمِي بِالحِجَارَةِ، وَيَحْثِي بِالتُّرَابِ[٢].

ويدخل ﷺ على عثمان بن مظعون وقد توفي وغسل وكفن فيكشف عن وجهه فيكب عليه ويقبل ما بين عينيه، ويرى الصحابة النبي ﷺ وهو مكب على وجه عثمان بن مظعون فلما رفع ﷺ رأسه رأوا دموع النبي ﷺ وقد تساقطت على وجه عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] فأدرج عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكفنه ووجهه مرطب مطيب بعبرات رسول الله ﷺ.

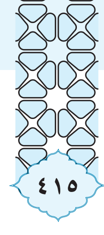
أشعر بغبطة لعثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي ذهب إلى قبره وعبرات الرسول ﷺ ترطِّب وجهه.

كيف فاضت هذه العبرات من رسول الله ﷺ وهو يعود أحد أصحابه مريضاً، ويودع أحدهم ميتاً؟ إنها المشاعر الصادقة والعواطف الجياشة، لقد كان النبي ﷺ يتبادل مع أصحابه مشاعر الحب كأصدق ما تكون المشاعر،

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٤١٦٥).



وتفيض عواطفه تجاههم، وتفيض عواطفهم تجاهه جليّة ظاهرة لا يكابرونها ولا يستخفون بها، فكان بكائه ﷺ كمالاً بشرياً، واستواء فطرياً.

ومن ذلك: بكاؤه عند نعي زيد وجعفر وابن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وعيناه تذرفان، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْداً، وَجَعْفَراً، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ** ـ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ـ **حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[(١)].

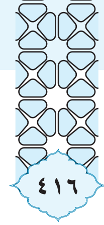
ويبكي ﷺ رحمة ورقة حين يسمع بما يهيج مشاعره ويتفاعل مع مشاعر من حوله، ومن ذلك: أن رجلاً جاءه يسأل عن حاله في الجاهلية فقال: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الأَوْلَادَ، وَكَانَتْ عِنْدِي بِنْتٌ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا، فَدَعَوْتُهَا يَوْماً، فَاتَّبَعَتْنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْراً مِنْ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِي الْبِئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ: يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ. فَبَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «**كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ**». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ**». فَأَعَادَهُ، فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ**»[(٢)].

٦- لقد كان النبي ﷺ يبكي بكاء الفطري والذي هو فيض رحمة في القلوب الرحيمة، وتنفيس عن هيجان المشاعر ولوعة الحزن، وينهى عما

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٥٧).

(٢) «مسند الدارمي» (٢)، رجاله ثقات، وهو مرسل.



يجاوز ذلك من العويل والنياحة والتسخط ولغو القول.

ولذا قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ **أَوْ يَرْحَمُ**»، ولذا حذر من عادات الجاهلية في الأحزان من مثل لطم الخدود، وشق الجيوب، والنياحة، وما يدل على التسخط من قدر الله، والجزع من المصيبة، وعدم التسلم لله فيما قَدَّر وقضى.

خلاصات:

١- تذرف عبرات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مواقف التأثر التي يكون البكاء فيها كمالاً فطرياً، وحياة مشاعرية.

٢- كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُظهر بكاءه في مواضعه، ويتجاوب مع الآلام والأحزان ولا يتنكر لها.

٣- كان بكاؤه ذرفاً بالعين بلا ضجيج ولا عويل ولا صخب.

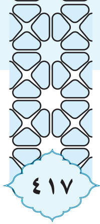
٤- من مواقف بكائه بكاء الخشوع والخشية حين قراءة القرآن أو سماعه.

٥- من مواقف بكائه البكاء شفقة على أمته، ومناشدته لربه من أجلها.

٦- ومن مواقف البكاء استدفاعه العقوبات عن أمته وخوفه عليها أن تعاجل بها.

٧- ومن مواقف بكائه بكاء الرحمة لأصحابه وأبنائه تجاوباً مع آلامهم وأحزانهم وفواجعهم.



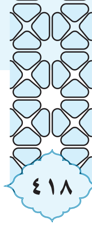


الرسول ﷺ والحزن

١- أجار الله نبيه ﷺ أن تستوطن الأحزان قلبه، فهو الذي كان يستعيذ ربه من الهم والحزن، فلم تكن الأحزان علامة فارقة في وجهه ﷺ، بل كان دائم البشر، كثير التبسُّم، أليس هو الذي بعث بالبشرى؟ إن البشرى لا يمكن أن تشع من وجه كاسف حزين، لقد كان الأغلب على حياة النبي ﷺ البهجة والبشر والتبسم، مع أن الأحزان عبرت حياته ولكنها لم تستوطن قلبه.

٢- زارته الأحزان في طفولته عندما ماتت أمه أمام ناظريه في الأبواء وعمره ست سنوات، وزارته الأحزان يوم مات أبوه عبد المطلب وعمره ثماني سنوات، وزارته الأحزان بعد بعثته ﷺ وهو في الخمسين من عمره يوم توفي عمه أبو طالب ثم بعد ثلاثة أيام توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها، حتى سمي ذلك العام: عام الحزن، وزارته الأحزان يوم فجع بأبيه حمزة بن عبد المطلب في أُحد، وعَمُّ الرجل صنو أبيه، وزارته الأحزان يوم فجع عام مؤتة بجعفر بن أبي طالب، وحِبِّه زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، قالت عائشة: فجلس رسول الله ﷺ يعرف الحزن في وجهه[١]، وزارته الأحزان

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٦٣).



يوم فجع بأبنائه وبناته فكان يجلس على شفير القبر الذي ستدفن فيه بنته وعيناه تذرفان.

لقد زارته الأحزان، فكيف كان حاله مع الحزن؟

٣- لقد كان النبي ﷺ يتفاعل مع الحزن تفاعلاً فطرياً طبيعياً، فلم يكن يتنكر للفطرة ولا يكابر المشاعر، فإذا أتته ظروف الحزن حزن، وتداعى مع الحزن، وظهر أثر الحزن في وجهه ﷺ وكان محيّاه ﷺ شفافاً تظهر عليه مشاعره، ولذلك قالت عائشة لما نعي إليه قواد مؤتة الثلاثة: جلس يعرف الحزن في وجهه. وقال أنس رضي الله عنه يصف حال النبي ﷺ لما أتاه خبر القراء السبعين الذين قتلوا في بئر معونة: فما وجد رسول الله ﷺ على أحد كما وجد على القراء أهل بئر معونة[١]. يعني ما رأينا الحزن في رسول الله ﷺ كما رأيناه في تلك الحال، وإن كنا رأيناه في أحوال أخرى.

وكان يعبر عن حزنه بذرف العيون دموعاً تسيل على وجهه المقدس، أو بكاء يجهش به فيفيض فيه لوعته وأساه.

ومن ذلك أنه ﷺ لما رأى حمزة قتيلاً سَارَ نَحْوَهُ، فَلَمَّا رَأَى جَبْهَتَهُ بَكَى، وَلَمَّا رَأَى مَا مُثِّلَ بِهِ شَهِقَ.

وقال عبد الله بن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة لما قُتِلَ، فوقف ﷺ على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء[٢].

وعندما دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس الحياة جعل يخاطبه ويقول: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَمْلكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيئاً، لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ،**

(١) «صحيح مسلم» (٦٧٧).

(٢) «المستدرك» (٤٩٠٠)، و«ذخائر العقبى» للمحب الطبري (ص١٨١).

وَوَعْدٌ صِدْقٌ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْناً أَشَدَّ مِنْ هَذَا؛ وَلَكِنْ تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إلَّا ما يُرْضِي رَبنَا، وَإنَّا بفرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[١].

إن النبي ﷺ يعلن الحزن صريحاً بقوله: «**وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**». إنه الحزن الفطري الذي لا يكابَر ولا يغالَب.

٤- لكن النبي ﷺ وإن كان يظهر منه الحزن في حال الحزن، ويتفاعل مع الحزن بالبكاء وبظهور أثر الحزن على الوجه إلا أن الأحزان لم تكن تستوطن حياته ولم يكن يحفر للأحزان بئراً عميقاً في قلبه، وإنما كانت الأحزان تعبر ولا تستقر، فكان ﷺ يستأنف الحياة ولا يستصحب الحزن، ولذلك لا يعرف أن النبي ﷺ جدد المآتم ولا جعل للأحزان مواسم وذكريات ولا أياماً ومناسبات، وإنما يستأنف الحياة ويتفاعل معها.

٥- كما كان يتفهّم حزن المحزونين وحالتهم النفسية، مر بامرأة تبكي عند قبر فقال لها: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**». قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ.

لاحظ أن النبي ﷺ نصحها ولم يلمها أو يعنفها، واحتمل بادرتها عندما قالت: إليك عني. فمضى ولم يكرر لها القول مراعاة لحالها النفسية.

فلما عرفته أتته معتذرة وقالت: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[٢]، ولاحظ هنا أنه لم يتكلم معها فيما يخصه وإنما تكلم فيما يخصها وهو مقام الصبر، فلم يحوجها لاعتذار أو يعرضها للوم.

وكان يقف مع المحزونين، فيمسح أحزانهم ويداوي أوجاع قلوبهم،

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٣).

ويسكب البشائر على القلوب المفجوعة فتتجاوز أحزانها وهي تتلقى كريم البشرى من نبيها ﷺ.

لقي ﷺ جابر بن عبد الله وكان فتى في قرابة العشرين من عمره وقد استشهد أبوه في أُحد فرآه كاسفاً حزيناً قال جابر: فقال لي رسول الله ﷺ: «**يَا جَابِرُ! مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟**». فقلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أحد، وترك عيالاً ودَيْناً، قال: «**أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟**». فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَداً قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحاً. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ** ﷻ: **إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ**». قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[1].

ولك أن تتخيل حال جابر عندما يرى النبي ﷺ يوليه هذا الاهتمام حتى إنه يستشف مشاعره النفسية ويسائله عنها ويستكشف أسبابها: «**مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟**». ثم يداوي اللوعة بذكر هذه الكرامة العظيمة، لتحل البشرى محل الفجيعة، والسلوى محل المصيبة.

وجاءته أم حارثة وقد استشهد ولدها في بدر تسأله بلوعة فتقول: يا رسول الله حدثني عن ابني، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال لها: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ! أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى**»[2].

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٠١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٠٩).

يالله لهذه البشائر التي تُفيض على القلوب السكينة، وتتجاوز بها الحزن إلى الاستبشار والرضا.

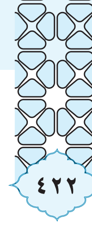
ولما استشهد جعفر بن أبي طالب دخل النبي ﷺ على زوجته أسماء بنت عميس وقال لها: «**ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي**». قال عبد الله بن جعفر: فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ، فأمر بحلق رؤوسنا، ثم قال: «**أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ الله فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي**». ثم أخذ بيدي، ثم قال: «**اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ**»(١).

فانظر إلى هذه الأبوة الحانية والمواساة الرقيقة، والطمأنينة التي أشاعها في نفوسهم، ثم تأمَّل دعاءه الأطفال: «**ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي**». وطلبه حلق رؤوسهم لإزالة الشعث عنهم، ثم حديثه عن شبهه لعمه أبي طالب وله ﷺ، ثم دعائه لهم هذا الدعاء الكريم المبارك، إن هذه التفاصيل في التعامل جرعات متوالية من الإيناس والطمأنينة لا تفطن لها إلا النفوس المرهفة الكريمة، ولك أن تتخيل حال أسماء زوجة جعفر وقد نعي زوجها في غربتها الثانية في المدينة بعد غربتها الطويلة في الحبشة، ما حالها لو لم يقف النبي ﷺ معها هذا الموقف، ويواسيها هذه المواساة؟!

٦- بقي أن نتذكر أن أشد الأحزان التي مرت بقلب النبي ﷺ لم تكن فقده من فقد، أو فجيعته بمن مات، وإنما كانت أشد الأحزان التي مرت بقلبه حتى عاتبه الله عليها هي أحزانه من أجل أمته، حين يعرض الهدى

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٥٠).



على الناس، فلا يقبلونه، حتى عاتبه ربه فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي: مهلك نفسك على آثارهم ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾، كانت أعظم أحزان النبي ﷺ أحزانه من أجل أمته، أَلَّا تقبل هدى الله الذي جاء به، فصلى الله وسلم على هذا النبي الذي كانت أعظم أحزانه مرتبطة بدعوته، ومن أجل أمته.

خلاصات:

١- لم يكن الحزن سمة ملامحه بل كان مشرق الوجه بسَّاماً.

٢- زارته الأحزان منذ طفولته وتتابعت عليه في مراحل حياته.

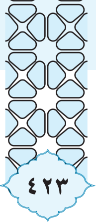
٣- كان يتفاعل مع الحزن ولا يتنكر له، وكان تفاعله فطرياً عفوياً بلا تكلف ولا تعمق.

٤- لم تكن الأحزان تستوطن قلبه، فيعيشها في حينها ثم يعبرها ويستأنف الحياة، ولا يجددها ولا يسترجعها.

٥- كان يتفهَّم مشاعر المحزونين، ويمسح أحزانهم ويداوي أوجاع قلوبهم.

٦- كانت أشد أحزانه حزنه من أجل أمته ودعوته، حتى عاتبه ربه على شدة حزنه عليهم.





الرَّسُولُ ﷺ والحُب



لولا الحب ما مال غصن على غصن، ولا أومضت نجمةٌ لنجمة، ولا حنى الجبل على الرابية، ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة.

الحب هذه الكلمة القليلة الواسعة ترمز لهذه العاطفة ولا تعبر عنها ولا تصفها، وإن اللغة تغدو شحيحة، والكلمات قليلة حينما تريد أن تعبر عن هذه العاطفة الآبدة الخالدة الموجودة مع الحياة ما وجدت حياة، فالحياة الحب والحب الحياة.

وكيف تصف الكلمات لهفة الحب وشوقه، أو فجيعة الفقد ولوعته، أو نشوة اللقاء وفرحته، مَن يصف الدموع الذارفات شوقاً، أو الهاطلات فرحا؟!

أفسر ماذا والهوى لا يفسر

مَن يصف وجيف القلب، ورعشة الوجدان، وشهقة فجاءة اللقاء؟!

بقلبي شيء لست أعرف وصفه … على أنه ما كان فهو شديد

تمر به الأيام تسحب ذيلها … فتبلى به الأيام وهو جديد

مَن يريد وصف هذه العاطفة، ويروي حديث هذه المشاعر هو كالذي يريد أن يضع القمر في حقيبة، أو يسكب البحر في كأس[١].

والحياة بالحب حياة بهيجة مأنوسة مشعة بالحيوية والجمال، والحياة بلا حب حياةٌ قفرٌ موحشةٌ، بائسةٌ يابسةٌ.

ولقد جاء هذا النبي فأعاد الحب إلى الحياة، وأعاد الحياة إلى الحب.

أعاد الحب إلى الزوجة فجعله عبادة: «**حَتَى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلى فِيِّ امْرَأَتِكَ**»[٢]. وإلى الأطفال فجعله رحمة: «**إِنَّها رَحْمة وإِنَّما يَرْحمُ اللهُ مِنْ عِبادِه الرُّحَمَاءَ**»[٣]. وإلى الأخوة فجعله إيمانا: «**لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»[٤].

وأشاع الحب في الطبيعة وتبادل الحب مع مظاهرها فقال عن جبل أُحُد: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[٥].

ثم استنبت الحب في تلك البيئة الجافة الجافية وأعاد إليها وعيها بالحياة، فتناثر الحب في حياتها، وزرعه في قلوبها، فأورقت وأزهرت، واهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وعندما تتأمل حياة الصحابة حول رسول الله ﷺ تكاد تظن أنهم يتنفسون الحب مع الهواء الذين يستنشقونه، ويرتوونه مع الماء الذي يشربونه، قد سرى الحب في فجاج حياتهم كلها، مع قرب العهد بعماية

---

(١) اقتباسات من مقالة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله عن الحب.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٥٤).

(٥) «صحيح البخاري» (١٤٨١).

الجاهلية، وجفاء الصحراء، وقساوة الطباع، وإذا بحثت عن السبب وجدت أن أنوار النبوة أشرقت على نفوسهم فأضاءت جوانحها من تلك الشخصية المشعة؛ حيث كان رسول الله ﷺ يسرج قناديل الحب في كل نواحي الحياة، فهو الذي إذا دخل بيته تعاطى الحب الزوجي في أجمل صوره، مع شربة الماء يحسوها من القدح الذي شربت منه زوجته، فيتحرى أن يلاقي فمه الطيب موضع فمها بعد أن شربت، وفي لقمة الطعام يتناولها بعد أن أكلت بعضها فيضع فمه حيث وضعت فمها، فيا لله كم من رسائل الحب يحملها هذا التعاطي الجميل، وبذلك تحوَّلت حجراته الصغيرة إلى خزائن كبيرة للحب.

يقرؤون الحب النبوي في عاطفة الأبوة تتدفّق حبّاً في مشهد عناق النبي ﷺ لبُنَيِّه الحسن وقد ارتمى على صدره فجعل يشمه ويقبله ويعلن حُبَّه فيقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ**»(١).

كان الحب يسري في حياتهم وهو ﷺ يتعاطاه معهم، يسكبه في آذانهم؛ فتنتعش به نفوسهم، وتشرق وترف، فها هو يأخذ بيد معاذ فيقول له: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**». فيقول معاذ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا وَاللهِ أُحِبُّكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

وكان ينثر الحب في طرقات المدينة وسككها، مرَّ مرةً بدُور بني النَّجَّار، فتلقَّاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدُّفوف ويتغنَّين ويَقُلْنَ:

---

(١) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).

(٢) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).

نحن جَوارٍ من بني النَّجَّارِ   يا حبَّذا محمدٌ من جارِ

فقال ﷺ: «**اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكُنَّ، اللهُمَّ بَارِكْ فِيهِنَّ**»[(١)].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى صِبْيَاناً وَنِسَاءً مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ نَبِيُّ الله ﷺ مُمْثِلاً، فَقَالَ: «**اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**». يَعْنِي الأَنْصَارَ[(٢)].

وعنه: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَخَلَا بِهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٣)].

وكان الحب يسري في الحياة، مع الأحياء والأموات فهو ﷺ يتحدث عن زوجته خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها بسنين طوال فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[(٤)]، وانظر إلى روعة التصوير للحب بأنه رزق، وهبة من كريم هبات الله عز وجل.

وكأن هذا الحب يسري إلى مظاهر الطبيعة من حولهم؛ فهذا جبل أحد أشهر معالم مدينتهم الطبيعية يشير إليه ﷺ ويقول: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[(٥)].

كان ﷺ يرفع الستور عن هذه العاطفة الجميلة، فبدل أن تكون شعوراً

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٠٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

مستكناً يستر ولا يشهر إذا به يَستعلن به ويُظهره، ولا يداريه، ويجيب عمرو بن العاص وقد سأله: مَن أحب الناس إليك؟ فيأتي الجواب ـ سريعاً كالطلقة ـ: «**عَائِشَةُ**»(١).

لقد كان ﷺ يعلن بهذا أن الحب كمال إنساني واستواء فطري يُتعاطى ويُشهر فيزيد الحياة جمالاً وبهجة.

وكان يتفنن في التعبير عن الحب، ونثره في فعاليات الحياة، في شربة الماء، وفي لقمة الطعام؛ تقول عائشة: كُنْتُ أَشْرَبُ مِنَ القَدَحِ وَأَنَا حَائِضٌ فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَأَتَعَرَّقُ مِنَ العَرْقِ(٢) وَأَنَا حَائِضٌ فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ(٣).

يا ألله كم من رسائل الحب تضج في هذه المشاهد وتعلن هذه العاطفة وتعبر عنها!

وعندما أرادت زوجته صفية أن تركب جملها جلس لها حتى تصعد وتكون الدرجة التي تصعد عليها هي رِجلُهُ التي ثناها لها، فوضعت قدمها على ركبته حتى تصعد على جملها(٤)، ولك أن تتخيل شعورها ومشاعرها وهي تصعد جملها ويدها في يده، وقدمها على ركبته، وتعيش مشهد الحب المعلن بمرأى من الناس حوله.

كان ﷺ يتعاطى الحب ويأمر بتعاطيه والإعلان به؛ فقد كان جالساً مع

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).

(٢) العَرْق العظم الذي عليه بقية من لحم. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/ ٥٤١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٥٥٩٤، ٢٥٧٩٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٢٣٥).



أصحابه فجاء رجل فسلَّم عليه ثم وَلَّى. فقال أحد أصحابه: يا رسول الله والله إني لأحب هذا. فقال: «**هَلْ أَعْلَمتَهُ؟**». قال: لا، قال: «**قُمْ فَأَعْلِمْهُ**». فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا هَذَا، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللهِ. قَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَه(١).

وكان يقول: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»(٢).

لقد أصبح الحب عاطفة مبثوثة في حياتهم كلها.

وكما كانوا يرون القدوة في الحب في شخص النبي ﷺ كانوا يتلقون منه التحفيز لنشر الحب وإعلانه في حياتهم.

وهل أعظم من أن جعل النبي ﷺ الحب شرطاً للإيمان: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»(٣).

لذا سرى الحب في حياتهم فإذا النفوس التي كانت في الجاهلية تتوارث الإحن وتُورِّث التِّرات، وتُعمَّر في قلوبها الضغائن والأحقاد تتجاوز ذلك كله، فتعيش عافية نفسية وابتهاجاً مع الحياة ساعدها على تجاوز المشاعر السلبية، وتَخَطِّي الآلام والوثوب إلى الأمام، كانوا في المدينة يتعاطون الحب صنوفاً؛ وكانت مدينتهم تتنفس حباً وتعطر حياتهم بالحب.

ومن أعظم مشاهد الحب المعلنة حب الصحابة للنبي ﷺ وإعلانهم بذلك.

ولما رجع عروة بن مسعود إلى قريش يوم الحديبية جعل يصف لهم حب الصحابة للنبي ﷺ فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك،

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٣٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٥١٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٤).

ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له[١].

وقال أبو سفيان قبل أن يسلم: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[٢].

وكان هذا الحب العميق العظيم حبّاً إيمانيّاً ووجدانيّاً استنبته ﷺ بلين المعاملة وحسن الخلق ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾.

إن النبي ﷺ استنبت الحب في قلوبهم، فأصبح الحب عنوان العلاقة بينهم، والجسر الواصل بينه وبين قلوب أصحابه، ولذلك وصف الصحابة علاقتهم بالنبي ﷺ بأنها الحب: ما كان وجه أبغض إليَّ من وجهك وإن وجهك لأحب الوجوه إليَّ، وما كان دين أبغض إليَّ من دينك وإن دينك لأحب الدين إليَّ، كما في حديث ثُمامة بن أُثال[٣]، وعمرو بن العاص[٤]، وهند بنت عُتْبة[٥]، وهذا يبين أن القناعة في النبي ﷺ لم تكن مجرد قناعة عقلية، بل كانت قناعة عقلية وعاطفة وجدانية وعلاقة مشاعرية.

كما مد أبصارهم إلى أعظم الحب، إلى الحب العظيم المقدس الذي هو حب الله لعباده وحبهم له: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، حتى

---

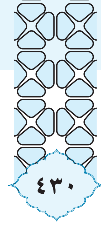
(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٧١٤).



سمت أشواقهم إلى هذا الأفق الأعلى وهو تطلّبُ حب الله عز وجل بما دلهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم من أسباب ذلك كما في الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[(١)]، وتنزلت آيات القرآن تصف أحباب الله بصفاتهم وأخلاقهم وعباداتهم: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**﴾، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾، ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ**﴾، ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾، ووصف لهم صلى الله عليه وآله وسلم محبة الله لعبده وأثرها فقال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»[(٢)].

وقد تحققوا بهذه الأوصاف فتلقوا البشائر بحب الله لهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم عن علي: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»[(٣)]، وقال عن الأنصار: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ**»[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٧٨٣)، و«صحيح مسلم» (٧٥).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**». فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»(١).

ويا لله أي أفق قدسي سمت إليه تلك النفوس حيث كانت تمشي على الأرض وقلوبها في الملأ الأعلى، يعاطيها الله حبه، ويأمر به ملائكته ويلقيه في قلوب عباده؟!

إن هذا هو أفق الحب الأعلى والأقدس الذي تسمو إليه تلك النفوس التي لها طهر الملائكة، ولذا تعيش نعيم الحب الأقدس بقلوب تطير إلى الله بحب وشوق، تحب لقاء الله ويحب الله لقاءها.

إن خفقة قلبية من هذا الشعور تغمر نعيم الدنيا كله وتتجاوزه إلى لذائذ قلبية هي من نعيم الجنة يستروحه أحباب الله في دنياهم قبل أن يصيروا إليه في أخراهم.

خلاصات:

١- نقل النبي ﷺ الصحابة إلى حياة معطرةٍ بالحب، ونداوة المشاعر وأنسها، بعد أن كانت حياتهم الجاهلية حياة القسوة والجفاء والجفاف.

٢- جعل ﷺ الحب فيما بينهم شعيرة معلنة يتعاطونها بينهم ويبثونها في حياتهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٧٥)، و«صحيح مسلم» (٨١٣).

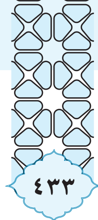
٣- نشر ﷺ الحب مع فعاليات الحياة ففي مجالسه وطرقاته وبيته كان يعلن الحب ويتعاطاه.

٤- جعل ﷺ المحبة من لوازم الإيمان فقال: «**وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**».

٥- كانت علاقة الصحابة بالنبي ﷺ علاقةً وجدانية قلبية كما كانت قناعة عقلية، فكانت قلوبهم تجمع بين صدق اليقين وخالص الحب.

٦- وجه ﷺ الأشواق إلى الحب القدسي الأعلى، حب الله والتطلع إلى محبته، فتحققوا بأوصاف أحباب الله، وتلقوا البشائر بحب الله لهم.





الرَّسُولُ ﷺ والغضب



إن المساحة الواسعة في حياة النبي ﷺ هي مساحة الرضا والحلم، واحتمال الأذى، والصبر على جهل الناس وجفائهم، فإذا حصل الغضب منه في مواقف فإنه الاستثناء النادر القليل في سعة حياة النبي الهادئة الرضية، فهو الذي أوصى فقال: «**لَا تَغْضَبْ**»[١]، وهو القائل: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**[٢]**، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[٣].

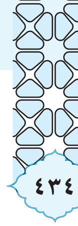
ولذا نجد النبي ﷺ قد تعرض لمثيرات تستفز الغضب وتثير الانفعال ولكنه احتواها بالحلم الواسع والصبر الجميل، فها هو ﷺ يسير وعليه برد نجراني غليظ الحاشية قد ارتداه فأداره على عنقه وألقى طرفه على عاتقه، فأدركه أعرابي من خلفه وجذب الرداء جذبة شديدة فأثرت حاشية الرداء في صفحة عنق النبي ﷺ، وارتد النبي ﷺ إلى الخلف فكاد أن يقع على قفاه، وانشق الرداء من شدة جذبة الأعرابي، ثم نادى الأعرابي رسولَ الله ﷺ قائلاً: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ[٤].

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٦).

(٢) الصُّرَعَة: المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).



فانظر كم جمع هذا الأعرابي في هذا الموقف من جفاء القول والفعل؟!

إن كل واحد من هذه المثيرات كاف في استثارة الغضب وإهاجة الانفعال، ولكن نبيك ﷺ ملك نفسه، وسيطر على انفعاله بغاية السكينة وحسن الخلق، والتفت إلى الأعرابي، وتبسم في وجهه، وأمر له بعطاء.

إن هذا الاقتدار على ضبط الانفعال وامتلاك السيطرة على ردات الفعل، هو التفسير العملي لقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**». فأي امتلاك للنفس أقوى وأرضى وأهدى من ذلك؟

إنك تدهش وأنت تتأمل هذا المشهد النبوي لتقول: لو أن أحداً فكر طويلا عن أفضل وأجمل ردَّةِ فعلٍ يمكن أن تصدر ممن يتعرض لهذا الموقف فلن يجد أروع وأجمل من ردة فعل النبي ﷺ هذه، والتي تمت بطريقة فورية تلقائية، فقد التفت ولم يعرض، وابتسم ولم يغضب، وأعطى ولم يعاقب.

وها هو ﷺ يرسل خادمه أنساً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حاجة فمر بصبيان يلعبون في الطريق فقام يلعب معهم وترك ما أرسله النبي ﷺ له، فما فَجِأَهُ إلا وإنسان يمسكه من خلفه فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم يضحك ويقول: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**». قال: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ[(١)].

إن هذا التصرف من أنس وانشغاله باللعب عن الحاجة التي أرسل لها مما يثير غضب الأب لو فعله ابنه فكيف إذا فعله خادمه؟! ولكن النبي ﷺ الذي وجد الفتى يلعب في الطريق أمسكه من خلفه وهو يضحك

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).

حتى يسكب في قلبه السكينة والأمان فلا يفزع، ثم طرح العتاب على شكل تساؤل: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**».

وبأبي هو وأمي لقد كان يعلم أنه لم يذهب، وأنه كان في لعبه ولهوه مع أترابه، لكنه لم يطرح الأمر بتوبيخ وتعنيف فيقول: كيف أرسلك ثم تلعب في الطريق وتدع ما أرسلتك إليه؟! ولكن سأله ضاحكا: «**أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» ثم تركه.

ولذا بقي هذا الموقف الجميل راسخاً في ذاكرة أنس يذكره عن رسول الله ﷺ بتلذذ وابتهاج.

لكنه ﷺ قد يغضب أحياناً ويظهر أثر الغضب عليه، ولكنه في غاية الامتلاك لنفسه عند الغضب، فعندما قسم غنائم حنين أعطى من الخُمسِ ناساً من أشراف العرب يتألفهم ويستطيب نفوسهم فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عُدل فيها وما أُريد بها وجه الله، فأبلغ ابنُ مسعود رسول الله ﷺ بذلك فغضب رسول الله ﷺ وتغيّر وجهه حتى كأنه الصبغ الأحمر ثم قال: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟! رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[1].

لقد غضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وَاحْمَرَّ وجهه حتى أشفق عليه ابن مسعود وقال: تمنيت أني لم أذكره له.

وإن مما نلاحظه أن النبي ﷺ في هذا الموقف كان في غاية قوته؛ فقد فتح مكة وانتصر على هوزان وحاز غنائمهم ومعه نحو خمسة عشر ألف مقاتل، فهو في غاية القوة والتمكين، ومع ذلك ومع شدة غضبه من هذه

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

المقالة فإنه لم يسأل عن قائلها من هو؟! ولم يأمر بإحضاره، فضلا عن توبيخه أو عقابه، وإنما كظم غيظه، وملك غضبه، وتَعزَّى بصبر أولي العزم من أنبياء الله قبله ـ عليهم السلام ـ.

بل إن هذا الكلام الذي بلغ النبي ﷺ في شأن القسمة قد وُوجه به النبي ﷺ مباشرة، فقد جاءه رجل وهو في الجعرانة منصَرفه من حُنين، وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال الرجل: يا محمد اعدل، فقال ﷺ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»(١). فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال ﷺ: «**مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي**»(٢).

لقد كانت كلمة هذا الرجل جائرة جافية، فهي غمز في عدل النبي ﷺ في قسمته هذه واتهام له بالجور والحيف في القسمة وعدم العدل فيها، ثم إنه كان في غاية الجفاء وسوء الأدب في خطاب النبي ﷺ، فلم يقل: يا رسول الله، وإنما قال: يا محمد، ومع ذلك لم تكن هذه الاستثارة سبباً لينفس النبي ﷺ عن غضبه بعقوبة أو انتقام، بل إن الصحابة لما غضبوا لرسول الله ﷺ واستأذنوا في قتل الرجل نهاهم، وبيَّن لهم أن محافظته على سمعته، وعلى مصلحة الدعوة أهم من التشفِّي وإنفاذ الغضب.

وقد كان ﷺ يغضب إذا تعرض لما يثير غضبه، ويغضب حتى يعرف الغضب في وجهه الشريف فيتلون الوجه الأزهر بالحمرة حتى وصفوه

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦١٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٦٣).

فقالوا: كأنما يُفْقأُ في وجهه حب الرمان[١]، ويحمر حتى يكون كالصبغ الأحمر[٢]، إلا أنه ﷺ في كل مواقف غضبه وشدة انفعاله في غاية الامتلاك لنفسه، فهو في حال الغضب أبعد ما يكون عن الفحش في قوله، وعن الطيش في فعله.

وعندما ننظر إلى مثيرات غضبه ﷺ فإن الجامع الغالب لها هو الغضب لله أن تنتهك محارمه أو تتعدى حدوده، وبخاصة إذا كان ذلك هو التعدي على الناس أو الإضرار بهم، كما غضب على أسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله، وعلى أبي ذر حينما عيّر رجلا بأمه، وعلى معاذ حين كان يطيل صلاته بالناس، وعلى الرجل الذي رآه لابساً خاتماً من ذهب فغضب ونزعه من يده وألقاه في الأرض فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى خَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**». فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَالله، لَا آخُذُهُ أَبداً وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله ﷺ[٣]، ونحو ذلك.

وأما الغضب لنفسه والانتصار لها فحسبنا وصف أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا له حين قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِماً، إِلَّا أن يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ لله عَزَّ وَجَلَّ[٤]، وقال أنس: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٨٥).

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٩٠).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

ﷺ سَبَّاباً، وَلَا فَحَّاشاً، وَلَا لَعَّاناً، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ المَعْتِبَةِ: «**مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ**»[١]، وهذه كلمة تقولها العرب جرت على ألسنتهم، أي سقط جبينه للتراب، وهي كلمة تجري على ألسنتهم ولا يريدون حقيقتها.

وجاء في صفته ﷺ: لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعرِّض للحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها[٢].

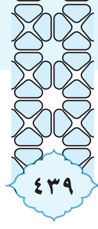
وكان ﷺ إذا بدرت منه بادرة غضب بشرية ثم رأى في الرجوع عنها خيراً سارعَ إلى الرجوعَ لما هو خير، ولم يأنف أو يستنكف أن يراجع ما قال ويرجع عنه، فقد جاءه أبو موسى الأشعري مرسلاً من أصحابه الأشعريين يسأله الحملان معه في جيش العسرة فقال: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «**وَاللهِ لَا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ**». قال: ووافقته غضبان ولا أشعر، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال النبي ﷺ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى دعاهم رسول الله ﷺ فأعطاهم ستة أبعرة ابتاعها لهم، وقال: إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، فلما أخذوهن تحدثوا بينهم فقالوا: غافلنا رسول الله ﷺ عن يمينه، لا يبارك لنا فيهن، فلو رجعنا فَذَكَّرناه يمينه، فرجعوا فقالوا: يا رسول الله إنك حلفت أن لا تحملنا، فقال ﷺ: «**إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا**»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٣١).

(٢) «الشمائل» للترمذي (٢١٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٣١٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).



إن الغضب النبوي في هذا الموقف هو الحالة الاستثنائية التي تُبرز عظمة القاعدة العامة في حال النبي ﷺ، الذي كان شديداً في امتلاك نفسه عند الغضب. وليتضح من هذا الموقف الاستثنائي أنَّ صَفْح النبي ﷺ وحِلْمه في مواقف الغضب ليس لكونه ذا طبيعة ملائكية لا تقبل هذا الانفعال، بحيث يستثار فلا يغضب، بل لأنه كان يغضب كما يغضب البشر، ولكنه يملك نفسه عند الغضب، فيكظم الغيظ ويعفو ويُحسن. وكانت عظمته الأخلاقية تجعله مسيطراً على انفعالاته في أحواله كلها.

ومن شفقته على أمته ورحمته بأصحابه أن دعا ربه أن يجعل ما يصدر منه في حال الغضب من دعوة على أحد من أمته صلاةً ورحمةً فقال لأم سليم: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، أَمَا تَعْلَمِينَ أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُوراً، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»[١].

إن الدعاء الذي يبدر من النبي ﷺ على أصحابه حال الغضب هو من جنس ما كان يجري على ألسنة العرب من غير أن يقصدوا حقيقته كقولهم: تربت يمينك، رغم أنفك، ونحو ذلك، ومع ذلك سأل النبي ﷺ ربه أن تكون هذه الدعوة طهوراً وقربة وزكاة لمن قيلت له.

فما أرق هذه الرحمة في قلب هذا النبي الرؤوف الرحيم، وما أعظم بركة هذا النبي ﷺ على أمته، حتى تكون دعوته على من أغضبه طهوراً وزكاة وقربة!

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٠١).

إن مواقف غضبه ﷺ تبين لنا أنها الاستثناء القليل النادر في سعة حلمه، وأنه إذا غضب كما يغضب البشر فهو الذي يملك نفسه عند الغضب، فلا طيش ولا اهتياج، وإنما غاية الاقتدار في امتلاك الانفعال، وحسن إدارة الغضب إذا غضب.

إن قلة الغضب من النبي ﷺ دليل على قوة نفسه، وغضبه لله دليل على قوة إيمانه، ووقوع الغضب البشري منه أحياناً لبيان التأسِّي به، بحيث لا يدفع الغضب إذا وقع إلى تجاوزٍ للحد أو بغيٍ أو لجاجة، فهو سريع الفيئة، لا تملكه كلمة قالها عند الغضب: «**إِنِّي وَاللهِ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا**»[١].

كما أن الغضب النبوي في هذه المواقف جزء من الطبيعة البشرية، ظهر من النبي الكريم ﷺ؛ ليؤكد اللافتة الضخمة في أداء النبي ﷺ لدعوته: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، فيحدث منه الانفعال الغضبي؛ ليشرِّع لأمته ما تفعله حال الغضب، كما يَعْرِض له النسيان؛ لِيُشرِّع لأمته ما تفعله حال النسيان، ولتعلم الأمة عظيم حكمة الله تعالى يوم جعل الرسالة والقدوة للبشر بشراً مثلهم، له غرائزهم ومشاعرهم وانفعالاتهم، ليكون قدوة لهم فيما يصدر منهم في لحظة الانفعال هذه.

إن الغضب إذا تغلب على الإنسان وملكه فهو شعبة من الجنون يدفعه إلى البغي والبطش والعدوان، ولذا فهي لحظة ضعف يستغلها الشيطان ليدفع الإنسان إلى تصرف طائش يطول عليه ندمه بعد أن يزول غضبه، ولذا أرشد ﷺ إلى الاستعاذة من الشيطان حال الغضب، فقد رأى رجلين

(١) «صحيح البخاري» (٥٥١٨)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

يستبّان وقد احمر وجه أحدهما من الغضب فقال: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**». فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ رجُلٌ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: «**تَعَوَّذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ، أَمَجْنُونٌ أَنَا، اذْهَبْ[1]، وهذا من شدة الانفعال، وغياب الرشد حالة الغضب.

وأرشد ﷺ إلى السكوت حال الغضب فقال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[2]، وذلك أن الإنسان حال الغضب يفقد السيطرة على منطقه واختيار كلماته، فقد يتسرع بطلاق يندم عليه، أو يتلفظ بلعن أو سب يجلب عداوة ويثير فتنة.

وأرشد إلى السكون فقال ﷺ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»[3]، وفي ذلك كف للإنسان أن يتداعى به الغضب إلى تصرفات فيها بطش وطيش وإيذاء لنفسه أو لغيره، فإن القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه، والمضطجع دونهما، فأمر بالقعود أو الاضطجاع حتى لا تبدر منه بادرة يندم عليها[4].

خلاصات:

١- المساحة الواسعة في حياة النبي ﷺ هي مساحة الحلم واحتمال الأذى، وحالات الغضب هي الاستثناء النادر.

٢- يغضب النبي ﷺ أحياناً وتظهر علامات الغضب على ملامحه،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٤٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢١٣٦).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٨٢).

(٤) «معالم السنن» (٤/ ١٠٨).

ولكنه في غاية الاقتدار على امتلاك نفسه عند الغضب.

٣- إذا بدرت منه بادرة عند غضبه ثم رأى في الرجوع خيراً سارع إلى الرجوع وأتى الذي هو خير.

٤- ومن شفقته على أمته اشتراطه على ربه أن يجعل دعاءه على من دعا عليه حال غضبه بدعوة وليس لها بأهل، طهوراً وزكاة وبركة.

٥- لحظات الانفعال والغضب التي تحدث منه صلى الله عليه وآله وسلم تبين أنه يغضب كما يغضب البشر، وأن حلمه لقوة امتلاكه نفسه.

٦- حذر صلى الله عليه وآله وسلم من الغضب بكبت ما يثيره، وعدم الاستجابة لثورة انفعاله.

٧- أرشد صلى الله عليه وآله وسلم إلى وسائل تهدئة الغضب وإطفاء ثائرته والسيطرة على انفعاله.



الرَّسُولُ ﷺ والجَمَالُ

إن الله جميل يحب الجمال، ولذا خلق الكون جميلاً مُزَيناً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وخلق الإنسان جميلاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وجعل في الحيوان جمالاً: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، وفي الأشجار جمالاً، في قوامها وثمارها: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، وجعل في نبات الأرض جمالاً وبهجة: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

وجعل حُب الجمال فطرةً في النفوس السوية، تُعجَب به، وتتطلبه وتهفو إليه، ولذا فإن لنبينا ﷺ مع الجمال حال تتضح في معالم منها:

١- أنه ﷺ كان جميلاً في خَلْقه فما وقعت عين من رآه على أجمل منه خَلْقا وأعظم خُلقا، يقول جابر بن سمرة رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ ليلة البدر فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر فلرسول الله ﷺ أجمل من القمر[١].

ولما قال رجل لجابر بن سمرة: هل كان وجهه رسول الله ﷺ مثل

(١) «جامع الترمذي» (٢٨١١).

السيف؟ قال: لا، بل كان مستديراً مثل الشمس والقمر[١].

فهو في الأرض شمسها وقمرها وضياؤها، يقول عنه من رآه: لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان جمال المصطفى ﷺ جمالاً يكسوه الجلال، فهو في غاية الجمال مع البهاء والهيبة والجلال.

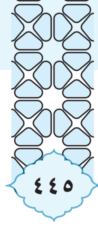
٢- وكما كان جميلاً في منظره كان جميلاً في مظهره؛ فكان أنيقاً في لباسه، حسن الهندام والهيئة، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ في حلة حمراء فلم أر شيئاً أحسن منه[٢]، وقد لبس أنواع الثياب الجميلة فلبس حلة حمراء[٣]، وبرداً أخضر[٤]، وجُبَّة رُوميَّة[٥]، وحلة من حرير مكفوفة بالذهب أهداها له أكيدر دومة[٦]، ولعنايته بلباسه لم يؤثر أنه لبس لباساً رثّاً غير لائق به، وكان اللباس يزهو عليه ويجمل به إذا لبسه كأنما لا يصلح إلا له.

ومن اعتنائه بالجمال وحسن المظهر أنه ﷺ وهو في حال اعتكافه وانقطاعه للعبادة كان يدني رأسه لعائشة فترجل شعره وهو معتكف.

٣- وكما كان ﷺ جميلاً في منظره ومظهره كان جميلاً في اختياره؛ فكان أزواجه أمهات المؤمنين جميلات، وعندما أتت جويرية بنت الحارث إلى النبي ﷺ تستعينه في أداء كتابتها بعد غزوة بني المصطلق قالت

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٤) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).
(٥) «السنن الكبرى» للنسائي (١٢٥).
(٦) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).



عائشة: وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن رسول الله ﷺ سيرى منها ما رأيت، فدخلَتْ عليه وسألته أن يعينها في أداء كتابتها فقال: «**هَلْ لِكِ فِيما هُوَ خُيرٌ مِنْ ذَلِكَ؟**». قَالتْ: بَلى، قَالَ: «**أُؤدِي عَنْكِ كِتابتكِ وَأَتَزَوَجُكِ**». فقالت: نعم يا رسول الله قد قبلت، فتزوجها ﷺ[(١)].

وعندما أتته امرأة وقالت: يا رسول الله إني قد وهبت لك نفسي، صوَّب بصره فيها وصعده ثم طأطأ رأسه وسكت[(٢)]، ولعل هذا لأن جمالها ليس مما يختاره، ولكلٍّ في الجمال ذوقه واختياره، وهذا الميل للجمال في الاختيار هو كمال فطري واستواء نفسي.

وقد أشاع حب الجمال وعرف به، وتعامل به أهله له، فعندما جاء يدعو ابنه الحسن وينادي: «**أثَمّ لُكَع؟**»[(٣)]. فحبسته فاطمة حتى تصلح هيئته وتغسله وتلبسه سِخاباً، وهي قلادة من الخرَز وطيب القرنفل يلبسها الصبيان والجواري[(٤)]. فانظر إلى اهتمام فاطمة بنظافة الصبي وجماله قبل خروجه إلى النبي ﷺ لما عرفت من ذوقه وحبه للجمال.

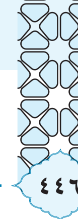
٤- وكما كان يختار الجمال فيما يرى كان يختاره فيما يسمع، فعندما أخبره عبد الله بن زيد أنه رأى الأذان قال له: «**أَلْقِهِ عَلَى بِلاَلٍ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ**

(١) «سنن أبي داود» (٣٩٣١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٢٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١). ولكع هنا أي الصغير. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٦٨).

(٤) «فتح الباري» (٤/ ٣٤٢).



صَوْتاً»(١). وعندما سمع قراءة أبي موسى استمع إليها ثم قال له: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»(٢). فللمنظر جماله في الحسن والبهاء، وللصوت جماله في الجَرس والشجى، وللكلمة جمالها في الإيقاع والتعبير، وقال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي**»(٣).

٥- وكان يحتفي بحب الناس للجمال ويتفاعل معهم في ذلك فقد قال يوماً وحوله أصحابه: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، وكان في المجلس أحد الصحابة وكان جميلا أنيقا فقال: يا رسول الله إن الله قد قسم لي من الجمال ما ترى، وإنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنا، أفمن الكبر ذلك؟ فقال ﷺ: «**لَا، إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الكِبرِ، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٤).

فطمأن هذا الرجل بأن حبه للجمال ليس من الكبر ولكنه أحب ما يحبه الله وهو الجمال.

وكما كان يتفهّم هذه الفطرة وهي حب الجمال فإنه كان يتفاعل معها فيشارك أصحابه تذوق الجمال والسعادة به.

وأهديت للنبي ﷺ أقبية من ديباج مُزَرَّرَة بالذهب فقسمها بين أصحابه، فعلم بذلك مخرمة بن نوفل وكان شيخاً كبيراً في خُلُقِهِ شِدَّة فقال

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٤٨)، و«صحيح مسلم» (٧٩٣).

(٣) «مسند أحمد» (٢٤٢٤٤)، و«صحيح البخاري» (٦١٧٩). لقست وخبثت معناهما واحد، وإنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم منه، وعلمهم الأدب وأرشدهم إلى استعمال الحسن وهجران القبيح. ينظر: «معالم السنن» (٤/ ١٣١).

(٤) «صحيح مسلم» (٩١).

لابنه المسور بن مخرمة: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ عسى أن يعطينا منها شيئاً، فلما وقف على باب النبي ﷺ وتكلم عرف النبي ﷺ صوته فخرج إليه ومعه قباء منها فاستقبله بأزراره المذهبة وجعل يريه محاسنه وهو يقول: «**يَا أَبَا المِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا المِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**». فنظر إليه مخرمة وقال: رضيتُ، فقال ﷺ: «**رَضِيَ مَخْرَمَةُ**»[1].

إن النبي ﷺ يعرض الكساء على مخرمة ويريه محاسنه ومواضع الجمال فيه ليسعده بذلك، وقد سعد بذلك ورضي فقال ﷺ: «**رَضِيَ مَخْرَمَةُ**».

وعندما قسم أكسية على نساء أصحابه استبقى كساء منها ملوناً بأعلام صُفر، وقال: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**» ـ بنت خالد بن سعيد ـ وهي طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها، ولدت في أرض الحبشة حين هاجر أبوها وأمها هناك، فجيء بها إليه فألبسها الكساء ثم جعل يريها ألوانه الصفراء وينشره لها ويقول: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَاهْ**»[2]، أي: حسن بلسان الحبشة.

إن النبي ﷺ في هذين المشهدين يخاطب فطرة حب الجمال، والتي يشترك فيها الصغير والكبير والذكر والأنثى.

٦- وكما كان يحب الجمال في هيئته ومظهره فقد كان يحبه في أصحابه فيوجههم إلى التجمل والعناية بالمظهر، يقول جابر: أتانا رسول الله ﷺ زائراً منزلنا فرأى رجلاً شعثاً فقال: «**أَمَا يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟**»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٩٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٦٢).

ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة فقال: «**أَمَا يَجِدُ هَذَا مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثِيَابَهُ؟**»(١).

ولما جيء بأبي قحافة والد أبي بكر الصديق إلى النبي ﷺ وكان شيخاً كبيراً أبيض الرأس كأن رأسه الثغامة(٢) فقال ﷺ: «**غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ**»(٣).

إن أمره بترجيل الشعر ونظافة الثياب وتغيير الشيب، هي من التربية على مراعاة الجمال في المظهر.

ولذا فإن النبي ﷺ كما كان جميلاً متجملاً فقد أعلى ذائقة الجمال فيمن حوله، وأعطى للجمال قيمته وأهميته، واحتفى بالفطرة البشرية التي تتطلبه، وهل أعظم من أن يحتبس بجيشه على مشارف المدينة يبحث عن عقد لعائشة فقدته بالليل، ولم يكونوا على ماء وليس معهم ماء، إن هذا العقد جمال تتجمل به عائشة فكان له شأن عندها وعنده من أجلها(٤).

وبذا نرى أن من حول النبي ﷺ قد تجاوب مع جماله وتجمله وحبه للجمال، فأصبح حب الجمال وتطلبه ذائقة عامة، فصلى الله وسلم على من أعاد إلى الحياة البشرية جمالها وكمالها.

خلاصات:

١- كان ﷺ جميلاً في محيّاه، فما رأت عينا من رآه أجمل منه.

٢- كان جميلاً في مظهره، أنيقاً في لباسه.

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٠٦٢).

(٢) الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبَّه به الشيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٢١٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢١٠٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٣٦٧).

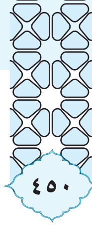
٣- كان جميلاً في اختياره، فيختار الجمال ويميل إليه.

٤- كان يختار الجمال فيما يرى، ويختاره فيما يسمع، فيعجب بالصوت الجميل والأداء الجميل.

٥- كان يحتفي بحب الجمال ويتفاعل معه.

٦- كان يوجه إلى العناية بالجمال ويحث عليه ويعلي ذائقته.





الرَّسُولُ ﷺ والذوق

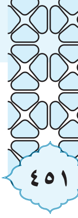
الذوق كمال في الشخصية، ورقي في السلوك، ولياقة في التعامل، يفطن لها أصحاب الذائقة المرهفة والنفوس الشفافة، وتقل هذه اللياقة الذوقية عند أهل الجفاء وغلظ الطباع.

وعندما ننظر إلى الذوق النبوي نجد رقيّاً وتألقاً عاجباً، وتربية للأمة على كمالات مبهرة في الآداب والسلوك والتعامل.

١ – فكان ذوقه ﷺ متكاملاً في شخصيته وسلوكه وتعامله، يظهر هذا الذوق في الحفاوة بالنظافة، فكان ﷺ طيِّباً نظيفاً نقيّاً في جسده وملبسه وهيئته. وكان أنيقاً فيما يلبس حتى تكون الحُلَّة عليه أجمل ما تكون على لابس، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيته وعليه حلة حمراء، فما رأيت أجمل منه فيها[١].

ومن ذوقه في اللِّباس اعتناؤه بلباس المجامع العامة في الجمعة والأعياد ولقاء الوفود، فيلبس ما يليق بالحفاوة بهذه الاجتماعات وبإكرام مَن يأتيه، ولذا لما رأى عمر رضي الله عنه حلة ثمينة أخذها فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).



الله لو اشتريتها فلبستها للعيد وللوفود[١] ؛ وذلك لأن عمر رضي الله عنه رأى من النبي ﷺ عناية خاصة بلباسه في المجامع ولقاء القادمين إليه، وفي العناية باللِّباس الجميل في هذه المجامع، دلالة إكرام للجمع وإظهار للاحتفاء بهم.

٢- ومن الذوق النبوي عنايته بالرائحة الزَّكية، ولذا كان يحب الطِّيب ويتعاهد به جسده الطَّيِّب، فكان إذا مد يده الكريمة تضوعت طيبا كأنما أخرجها من جؤنة عطار[٢]، وإذا أقبل من طريق سبقته رائحة طيبه، وإذا مضى من طريق وجد الذي يسلك في أثره عبق طيبه في طريقه.

قال أنس رضي الله عنه: مَا مَسِسْتُ حَرِيراً وَلَا دِيبَاجاً الْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ رِيحاً قَطُّ أَوْ عَرْفاً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ النَّبِيِّ ﷺ[٣].

٣- ومن الذوق عنايته برائحة فمه الطَّيِّب، فكان إذا دخل بيته بدأ بالسواك؛ لأن الداخل إلى بيته سيدنو من زوجته ويقبِّل فيطيِّب فمه لهذا اللقاء، فهل ثمة رهافة في الذوق أشف من ذلك؟ وإذا استيقظ من نومه بدأ بالسواك ليزيل ما عسى أن يكون أصاب الفم من تغير بسبب النوم، وكذا تجنبه أكل الأطعمة شديدة الرائحة كالبصل والثوم فقد قدم إليه ﷺ طَبَقٌ، فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحاً، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ، فَقَالَ: «**قَرِّبُوهَا**». فَقَرَّبُوهَا إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ: «**كُلْ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي**»[٤]. فكان يتجنب الروائح لمناجاة جبرائيل وحتى لا تتأذى منه الملائكة.

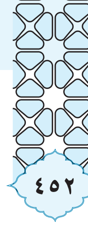
---

(١) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٢) جؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٣٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٦٤).



٤- ومن الذوق النبوي اختياره أحسن القول وأطيب الكلام في حديثه، ولذلك لا نجد فيما رُوي لنا من حديثه الكثير الطَّيِّب لفظة نابية أو كلمة فاحشة، فما كان فاحشاً ولا متفحِّشاً.

وكان يتحاشى التصريح بالكلمات المحرجة، وإنما يُكنِّي عنها ويُلمح إليها إلماحاً؛ فقد جاءت إليه امرأةٌ تسأله عن الحَيضِ كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْهُ إِذَا طَهُرَتْ؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا، فَتَدْلُكُهُ دَلْكاً شَدِيداً حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا المَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً**[1] **فَتَطَهَّرُ بِهَا**». قَالَتْ المرأة: وَكَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**تَطَهَّرِي بِهَا**». قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ: «**سُبْحَانَ الله، تَطَهَّرِي**». قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَحْيَا فَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ، فَعَرَفْتُ الَّذِي يُرِيدُ رَسُولُ الله ﷺ فَجَذَبْتُهَا إِلَيَّ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ[2].

فانظر إلى لطافة التعبير عما يحرج المرأة ذكره، وكيف كان يعرض بوجهه حياءً عند هذا الحديث.

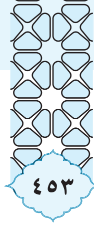
٥- ومن ذوقه في الحديث اختيار الكلمات الجميلة الرائعة يصف بها أصحابه، ومن ذلك:

أ - أن جرير بن عبد الله البجلي دخل المسجد، فالتفت الناس إليه فقال لرجل بجانبه: هل ذكرني رسولُ الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: ماذا قال؟ قال:

---

(١) الفرصة: قطعة من صوف أو قطن أو خرقة. والممسكة: المطيبة بالمسك. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٣١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢).



قال ﷺ: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا البَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَكٍ**»(١).

فأي بهاء وجمال يحمله هذا الوصف الرائع، وكيف كانت مشاعر جرير وهو يسمع كلمات النبي ﷺ هذه عنه؟!

ب - وعندما قدم عكرمة بن أبي جهل عليه بالأمان بعد هروبه إلى البحر تلقَّاه ﷺ وهو يقول: «**مَرْحَباً بِالرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**»(٢).

فانظر إلى الذوق النبوي في هذه الكلمات التي تصف رجوع عكرمة من الهروب، لقد سمَّاه مهاجراً، إنها كلمة احتفاء وترحيب، لا عتب فيها ولا لوم.

ج- وعندما خرج من مكة بعد عمرة القضاء تبعتهم ابنة عمه حمزة تنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**». وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّى وَأَنَا مِنْك**». وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا**»(٣).

فانظر هذا الذوق الجميل في توزيع هذه الأوصاف الكريمة على كل واحد منهم بحيث نال كل منهم وسام شرف ووصف تكريم.

---

(١) «مسند أحمد» (١٩١٨٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٢٤٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩).

٦- ومن مراعاته الذوق في الألفاظ والكلمات تغييره الأسماء القبيحة إلى أسماء جميلة، فقد غيّر اسم امرأة كانت تسمى عاصية إلى جميلة[١]، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ[٢]، وكأنما كان ﷺ ينقي لغة التخاطب ويرفع ذائقة الجمال فيها.

٧- ومن ذوقه الرفيع مراعاة الأحاسيس والمشاعر على تفاوتها بين الناس، فيزيد من الاحتشام عند الحيي ما لا يحتشم عند غيره حتى لا يُحرج أو يستحيي، ومن ذلك أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشِهِ، لَابِسٌ مِرْطَ عَائِشَةَ، فَأَذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَن عَلَيْهِ عثمان فَجَلَسَ وسوَّى عليه ثيابه، وَقَالَ لِعَائِشَةَ: «**اجْمَعِي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ**». فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ الله مَالِي لَمْ أَرَكَ فَزِعْتَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَمَا فَزِعْتَ لِعُثْمَانَ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ، إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ، أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ**»[٣].

ومن ذلك ما رواه أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ أَنَّهُ طلب النبي ﷺ فوجده فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا[٤] وَكَشَفَ عَنْ ساقيه وَدَلَّاهُمَا فِي البِئْرِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَدَخَلَ ثُمَّ جَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ مَعَهُ

(١) «صحيح مسلم» (٢١٣٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٥٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٠٢).

(٤) قُفّ البئر: هو الدكة التي تجعل حولها. ينظر: «النهاية» (٤/ ٩١).

فِي القُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ جاء عمر فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ، ثم جاء عثمان فَلَمَّا دَخَلَ غَطَّى رَسُولُ الله ﷺ رُكْبَتَيْهِ، فَوَجَدَ عُثْمَانُ القُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنْ الشَّقِّ الآخَرِ(١).

وكل هذا من مراعاة حساسية عثمان وشدة حيائه رضي الله عنه، ولذا قال ﷺ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ؟!**»(٢).

٨- وكما كان ﷺ يتعامل بهذا الذوق الرَّفيع كان يربِّي على مراعاة الذوق في السلوك والتعامل، فقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل عليهم في مسجدهم، وفي يده عرجون(٣) نخل، فرأى نُخامة في قبلة المسجد فغضب وأنكر ذلك وحكها بالعُرْجون الذي في يده، ثُمَّ قَالَ: «**أَرُونِي عَبِيراً**». فقام فتىً من الحيِّ يشتدُّ إلى أهله، فجاء بخَلُوق في راحتيه، فأخذَه رسولُ الله ﷺ فجعلَه على رأس العُرْجون، ولَطَخَ به على أَثَر النُّخامة(٤).

إن هذه تربية للمجتمع على هذه الذوقيات الجميلة، وإزالة ما يشوه جماليات الحياة، ولذلك أزال هو بنفسه النخامة ووضع العطر مكانها، وكأنما يريد أن يمحو أثرها وذكراها.

ومن رعايته للذوق نهيه عن الجشاء في المجالس، فكان يقول لمن

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠١).
(٣) العرجون: هُوَ العُود الأصْفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣).
(٤) «صحيح مسلم» (٣٠٠٨).

تجشأ: «**كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ**»[١]، ونهيه عن فغر الفم عند التثاؤب، وكان يقول عن المتثائب: «**فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ**»[٢]، وأَمره بتغطية الوجه عند العطاس[٣] حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس على من حوله، وينهى عن النفخ في الإناء عند الشرب منه[٤]، لأن الآنية كانت مشتركة، فإذا نفخ كرَّهَه على من بعده، ومن التربية الذوقية أمره بحسن الهيئة في المجامع العامة ومنها يوم الجمعة، ولذا أمر بالاغتسال ليوم الجمعة وأن يمس الرجل من الطيب فيشهد اجتماع الجمعة نظيف البدن والملبس زكي الرائحة فقال ﷺ: «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً**»[٥].

وكل ذلك من التربية على ذوقيات جميلة في السلوك كانت البيئة العربية تتجاوزها حيث كان يغلب على كثير منها الفقر والجفاف والجفاء، فكان النبي ﷺ يُعيد تأهيل الذوق العام ليُراعي جماليات الحياة، وآداب السلوك، واللياقة والرقي في التعامل بهذا الأدب الرفيع والذوق العالي الكريم.

---

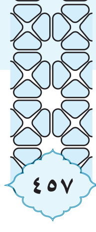
(١) «جامع الترمذي» (٢٦٤٦). والجشاء: هو صوت خروج الريح من الفم لامتلاء المعدة. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٤٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٩٤).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٧٤٥).

(٤) «صحيح البخاري» (١٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧).

(٥) «سنن أبي داود» (٣٤٧).



خلاصات:

١ – كان الذوق النبوي راقياً غاية الرقي، مهذباً غاية التهذيب.

٢– فكان أنيقاً في لباسه، عطراً في رائحته.

٣– ومن ذوقه ابتعاده عن الكلمات الخادشة أو الفاحشة.

٤– ومن ذوقه مراعاة أصحاب المشاعر المرهفة والنفوس الحساسة فيحتشم عند الحيي ويراعي حياءه.

٥– ومن ذوقه وصف أصحابه بالأوصاف الجميلة الرائعة.

٦– وكان يربي على الذوق الاجتماعي، فينهى عن كل ما ينافي الذوق العام، من التصرفات، ليعيد للحياة جماليتها ورقيها.



الرَّسُولُ ﷺ والهَدِيَّة

الهدية رسول الحب ومفتاح القلب، وتقديم الهدية إكرام لمن أهديت له، وقبولها إكرام لمن أهداها، وببذل الهدية تستل الضغائن، وتتوثق الأواصر، وتطيب النفوس، وتفتح مغاليق القلوب، ولذا أمر النبي ﷺ بالتهادي فقال: «**تَهَادَوا تَحَابُّوا**»[(١)]. ونهى عن رد الهدية فقال: «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلَا تَرُدُّوا الهَدِيَّةَ**»[(٢)]، وله ﷺ في الهدية ذوقه وهديه فمن ذلك:

١- قبوله الهدية وإن قلَّت وكانت شيئاً يسيراً، وكان يقول: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ**[(٣)] **لَقَبِلْتُ**»[(٤)]، ولذا كانت تأتيه الهدايا اليسيرة فيقبلها، وقد تكون شربة لبن، أو قرص شعير.

وكان يقبل الهدية من كل أحد، وما كان أحدٌ يتهيب أن يهدي له، وما كان يترفع على أحد أن يقبل هديته، فقد أكل من لحم تصدق به على خادمته

(١) «جامع الترمذي» (٢١٣٠).

(٢) «مسند أحمد» (٣٨٣٨).

(٣) الكراع من الدابة ما دون الكعب، وخص الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الحقير والخطير، لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها، والكراع لا قيمة له. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٨).

بريرة وقال: «**هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ**»[١].

ويا لله كم من البهجة والسرور تملأ قلب الخادمة بريرة حينما تجد نفسها تهدي للرسول ﷺ فيقبل هديتها، ويأكل اللحم منها ويقول: «**هُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ**».

٢- وكما كان يقبل الهدية فقد كان يكافئ عليها قالت عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا[٢].

وأهدى له أعرابي ناقة فأثابه عليها ست بكرات[٣].

وأهدى له ملك أيلة بغلة بيضاء فكساه ﷺ برداً[٤].

وفي تبادل الهدية قبولاً ومكافأة تأكيدٌ للتواصل، وحفاوةٌ وإكرام متبادل.

وكان يقبل الهدية من المسلم، وغير المسلم؛ فقد قبل هدية المقوقس عظيم القبط وكانت حماراً يقال له عفير وجاريتين هما مارية وسيرين[٥]، وقبل هدية ملك أيلة يوحنا بن رؤية وكانت بغلة بيضاء[٦]، وقبل هدية أكيدر دومة وكانت حلة حرير مكفوفة بالذهب[٧]، وعندما افتتح خيبر أهدته يهودية شاة مشوية فقبلها وأكل منها.

٣- وكما كان يقبل الهدية من غير المسلمين، كان يهدي إليهم؛ فقد عُلِمَ

(١) «صحيح البخاري» (١٤٩٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٧٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٨٥).
(٣) «جامع الترمذي» (٣٩٤٥).
(٤) «صحيح البخاري» (١٤٨١)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).
(٥) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).
(٦) «صحيح البخاري» (١٤٨١)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).
(٧) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

من حاله أنه كان يقبل الهدية ويثيب عليها، فأهدى يوحنا بن رؤية ملك أيلة برداً، وفقه الصحابة منه ذلك فكانوا يتهادون مع المشركين ومن ذلك أن النبي ﷺ أعطى عمر حلة إستبرق فأهداها عمر إلى أخ له بمكة مشرك.

لقد كانت حلة إستبرق ثمينة ثم هي هدية الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه ومع ذلك سخت بها نفس عمر رضي الله عنه لمشرك في مكة، لتبقى للعلاقات الإنسانية حيويتها وجميل اتصالها، وكان هذا من البر الذي شرعه الله بين المسلمين ومخالفيهم في الدين بقوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فكان التعامل معهم بالبر ومكارم الأخلاق من الهدي النبوي الكريم، ومن مظاهره الإهداء إليهم، وقبول الهدايا منهم.

٤- ومن ذوقه في الهدية الاحتفاء بها والإشعار بقبولها، فعندما أهدى له أكيدر دومة حلة حرير لبسها وصعد بها المنبر[(١)]، ولا أحسب أنه فعل ذلك إلا ليصل خبر ذلك إلى الأكيدر فيعلم أن النبي ﷺ قد قبل هديته ولبسها.

وأهدت له امرأة بردة قالت: نسجتها لك بيدي. فلبسها وخرج بها إلى أصحابه[(٢)]، ولا أحسب هذه المرأة إلا قد علمت بذلك وسرت بلبسه ما أهدته له.

٥- ومن ذوقه في الهدية أنه إذا ردها لسبب بين ذلك السبب، وطيب قلب مهديها.

فعندما نزل ﷺ الأَبْوَاءَ في طريقه لحجة الوداع أهدى له الصَّعْبُ بن

(١) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٧٧).

جَثَّامة رضي الله عنه لحم صيد، وكان عَجُزَ[١] حمار وحش يقطرُ دماً، فردَّه ﷺ، فلما رأى في وجهه كراهية رد هديته قال له معتذراً مؤانساً: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ كرَاهِيَةً لَهُ، ولَكِنَّا حُرُمٌ لَا نَأْكُلُ الصَيْدَ، وَلَوْلَا أنَّا مُحْرِمُونَ لَقَبِلْنَاهُ مِنْكَ**»[٢].

إنه مشهد غاية في التلطُّف؛ حيث قرأ ﷺ مشاعره النفسية، وسارع إلى بيان السبب الذي جعله يرد هديته، ولم يترك مشاعره نهباً لاحتمالات مؤلمة، ثم طيَّب قلبه فأخبره بأنه سيقبل هذه الهدية لو كان غير مُحرم، فصلوات الله على مَن وصفه ربه فقال: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

٦- وأما هداياه ﷺ إذا أهدى فهي الهدايا الكريمة الجزلة يرسلها بسخاوة نفس يستطيب بها النفوس، ويتألف بها القلوب، ويكرم بها الأصحاب، أرسل له علي رضي الله عنه بذهبة من اليمن فقسمها بين أربعة من زعامات العرب، الأقرع بن حابس الحنظلي، وعيينة بن بدر الفزاري، وعلقمة بن علاثة العامري، وزيد الخير الطائي، فعتب عليه بعض قريش والأنصار فقال: «**إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لأَتَأَلَّفَهُمْ**»[٣].

وجاءته حلل حرير فأعطى أسامة بن زيد منها حلة، وأعطى عمر رضي الله عنه منها حلة، وأعطى علي بن أبي طالب منها حلة[٤]، ولما أرسل إليه المقوقس بجاريتين مارية وسيرين تسرى بمارية، وأهدى سيرين إلى حسان بن ثابت[٥].

---

(١) العجز: مؤخر الحمار، وكان رجله. ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٥) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ٣٢٢).

٧- وكما كان يقبل الهدية وإن قلَّت، فإنه كان يهدي الهدية وإن قلَّت، قال أنس: أُهدي إلى النبي ﷺ تمرٌ فأخذ يُهديه ها هنا وها هنا[١].

والهدية وإن قلَّت إلا أنها رسالة حب وتطييب خاطر وبخاصة إذا جاءت في حالة تحتاج إلى مثل ذلك، ومن ذلك ما حدَّث به أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ». فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئاً إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالاَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، أَفَلاَ نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا[٢] هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا[٣].

لقد أزال النبي ﷺ بهذه الهدية اليسيرة هاجس الغضب والموجدة التي ظن أصحابه أنه وجدها على أسيد وعباد، ولا أحسب إلا أن فرحتهما بهديته وسعادتهما بدعوتهما إليها غامرة؛ فهي رسالة اختصاص بالحب، وعلامة على طيب قلبه لهما وأنه لا عتب ولا موجدة ولا غضب عليهما، وتحمل كل هذه المعاني الجميلة الدعوة إلى هدية يسيرة هي شربة لبن يشركهما فيها.

---

(١) «مسند الدارمي» (٦٥١).

(٢) فاستقبلهما هدية: أي: جاءت مقابلة لهما في حال خروجهما من عند رسول الله ﷺ فصادف خروجهما مجيء الهدية مقابلة لهما. ينظر: «عون المعبود» للعظيم آبادي (١/ ١٠٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٣٠٢).

وهكذا كانت الهدايا النبوية تأليفاً للقلوب، وتطييباً للنفوس، وتوثيقاً للأواصر، وإفشاء للمكارم.

وكان هدي النبي ﷺ في الهدية قبولاً وبذلاً من مظاهر ذوقه الرفيع، وخلقه العظيم، ويا لله كم من الإسعاد والبهجة والسرور زخرت به نفوس أولئك الكرام الذين أهدوا للنبي ﷺ فسعدوا بقبوله هداياهم واحتفائه بها.

وسعادة أولئك الذين تلقوا هدايا النبي ﷺ فشعروا بسعادة اختصاصه لهم بها، وذكره إياهم بهذه الهدايا الكريمة، فكأنما الهدايا منه وإليه ﷺ طيور حب تطير بين قلوبهم وقلبه الكبير الكريم.

خلاصات:

١- كان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها.

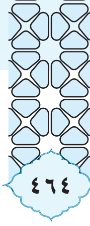
٢- كان يقبل الهدية وإن كانت شيئاً يسيراً ويقول: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**».

٣- كان يقبل الهدية من غير المسلمين ويهدي إليهم.

٤- إذا رد الهدية لسبب، بيَّنَ ذلك السبب وطيَّبَ قلب مهديها.

٥- كان هدي النبي ﷺ في الهدية قبولاً وبذلاً من مظاهر ذوقه الرفيع وخلقه العظيم.





الرَّسولُ ﷺ ورعايةُ المشاعر



لما نزل ﷺ الأَبْوَاءَ في طريقه إلى حجة الوداع أهدى له الصَّعْبُ بن جَثَّامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحم صيد، وكان عجز[1] حمار وحش يقطرُ دماً، فردَّه ﷺ، فلما رأى في وجهه كراهية رد هديته قال له معتذراً مؤانساً: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ كَرَاهِيَةً لَهُ، ولَكِنَّا حُرُمٌ لَا نَأْكُلُ الصَيْدَ، وَلَوْلَا أَنَّا مُحْرِمُونَ لَقَبِلْنَاهُ مِنْكَ**»[2].

إنه مشهد غاية في التلطُّف؛ حيث قرأ ﷺ مشاعره النفسية، وسارع إلى بيان السبب الذي جعله يرد هديته، ولم يترك مشاعره نهباً لاحتمالات مؤلمة، ثم طيَّب قلبه فأخبره بأنه سيقبل هذه الهدية لو كان غير مُحرم، فصلوات الله على مَن وصفه ربه فقال: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ولما دخل ﷺ مكة عام الفتح بجيشه كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة سيد الخزرج فمرَّ بأبي سفيان سيد قريش فقال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستباح الكعبة، فجزع أبو سفيان وذهب إلى النبي ﷺ يشكو إليه

(١) العجز: مؤخر الحمار، وكان رجله. ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

ما قاله سعد، فقال ﷺ: بل هو يوم تعظم فيه الكعبة، ثم نزع الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد[(١)] وبهذا راعى النبي ﷺ مشاعر قريش وقائدها أبي سفيان حيث لم يقر سعداً على كلمته الجارحة لمشاعر قريش ونزع الراية منه، ولم يثر الأنصار وزعيمهم سعد الذي نزعت الراية منه لأنها دفعت لابنه فهي لم تخرج عنه.

وكأنا بالمشهد نراه وأبو سفيان يرى أنه قد أُخِذَ برأيه وحُفِظ لقريش مكانتها، وسعد بن عبادة يعيش زهو إكرام النبي ﷺ لابنه ولا يشعر أن الراية خرجت منه، ومن طبيعة الإنسان ألا يحب أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه، فعالج النبي ﷺ الموقف في لحظة توتر، وحال دون مواجهة محتملة بين الأنصار وقريش، وحافظ على مشاعر الجميع ومكانتهم، وهي براعة بالغة في رعاية المشاعر النفسية.

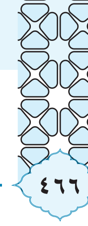
ومن مراعاته للمشاعر رفع معنويات الجيش إذا لم يتحقق هدفهم، وتسمية الانسحاب الذي قد يسمى فراراً وهزيمة بالكُرّار والعَكّارين، كما في حديث ابن عمر قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاخْتَبَأْنَا بِهَا وَقُلْنَا: هَلَكْنَا، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، نَحْنُ الفَرَّارُونَ، قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ، وَأَنَا فِئَتُكُمْ**»[(٢)].

ومثله لما رجع خالد بجيش المسلمين من مؤتة فقال بعض الناس:

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٦٤٧)، و«جامع الترمذي» (١٧١٦). وَقَوْله: فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، يَعْنِي: أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنَ القِتَالِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ». وَالعَكَّارُ: الَّذِي يَفِرُّ إِلَى إِمَامِهِ لِيَنْصُرَهُ لَيْسَ يُرِيدُ الفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ.



فررتم يا فُرّار فقال ﷺ: «**لَيْسُوا بِالفُرَّارِ، وَلَكِنَّهُمُ الكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[١]، وفي ذلك محافظة على معنوياتهم ورعايةٌ لمشاعرهم ومد لأفق المواجهة وأن هذه النتيجة ليست النهائية بل سيعقبها كرة ومواجهة أخرى ونصر موعود.

وعندما خرج النبي ﷺ من مكة عام عمرة القضاء وتبعته ابنة عمه حمزة وكانت جارية تسعى وتنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهْيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**». وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْك**». وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا**»[٢].

فانظر هذه البراعة في رعاية المشاعر عند معالجة الموقف حيث قضى بها لخالتها ولم يقل لجعفر حتى يظهر أن المراعاة لطرف خارجي غير الثلاثة المتنازعين، وهي خالتها أسماء زوجة جعفر، وقال: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**».

ثم وزَّع عليهم هذه الأوسمة الرفيعة التي تشعر كلا منهم أن له حَظوتُه وقدرُه، فلا يشعر أحد منهم أنه أدنى منزلة أو أقل قدراً إذ لم يقض له بما طلب، وهي براعة أخرى في رعاية المشاعر النفسية.

وإذا بدرت منه بادرة يمكن أن تفهم فهما يشعر بالمعتبة والغضب فإنه لا يدع صاحبها لظنون الغضب والعتاب ولكن سرعان ما يتبعها بما يصحح التصور ويشعر الصاحب بمكانه ومكانته وطيب النفس عليه.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٤/ ٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩).

ففي معركة حنين زَحَم رجل رَسُولَ الله ﷺ وَفِي رِجْلِه نَعْلٌ كَثِيفَةٌ، فَوَطِأ بِهَا عَلَى رِجْلِ رَسُولِ الله ﷺ فَنَفَحه نَفْحَةً بِسَوْطٍ فِي يَدِهِ، وَقَالَ: «**بِسْمِ الله أَوْجَعْتَنِي**». قَالَ: فَبِتُّ لِنَفْسِي لائِماً أَقُولُ: أَوْجَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ. قَالَ: فَبِتُّ بِلَيْلَةٍ كَمَا يَعْلَمُ اللهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: أَيْنَ فُلانٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَالله الَّذِي كَانَ مِنِّي بِالأَمْسِ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مُتَخَوِّفٌ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّكَ وَطِئْتَ بِنَعْلِكَ عَلَى رِجْلِي بِالأَمْسِ فَأَوْجَعْتَنِي، فَنَفَحْتُكَ نَفْحَةً بِالسَّوْطِ، فَهَذِهِ ثَمَانُونَ نَعْجَةً فَخُذْهَا بِهَا**»[١].

فانظر لطف التصرف النبوي واحتواء المعتبة، مع أن ذاك تصرف انفعالي معتاد يصدر من الإنسان إذا فاجأه ما يؤلمه، ومع ذلك يعتني ﷺ برعاية مشاعر ذاك الرجل وتطييب نفسه حتى لا يظن أن النبي ﷺ عاتب عليه.

وكان لشدة رعايته مشاعر من حوله إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا**»[٢].

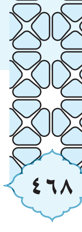
ولم يكن يواجه أحداً بما يكره، وكان إذا كره شيئا عرفه أصحابه في وجهه.

وكان أسعد الناس برعايته ومراعاته لمشاعرهم، فكان خير الناس للناس وخيرهم لأهله، فكانت رعايته لمشاعر أزواجه غاية في الذوق والرفق، ومن ذلك ما حدثت به أم سلمة رضي الله عنها: أنها كانت مع النبي ﷺ في فراشه فحاضت، قالت: فانسللت من فراشي ولبست ثياب حيضتي ثم جئته فقال: «**مَا لَكِ أَنَفِسْتِ؟**». قالت: نعم فاستدناني وألقى علي الخميصة[٣].

(١) «سنن الدارمي» (٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٠١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦).



إن هذا العارض النسائي لامرأة كانت تنتظر زوجها ثمانية أيام حتى إذا أتاها ودخلت في فراشه فاجأها موعدها مما يسبب لها حرجاً وانكساراً نفسيّاً، فلم يتركها النبي ﷺ لمشاعرها هذه وإنما أشعرها بالقرب والاهتمام فأدناها إليه وألحفها الكساء وأشعرها بالمودة والاحتفاء، وكل ذلك رعاية للمشاعر وإشعارٌ بالاهتمام.

وفي حجة الوداع وعندما تهيّأ ﷺ للنفر من مكة ليطوف طواف الوداع قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسولَ الله، يرجع الناسُ بعمرة وحجة، وأرجع أنا بحجة؟! تشير إلى أنها لم تأتِ بعمرة مستقلة قبل حجها، كما صنع بقية أزواج النبي ﷺ، وإنما كانت قارنة بسبب حيضتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**يَسَعُكِ طَوافُكِ بِالبيتِ لِحَجِّكِ وعُمْرَتِكِ**». فأبتْ، وقالت: يا رسولَ الله، ينطلق الناسُ بحج وعمرة وأنطلق بحج، ويرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر واحد؟!. قال: «**إنَّ لكِ مِثْلَ مَا لَهُمْ**». قالت: إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت. وكان رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت شيئاً تابعها عليه، فدعا أخاها عبد الرحمن، فقال: «**أُخرُجْ بِأُخْتِكَ إلى التَّنْعِيمِ، فَإذَا هَبَطْتَ مِنَ الأَكَمَةِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، فَإنَّها عُمرةٌ مُتَقبَّلة، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُما، أَنْتَظِرُكُما هَا هُنا**»(١).

فانظر هذه الرعاية لمشاعر زوجته عائشة وتخيل المشهد، فبعد سفر شاق، وعند التهيؤ للرحيل تقول له: أرجع أنا بحجة؟ وتطلب أن تأتي بعمرة مفردة، ومع أنه بيَّن لها وأفتاها وهو المبلغ عن الله دينه إلا أن نفسها لم تطب، وبقيت متشوفة لأداء العمرة فتابعها على ذلك حتى تطيب نفسها

(١) «صحيح البخاري» (١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

ولا تشعر أن غيرها حَصَّل ما لم تُحَصِّله، وانتظرها حتى تفرغ من ذلك.

يا لله كيف يملك هذه السهولة الأخلاقية والمراعاة للمشاعر النفسية في هذا الظرف الذي غالباً ما يكون الناس فيه على حال من التوتر وضيق الخلق وقلة الصبر.

ومع ذلك لم يرد النبي ﷺ طلبها، ولم يجرح مشاعرها، وإنما أبلغها مرادها واستوعب رغبتها، وتابعها على ما هويت.

وكما كان له ﷺ براعته في رعاية المشاعر فقد كان ينهى عن جرح المشاعر وإيلامها، ومن ذلك نهيه عن تناجي اثنين دون الثالث؛ لأن ذلك يؤذي مشاعره، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**»[١]، ومن ذلك نهيه عن احتقار أحدٍ أو ازدرائه قال ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا** ـ وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[٢]، والاحتقار إيذاء للمشاعر وانتقاص للشخصية، وغضب ﷺ على أبي ذر عندما عيَّر رجلاً بأمه وقال: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». وتعيير أحد بأمه اعتداء على مشاعره وتقصدٌ له بالإيذاء وفيه نعرة جاهلية من الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب.

ونهى عن التفاخر المشعر بالتعالي على الآخرين فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى**

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[(١)].

وكل ذلك مما يحفظ المشاعر الاجتماعية أن تُخدش والقلوب أن تُوحش، ويحفظ وئام المجتمع ووداده وسلامه.

فصلوات الله وسلامه على أعظم الخلق خلقاً.

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ حساسية مرهفة في مراقبة المشاعر، وبراعة بالغة في رعايتها.

٢- إذا بدرت منه بادرة يمكن أن تفهم بما يجرح أو يحرج فإنه يسارع إلى تصحيح هذا التصور، ويشعر من يعامله بمكانه ومكانته وطيب نفسه عليه.

٣- لم يكن يواجه أحداً بما يكره، وإذا كره شيئا عرف في وجهه.

٤- كان أسعد الناس برعايته لمشاعرهم هم أهله، فكان خير الناس للناس وخيرهم لأهله.

٥- وكما كان له براعته في رعاية المشاعر فقد أمر بحماية المشاعر من الإيذاء ونهى عن كل ما يَخدشها أو يوحشها كالتفاخر والتنابز واحتقار الآخرين.



(١) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

الرَّسُولُ ﷺ ومفاتح القلوب

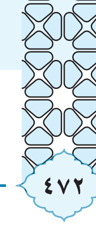
كان من مظاهر عظمة الخُلُق النبوي ذاك الاقتدار على احتواء القلوب، والبراعة في إسعاد من حوله، والتحبب إليهم حتى ملأ حبه فجاج نفوسهم، وله طرائق مأنوسة في فتح أغاليق القلوب واستنبات الود فيها، فمن ذلك:

أولاً: الابتسامة، فكان محيا رسول الله ﷺ طلقاً مشرقاً بابتسامة عذبة رضيَّة، فيتبسَّم في وجه كل مَن يلقاه، وكانت الابتسامة النبوية تضج برسائل الود والمحبة والخصوصية، بحيث يشعر كل من يتبسَّم النبي ﷺ في وجهه كأنما هي ابتسامة مدخرة له.

يقول جرير بن عبد الله البجلي: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي[1]، لقد كان رسول الله ﷺ يتبسَّم في وجه كل من يلقاه لكن جريراً شعر أن هذه الابتسامة رسالة خاصة له، لأن تلك الابتسامة كانت محمَّلة برسائل المودة والمحبة والاهتمام، فأحسَّ جرير أن هذه المعاملة خاصة له مع أن النبي ﷺ كان يتبسّم في وجه كل من يلقاه.

وعن خالد بن الوليد قال: لَمَّا أَرَادَ اللهُ بِي مَا أَرَادَ مِنَ الخَيْرِ، قَذَفَ فِي قَلْبِي الإِسْلاَمَ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي، فَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ المَوَاطِنَ كُلَّهَا

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).



عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَيْسَ فِي مَوْطِنٍ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مَوْضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، فَأَجْمَعْتُ الخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأُخْبِرَ بِي وسُرَّ بذلك، فَلَبِسْتُ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَقِيَنِي أَخِي، فَقَالَ: أَسْرِعْ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِك، فَسُرَّ بِقُدُومِك، وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ. فَأَسْرَعْنَا المَشْيَ، فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ الله. فَقَالَ: «**تَعَالَ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ المَوَاطِنِ عَلَيْكَ مُعَانِداً لِلْحَقِّ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ**»[(١)].

كانت الابتسامة النبوية مفتاحاً يفتح أغاليق القلوب وعلَّمنا أن الابتسامة معروف وإحسانٌ فقال: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(٢)].

فقوله: «**بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»، معناه أن الوجه كله يبتسم وليست الابتسامة مسجونة في شفتيك، ولكن تشرق من كل محيَّاك، فتشع من عينيك، وتفتر من ثغرك، وتتراقص على وجنتيك، وتقول كل ملامح وجهك: أهلاً وسهلاً ومرحباً إني أحبك.

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٢٦).

ثانياً: الإشعار بالأهمية، فكان ﷺ يشعر كل أحد بمكانته وأهميته وحظوته حتى ليظن أنه آثر لديه من كل من حوله، ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يخطب يوماً على المنبر، وأصحابه جلوس وجوههم مقبلة إليه، وفي هذه الأثناء دخل من باب المسجد الشمالي جرير بن عبد الله البجلي فما هو إلا أن دخل حتى التفت الناس كلهم ينظرون إليه، وشعر أن هذا الالتفات الجماعي له سبب محفز فسأل الذي بجانبه وقال: هل ذكرني رسول الله قبل أن أدخل؟ قال: نعم، قال: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا البَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَك**»[(١)]، وكان جرير وسيماً وضيئاً، ولك أن تتخيل أثر هذه الكلمة في نفس جرير ومشاعره وهو يسمعها ويرى أثرها.

ولما أسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه شعر بأهميته عند رسول الله ﷺ، حيث كان النبي ﷺ يُسرّب إليه رسائل تشعره بالأهمية، حتى شعر أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، مع أنه أسلم سنة سبع من الهجرة، بعد عشرين سنة من بعثة النبي ﷺ ومع ذلك ظن أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولذلك سأل النبي ﷺ قائلاً: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ وكان يسأل هذا السؤال وهو يحسب أن النبي ﷺ سيقول له على الفور: أنت، وذلك لكثرة ما وصل إليه من رسائل الأهمية، أما الجواب النبوي فجاء سريعاً: «**عَائِشَةُ**». فقال عمرو: وِمَنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «**أَبُوهَا**». قال: ثم من؟ قال: «**عُمَرُ**»[(٢)].

ما الذي دفع عَمْراً أن يسأل هذا السؤال؟ إنه إشعار النبي ﷺ له بالأهمية حتى ظن أنه الأحب لديه، وله ﷺ في الإشعار بالأهمية فنون متنوعة،

(١) «مسند أحمد» (١٩١٨٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٢٤٤).

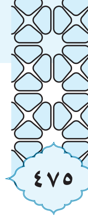
(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).

منها: مشهد كعب بن مالك عندما أتى إلى النبي ﷺ مع قومه ـ وهو شاب في قرابة العشرين من عمره ـ ليُبايع النبي ﷺ بيعة العقبة، فكان الذي يُعرِّف بهم رسول الله ﷺ هو عمه العباس بن عبد المطلب فيقول: هذا فلان وهذا فلان، فلما قال: هذا كعب بن مالك، قال النبي ﷺ: «**الشَاعِرُ؟**». إن كلمة «**الشَاعِر**» التي قالها النبي ﷺ هي رسالة تقول: لقد سمعت به، وسمعت شعره، هذا رجل معروف، لقد أوصل ﷺ من خلال هذه الكلمة رسائل عديدة إلى كعب بن مالك تشعره بأهميته عند النبي ﷺ، ولذلك ظل صدى هذه الكلمة يرن في أذن كعب بن مالك حتى قال بعد أن كبر: فلا أنسى قول رسول الله ﷺ: «**الشَاعِرُ**»[1].

ثالثاً: الاهتمام بهموم أصحابه فيشعر كل شخص أن همومك تهمني، ومشاغلك تشغلني، وقضاياك قضايا عندي، وهذه تحمل رسالة ضخمة من الإشعار بالرعاية والخصوصية والحب.

ومثال ذلك: خبر جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما؛ الذي توفي أبوه شهيداً في معركة أحد، وترك تسع بنات وولداً هو جابر، فتزوج جابر ثم سار مع النبي ﷺ في غزوة، وفي طريق الرجوع انقطع جمل جابر وضعف سيره وصار آخر جمل في القافلة، ثم ابتعد الجيش عنه واحتار جابر حتى همّ أن يترك الجمل ويتبع الجيش ماشياً، وبينما هو يعزم على اتخاذ هذا القرار إذا هو يسمع صوتاً من خلفه يقول: «**جَابِر**». فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ يتخلَّف أحياناً في أخريات الجيش؛ حتى يعين المنقطع ويدرك المتخلف، قال: نعم؛ لبيك يا رسول الله، قال: «**مَا لَكَ؟**». قال: يا

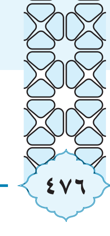
(١) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).



رسول الله جملي انقطع وأُعيي، وكان مع النبي ﷺ عصا فنخس النبي ﷺ الجمل بها فانطلق الجمل، وإذا جابر الذي كان يحاول أن يجرجر الجمل حتى يسير إذا به يحاول أن يكف الجمل حتى لا يندفع ويسبق النبي ﷺ، وصار جابر في هذا الفضاء يسير ليس معه إلا رسول الله ﷺ، وفي سكون الصحراء وهدوء الليل وهذان الراكبان يسيران؛ وإذا نبيك ﷺ يسأل جابراً ويقول: «**تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ؟**». قال: نعم يا رسول الله، قال: «**بِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟**». قال: بل ثيباً، قال: «**أَفَلَا تَزَوَّجْتَ بِكْراً تُلَاعِبُكَ وَتُلَاعِبُهَا؟**». قال: يا رسول الله إن أبي استشهد وترك تسع بنات فكرهت أن أضم إليهن فتاة صغيرة مثلهن، فأردت أن أتزوج امرأة قد جربت حتى تقوم عليهن جميعاً، فأُعجب النبي ﷺ برجاحة عقله وقال له: «**أَحْسَنْتَ بَارَكَ اللهُ لَكَ**». ثم قال: «**يَا جَابِرُ إِذَا اقْتَرَبْنَا مِنَ المَدِينَةِ كَأَنِّي بِامْرَأَتِكَ تَنْفضُ نَمَارِقَهَا**». قال: يا رسول الله ليس عندنا نمارق، فقال له النبي ﷺ: «**أَمَّا إِنَّهُ سَتَكُونُ لَكُمْ نَمَارِق**»(١). يا ترى ما شعور جابر وهو يسير مع النبي ﷺ والرسول يسأله عن أخص خصوصياته عن زواجه وزوجته، ويُشعره بالاهتمام بهمومه، إنني أتخيل جابراً حينها وكأنه يسير في أفق عالٍ بين السماء والأرض، نشوة وسعادة وبهجة أنه من رسول الله ﷺ بهذه المكانة، حتى إنه يسأله عن زوجته وحاله في زواجه.

إن أشد القلوب قساوة تفقد مقاومتها أمام هذا المفتاح، أشْعِر كل إنسان بأنك تهتم بالشيء الذي يهتم به تفتح أغاليق قلبه، ولذلك نرى الذين استخدموا هذا الأسلوب النبوي ببراعة كيف أثروا في النفوس.

(١) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦).



ومثل ذلك: سؤال النبي ﷺ للأشعث بن قيس الكندي عندما أتى إليه فقال له: «**يَا أَشْعَث، أَلَكَ وَلَدٌ؟**». فقال: غُلَامٌ وُلِدَ لِي فِي مَخْرَجِي إِلَيْكَ مِنَ ابْنَةِ جَمْدٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ مَكَانَهُ شِبَعُ القَوْمِ، قَالَ: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْراً إِذَا قُبِضُوا، ثُمَّ لَئِنْ قُلْتَ ذَاكَ، إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ، إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ**»[(١)].

لكن ما شعور الأشعث بن قيس يوم سأله النبي ﷺ ألك ولد؟ وكأني به يقول: لقد تعدى اهتمامه بي إلى اهتمامه بأبنائي؛ لأن النبي ﷺ بسؤاله ذلك اقترب من المنطقة الأثيرة لدى كل إنسان، وهي أن يتحدث عن محبوباته وأحبها ولده.

إن من مفاتيح القلوب أن تهتم بما يهتم به من تلقاه، أولاده، عمله، إنجازاته، همومه، فأحب حديث يتحدَّث به الإنسان هو أن يتحدث عن نفسه.

رابعاً: اللمسات العاطفية، وكان للنبي ﷺ لمساته العاطفية التي بقي أصحابه يذكرونها وكأنهم لا زالوا يجدون لذتها ونشوتها، من ذلك خبر الشاب الذي أتى إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فقال له النبي ﷺ: «**ادْنُهْ**». فَدَنَا حتى صار في متناول يد النبي ﷺ ثم سأله: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**». قَالَ لَا وَالله، جَعَلَنِي اللهُ

(١) «مسند أحمد» (٢١٨٤٠).

فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ**». ثم مدَّ النبي ﷺ يده المباركة الشريفة حتى أفضى بها إلى صدر الشاب فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ حتى وجد هذا الشاب برد يد النبي ﷺ على صدره، فبماذا كان يشعر ذاك الشاب والنبي ﷺ يضع كفه الكريمة على صدره ويقربه هذا القرب منه؟ ثم قال النبي ﷺ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»(١). لقد كان يمكن أن يدعو له النبي ﷺ من دون أن يضع يده على صدره لكن لهذه اللمسة النبوية الحانية على صدر هذا الشاب أثرها، فأشعرته بالقرب والعاطفة الحانية من النبي ﷺ، وأن سؤاله ذاك لم يبعده عن النبي ﷺ ولم يوحشه منه، لقد غسلت هذه اللمسة من صدره وقلبه كل هَمٍّ بالفحشاء بعد ذلك، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ من ذلك بعد.

وهنا نتساءل: هل ظل ذلك الشاب يقارن بين الحنان النبوي واللمسة العاطفية النبوية وبين الزجر الذي تعرض له ممن كانوا حوله؟

إنها لمسات عاطفية حانية يسرّب نبيك ﷺ من خلالها رسائل الحب والاهتمام، فاللمسة الحانية مفتاح من مفاتيح القلوب.

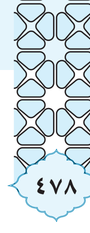
خامساً: وكان النبي ﷺ يفتح أغاليق القلوب بأن يهتم بالكبار عن طريق الاهتمام بالصغار، فيُشعر الكبار بالحب من خلال حب صغارهم.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنْتُ عَلَى بَكْرٍ صَعْبٍ(٢) لِعُمَرَ، فَكَانَ يَغْلِبُنِي، فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ القَوْمِ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، ثُمَّ

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٢١١).

(٢) هو البعير الفتي الشديد. ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٥٩١).



يَتقَدَّمُ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «**بِعْنِيهِ**». قَالَ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**بِعْنِيهِ**». فَبَاعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ**»(١).

ولك أن تتخيل شعور عمر وهو يرى عطف النبي على ابنه يغلب عطفه، ويرى مكانة ابنه من النبي ﷺ واهتمامه به.

إن الاهتمام بالصغار يفتح أغاليق قلوب الكبار، ولذلك قال ذو الأصبع العدواني، أحد سادة العرب وهو يوصي أبناءه: أكرموا صغارهم يكرمكم كبارهم، وينشأ على محبتكم صغارهم.

ولذلك فإنك تجد حفاوة النبي ﷺ بصغار أصحابه وأطفالهم متكاثرة في السنة تغني كثرتها عن تعدادها كحديث: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»(٢)، وخبر كساء أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص(٣)، وقصة عبد الله بن أبي طلحة(٤) وغيرها، وفي كل مشهد منها معالم نبوية هادية في التعامل مع الصغار وإسعاد الكبار.

سادساً: ومن مفاتح القلوب الهبات السخية التي كان ﷺ يتألف بها القلوب فيعطفها إليه بعد نفارها، ويشعرهم بالقرب والرعاية، فأعطى من الخمس المئات من الإبل لأبي سفيان بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية، ولصفوان بن أُمَيَّة وعُيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، كما أعطى الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى

(١) «صحيح البخاري» (٢١١٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).

ابن أبي قيس، والعلاء بن جارية الثقفي، ومالك بن عوف النصري، ومخرمة ابن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، وسعيد بن يربوع بن عنكشة بن عامر بن مخزوم السهمي، وغيرهم من الزعماء.

وكان لهذا أثره في الاحتواء وجبر القلوب وتأليفها ولذا قال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول ﷺ يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي[1].

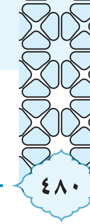
وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنماً بَيْنَ جَبلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا[2].

سابعاً: ومن مفاتح القلوب الثناء الحسن على من يستحقه، وقد كان ﷺ يستخدم الثناء إسعاداً لمن يثني عليه وتأكيداً لفضله ورفعاً من شأنه، وفي ذلك تحفيز للخير وتثبيت عليه، ومن ذلك قوله لأشج عبد القيس لما وفد عليه عبد القيس كما في حديث زارعٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ فِي وَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ، جَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ نَلْبَسْ إِلَّا ثِيَابَ سَفَرِنَا، وَانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأَشَجّ فَعَقَلَ رَكَائِبَ أَصْحَابِهِ وَبَعِيرَهُ ثُمَّ أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ ـ وَذَلِكَ بِعَيْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ـ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ**».

---

(١) «سنن الترمذي» (٦٦٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٢).



قَالَ: مَا هُمَا؟ قَالَ: «**الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**». وفي رواية: «**الحِلْمُ وَالحَيَاءُ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «**بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**». فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا[١].

وقال عن زيد الخير الطائي لما وفد عليه: «**مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ إِلا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا ذُكِرَ لِي إِلا مَا كَانَ مِنْ زَيْدٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلَّ مَا فِيهِ!**»[٢].

وعندما جاءه خالد بن الوليد مسلماً قال له: «**قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[٣].

وعندما أسلم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه وكان يهجوه من قبل ذلك ويعاديه قال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونَ خَلَفاً مِنْ حَمْزَةَ**»[٤].

هذه بعض مفاتيح القلوب وثَمَّ غيرها في كتب السنة النبوية، ويوجد قريب منها في بعض كتب العلاقات العامة وفنون التواصل مع الآخرين، لكننا عندما نطبق هذه الأساليب النبوية فإننا نشعر أننا نؤدي عبادة لله ﷻ؛ لأننا نشعر أن إسعاد الآخرين قربة نتقرب بها إلى الله، وأن الخُلُق الحسن هو أثقل شيء في ميزان العبد، فنشيع هذه المشاعر كشعائر تعبدية، لا كمهارات تواصلية، فإسعاد القلوب من شعائر الإسلام، وخلق من أخلاق المصطفى وهديه وهداه.

(١) «صحيح مسلم» (١٧).
(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٣).
(٣) «الطبقات الكبرى» (٤/ ٢٥٢).
(٤) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٠٦).

خلاصات:

من مفاتح القلوب النبوية:

١- التلقي بالابتسامة المشرقة المشعة، والمشعرة بالود والخصوصية.

٢- إشعار كل أحد بأهميته وقدره.

٣- الاهتمام بهموم أصحابه، وإشعار كل منهم بالمشاركة فيما يهمه.

٤- اللمسات العاطفية المؤنسة.

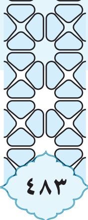
٥- الحفاوة بالصغار والاهتمام بهم، وفي ذلك إسعاد لهم ولآبائهم وأهلهم.

٦- تألف القلوب بالعطايا الكريمة والهبات السخية.

٧- تألف القلوب بالثناء الحسن الذي يحفز للخير ويثبت عليه.







فهرس الموضوعات

إهداء ٥

شكر ودعاء ٧

مقدِّمة ٩

مسار الكتاب ١٣

الباب الأول: طلائع الكتاب ١٧

المسيرة مع السيرة ١٩

خصائص السيرة النبوية ٢٥

ثمرات قراءة السيرة ٣٩

الوجه النبوي ٤٨

الباب الثاني: الرسول ﷺ وعلاقاته ٥٥

الرسول ﷺ وأمه ٥٧

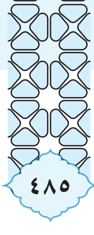
الرسول ﷺ زوجاً ٦٥

حديثه مع أهله ٨٦

الرسول ﷺ أباً ٩٣

الرسول وإخوانه عليهم السلام ١٠٨

الرسول ﷺ صَدِيقاً ١٢١
الرسول ﷺ والمرأة ١٣٠
الرسول ﷺ والخدم ١٥٠
الرسول ﷺ والأطفال ١٥٨
الرسول ﷺ والشباب ١٦٩
الرسول ﷺ وأهل الصفّة ١٨١
الرسول ﷺ والضيافة ١٩٢
الرسول ﷺ ضيفاً ١٩٩
الرسول ﷺ وأصحابه ٢٠٨
الرسول ﷺ والخاطئون ٢٢٤
الرسول ﷺ والمخالفون ٢٣٣
الرسول ﷺ والأعداء ٢٥٧
الرسول ﷺ والمنافقون ٢٦٧
الرسول ﷺ وعالم الجن ٢٨٠
الباب الثالث: الرسول ﷺ وعبادته ٢٩١
الدعاء النبوي ٢٩٣
الاستغفار النبوي ٣٠٢
الرسول ﷺ وقيام الليل ٣٠٨
الرسول ﷺ والقرآن ٣١٥
الرسول ﷺ والجمعة ٣٢٣
الرسول ﷺ ورمضان ٣٣٤
الرسول ﷺ والعيد ٣٤٦
الرسول ﷺ والحج ٣٥٥



الباب الرابع: الرسول ﷺ وعالم المشاعر ٣٦٩

الرسول ﷺ وعافيته النفسية ٣٧١

الرسول ﷺ والمزاح ٣٧٦

الرسول ﷺ واللهو ٣٨٣

بسمات الرسول ﷺ ٣٩٢

الرسول ﷺ والشجاعة.. ٣٩٩

الرسول ﷺ والبكاء... ٤١٠

الرسول ﷺ والحزن... ٤١٧

الرسول ﷺ والحب ٤٢٣

الرسول ﷺ والغضب.. ٤٣٣

الرسول ﷺ والجمال.. ٤٤٣

الرسول ﷺ والذوق ٤٥٠

الرسول ﷺ والهدية ٤٥٨

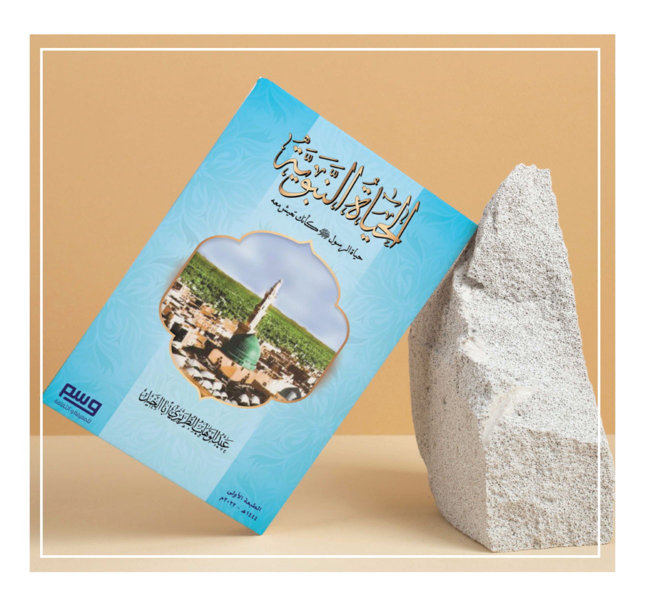
الرسول ﷺ ورعاية المشاعر.. ٤٦٤

الرسول ﷺ ومفاتيح القلوب.. ٤٧١

فهرس الموضوعات ٤٨٣







لئـن كان النـبي ﷺ قد لحـق بالرفيق الأعلـى، فقد ظل - بسـيرته المحفوظـة الواضحة المشـرقة - حاضـرا في وجدان أمته كأنما تتراءاه رأي عين، فهي تعرف عنه تفاصيل حياته، ودقائق أحواله، تعرف ملامح وجهه، وخطوات مشيه، وكلامه إذا تكلـم، وتلاوتـه إذا قرأ، وصلاته إذا صلـى، تعرف لباسه الـذي يلبسـه، وطعامه الـذي يأكلـه، وبيته الذي يسـكنه، وتعرف عشرته مع أصحابه، وأنسه مع زوجاته، وحاله في كل شأنه، حتى كأنما هو حيٌّ يعيش بيننا.

وقد سـبق أن جمعت كتيباً عن البرنامج اليومي لنبينا ﷺ، ومـا الذي يعملـه في يومه من الصباح إلى الصباح، بعنوان: «اليـوم النبـوي»، فرأيـت تتميمـاً لذلـك جمع كتـاب يقدم «الحيـاة النبوية» بامتدادها وسـعتها وتنوعهـا، وينظر إليها مـن زواياها المتعددة، ويروي من أحواله وهديه ما يشـترك الناس فيه معه .


9 786057 131980